معالم
تاريخ العرب قبل الإسلام

دكتور
احمد أمين سليم
أستاذ التاريخ القديم المساعد بكلية الآداب
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

مكتبة كريدية اخوان
بيروت



معالم

تاريخ العرب قبل الإسلام

دكتور

أحمد أمين سليم

مكتبة كريدية إخوان

بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾.

صدق الله العظيم

جغرافية شبه الجزيرة العربيـة
وموارد ها الطبيعية

تعد شبه جزيرة العرب اكبر شبه جزيرة في العالم من حيث المساحـة ، وتبلغ مساحتها اكثر من مليون ميل مربع بقليل ، اما ابعاد شبه الجزيرة ، فيبلـغ طول ساحلها الغربي من رأس خليج العقبة حتى خليج عد ن ١٤٠٠ ميـــلا ، ويبلغ طول ساحلها الشرقي من رأس الخليج العربي شمالا حتى رأس الحـد جنوبا ١٥٠٠ ميلا ، ويبلغ امتداد ها من بحر العرب جنوبا الى الحـــــدود الشمالية للمملكة العربية السعود ية ١٦٠٠ ميلا ، اما عرضها في اضيق نطـاق بين البحر الاحمر والخليج العربي فهو ٧٥٠ ميلا، واما بين خليج عما ن والبحر الاحمر، فيصل الاتساع الى ١٢٠٠ ميلا ٠

ويحد جزيرة العرب من الشرق الخليج العربي المعروف عند اليونـا ن باسم الخليج الفارسي ، ويحد ها من الجنوب المحيط الهندى ، اما حد هــــا الغربي فهو البحر الاحمر، اما حد ها الشمالي فهي باد ية الشام والتي تمتـــد من خليج العقبة حتى مصب شط العرب في الخليج العربي ٠ ومن ثم فا ن المياه تحيط بها من اطرافها الثلاثة فقط ٠

ولقد عرفت البلاد باسم "جزيرة العرب" ، وقد تختصر التسمية الــــى "الجزيرة" فقط من باب التسهيل ، وهناك من الجغرافيين العرب من رأى انها جزيرة فعلا على اساس ا ن الفرات يحيط بها من الشمال الى ا ن تتصل روافـد ه الشمالية الغربية او تكاد بسواحل الشام، وبذ لك يكون حد ها الشمالي من الغرب هي سواحل الشام التي تسير جنوبا الى ا ن تختلط بمياه النيل ، الذى يختلط بد وره بمياه القلزم جنوبا ٠ ومن هذ ه الاسباب كذ لك ، ا ن المنطقة تشبه جزيـرة

بشرية يتحدث سكانها باللغة العربية ، وتحدها (غير الحدود البحريـــة) مجموعة بشرية تتحدث بلغات اخرى .

هذا ويقسم المؤرخون والرحالة اليونان والرومان شبه الجزيرة العربية الى اقسام ثلاثة :

١ـ العربية السعيدة Arabia Eudaemon
٢ـ العربية الصخرية Arabia Petraea
٣ـ العربية الصحراوية Arabia Erema

ويعد قسم العربية السعيدة اكثر الاقسام اتساعاً، ويشمل كل المناطق التي يقال لها جزيرة العرب في الكتب العربية، وليست لها حدود شمالية ثابتة، لانها كانت تتبدل وتتغير على حسب الاوضاع السياسية ، فضلاً عن قوة او ضعف تلك الكيانات السياسية التي تقع الى الشمال منها ، ويرى بعض المؤرخين انه من الخطأ ادخال هذا الجزء من بلاد العرب السعيدة داخل بلاد العـرب ، فهو يعتبر في الواقع من بلاد العرب الصحراوية ، اما الجزء الذى يمكن ان يطلق عليه بلاد العرب السعيدة فهو الجزء الجنوبي الغربي ، حيث تقع بلاد اليمـن لغنى محاصيلها وتنوعها، ولاعتدال مناخها .

اما العربية الصخرية : فتشمل الاراضي التي كان يسكن فيها الانباط ، ويطلق ذلك الاسم ، اى العربية الحجرية على شبه جزيرة سيناء وبلاد الانبـاط وعاصمتها البتراء ، وقد سميت كذلك اما نسبة الى عاصمتها، او الى طبيعـة المنطقة الصخرية . وكانت حدود هذه المنطقة تتوسع وتتقلص بحسب الظـروف السياسية وبحسب مقدرة العرب ، ويظهر من وصف ديودور لهذه المنطقة ، انها في شرق مصر وفي جنوب البحر الميت ، وجنوبه الغربي في شمال العربيـة السعيدة وغربها . وان الانباط يقيمون في الاراضي الجبلية وفي المرتفعـات

المتصلة بها في شرق البحر الميت ووادى العربة ، وفي جنوب اليهودية حتى الخليج العربي ، اما الاقسام الباقية فكانت تسكنها قبائل عربية قيل لها سبئية ، وهي تسمية كانت تطلق عند الكتبة اليونان والرومان على اكثر القبائل المجهولة اسماؤها والتي تقطن وراء مناطق نفوذ الانباط والرومان ، ويعنون بذلك قبائل جنوبية في الغالب ·

اما العربية الصحراوية فيعنون بها بادية الشام في اغلب الامر، وبادية السماوة في بعض الاحايين ، بل ان (ديودور الصقلي) انما يذهب الى انها المناطق الصحراوية التي تسكنها القبائل المتبدية ، وان سكانها من الآراميين والنبط ، وانها تقع بين سورية ومصر ، كما انها مقسمة بين شعوب ذات مزايا وصفات متباينة ، وان كان يبدو ان الرجل لم يكن لديه خط واضح يفصل بين العربية الصحراوية والصخرية · ونقرأ في النصوص الاشورية من عهد (شلمنصر الثالث ٨٥٩ — ٨٢٤ ق·م) ان من بين اعدائه في موقعة (قرقر) عام ٨٥٣ قام مجموعة عربية على رأسها "جندب" وجدت هناك منذ الالف الثانية قبل الميلاد ، وكانت مصدر قلق للحكومات المسيطرة على الهلال الخصيب ، وانها كانت تنتقل في هذه البادية بحرية ، لا تعترف بحدود او فواصل، وانما كانت تقيم حيث الماء والكلأ والمكان الذى يتلاءم وطباعها ·

وعلى اى حال ، فان الجغرافيين اليونان لم يفرقوا بين بلاد العرب الصحراوية والصخرية ، حيث يكون الفاصل بينهما صعبا جدا بالنسبة لهم ، كما ان هؤلاء الجغرافيون قد أغفلوا الكتابة عن المدن الهامة مثل تيماء ودومة الجندل · اما الكتاب العرب فقد قسموا شبه الجزيرة العربية الى خمسة أقسام هي اليمن وتهامة والحجاز ونجد واليمامة ، وكان اساس تقسيمهم "جبل السراة" — اعظم جبال بلاد العرب — وهو سلسلة جبال تبدأ من اليمن ، وتمتد شمالا حتى اطراف بادية الشام ، على مدى ١١٠٠ ميل تقريبا ، ويطلق عليها عدة اسماء

فهي جبال السراة (السراة هي الارض المرتفعة) ، وهي جبال السـروات (جمع سراة) وهي جبال الحجاز ، كما كانت تسمى باسم الاقليم الذى هي فيه، فيقال جبال الحجاز في الحجاز ، وجبال عسير في اقليم عسير.

وسنتناول فيما يلي هذه الاقسام الخمس بشيء من التفصيل :

١ـ اليمـن :

تقع في الركن الجنوبي الغربي لشبه جزيرة العرب . تمتد اليمن علـى طول المحيط الهندى ، ويحدها البحر الاحمر من الغرب والحجاز من الشمال ، وتخترق السراة اليمن من الشمال الى الجنوب حتى البحر ، وتتخللها الاودية التي تنساب فيها مياه الامطار.

اما عن سبب تسميتها باليمن ، فذلك أمر مايزال موضع خلاف ، فهناك من يذهب الى ان ذلك انما كان نسبة الى أول من قطنها من العرب ، الـذى قال له والده ، قحطان أنت أيمن ولدى ، أو لانها تقع على يمين الكعبة . بينمـا يتجه فريق ثالث الى ان السبب انما كان في طبيعة البلاد نفسها ، فهي بـلاد اليمن والخير والبركة ، على ان رأيا رابعا يذهب الى انها سميت بذلك لتيامن العرب اليها ، او لأن الناس قد كثروا بمكة فلم تحملهم ، فالتأمت بنو يمن الـى اليمن ، وهي أيمن الارض فسميت بذلك ، وهناك من يرجح انها سميت اليمـن من كلمة " يمنات " الواردة في نص يرجع الى ايام الملك " شمر يهرعش" غيـر أن كل تلك الآراء لم تقل لنا شيئا عن الاسم الذى كان يطلق عليها قبل ان تسمـى باليمن .

وتشتهر بلاد اليمن بغنى محاصيلها وتنوعها ، واعتدال مناخها ، حتى انها سميت باليمن الخضراء ، وان كان هناك فريق من العلماء يرى شيئا مـن

المبالغة فيما نسب الى اليمن من خصب وثراء ، ويتجه الى القول بأن معظم الحاصلات التي كان يظن ان اليمن مصدرها انما جلبها العرب والمصريون من جزائر الهند وسواحل افريقية الشرقية ، الا ان هناك حقيقة جغرافية واضحة وهي انها كانت بسبب الجبال التي تقع في داخلها عرضة للرياح الموسمية ، فتسقط الامطار التي تجعل أرض اليمن تجود بالبن أهم حاصلاتها ، وبالفاكهة والقمح والاعناب والتوابل ٠

٢ـ تهامة :

تبدأ حدود تهامة في رأى بعض الجغرافيين ، من البحر الاحمر ، فتكون المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الاحمر ، وقد ورد اسم تهامة في النصوص العربية الجنوبية "تهمت" (تهمتم) ، وقد حاول بعض الباحثين ايجاد علاقة بين هذه اللفظة وكلمة (Tiamtu) البابلية ومعناها البحر ، وكلمة تيهوم Tehom العبرية ٠ بينما يتجه "جواد علي" الى ان الكلمة انما ترجع الى اصل سامي قديم ، له علاقة بالمنخفضات الواقعة على البحر ومن ثم فهي شديدة الرطوبة والحرارة في الصيف ، ومن هنا سميت "تهامة" من التهم وهو شدة الحر وركود الريح ٠ الا ان هناك من يرى ان السبب انما هو تغير هوائها ، كما ان هناك من يرى ان التهمة هي الارض المتصوبة نحو البحر ٠ ولعل انخفاض أرض تهامة كان هو السبب في ان يسمى بالغور وبالسافلة ٠

وهي تتألف من تهائم ، فهناك تهامة اليمن وتهامة عسير وتهامة الحجاز ، وفي الواقع ان التهائم ليست هي المنطقة الساحلية السهلة فحسب ، ولكنها تشتمل كذلك على اكثر المناطق الواقعة الى المنحدر الغربي لسفوح جبال الحجاز ، وتختلف في عرضها باختلاف قرب السلاسل الجبلية من البحر

ويبعد ها عنه ، وقد يبلغ عرضها خمسين ميلا في بعض الاماكن ، وقد تضيق في اماكن اخرى الى ان تصبح الهضاب القريبة من الساحل متصلة بالشاطئ • رأساء هذا الى ان اكثر هذه المنطقة الساحلية رملي شديد الحرارة قليل الانبات ، كما ان جميع المدن الساحلية انما تقع في هذه المنطقة ٠

٢ـ الحجــاز :

تمتد رقعة الحجاز في رأى اكثر علماء الجغرافية من تخوم الشام عند العقبة الى (الليث) وهو واد بأسفل السراة يدفع في البحر، فتبدأ عنده أرض تهامة ٠ وقد اعتبر بعض العلماء تبوك وفلسطين من أرض الحجاز ٠ ويقال للقسم الشمالي من الحجاز أرض مدين وحسمى ، نسبة الى السلسلة الجبلية المسماة بهذا الاسم ، والتي تتجه من الشمال نحو الجنوب ، وارض حسمى أرض خصبة كثيرة المياه ، وكانت من المناطق المأهولة بالسكان وبها بقايا أثرية كثيرة ، ومن جبالها جبل يعرف بـ " إرم " ٠

وقد سمي هذا القسم بـ "الحجاز" ، لانه يحجز بين ساحل البحر الاحمر، وهو هابط عن مستواه وبين النجاد الشرقية المرتفعة بالنسبة الى الساحل الغربي ، او لانه احتجز بالجبال ، او لانه يحجز بين الغور والشام ، او لانه يحجز بين تهامة ونجد ، او لانه يحجز بين الشام واليمن والتهائم ٠

وتتخلل الحجاز أودية عديدة ، منها وادى إضم الذى ورد ذكره في اشعار الجاهلية وفي اخبار سرايا الرسول ، ووادى نخال ووادى القرى وهو وادى هام يقع بين العلا والمدينة ، ويمر به طريق القوافل القديم الذى كان شريانا من شرايين الحركة التجارية في العالم القديم ٠

٤ـ نجـــــد :

هي في الكتب العربية اسم للارض العريقة التي أعلاها تهامة واليمن ، وأسفلها العراق والشام ، وحدها " ذات عرق " في الحجاز ، وما ارتفع عن بطن الرمة فهو نجد الى اطراف العراق وبادية السماوة . وعلى اى حال فان (نجدا) بصفة عامة انما هي الهضبة التي تكون قلب شبه الجزيرة العربية ، وهي ليســـت قاحلة تماما وانما توجد فيها بعض اراض صالحة للزراعة ، وهي تتألف مــــــن مناطق ثلاثة : منطقة وادى الرمة ، فالمنطقة الوسطى ، ثم المنطقة الجنوبية . اما علماء العرب فقد قسموا نجد الى عالية وسافلة ، أما نجد العالية : فما ولـــى الحجاز وتهامة ، وأما السافلة فما ولى العراق .

٥ـ العـــروض :

تشمل اليمامة والبحرين وما والاهما ، واغلب الاراضي فيه صحارى وسهول ساحلية ترتفع في الجهات الغربية عن ساحل البحر . ومن اقسام العروض ، شبه جزيرة (قطر) التي تمتد من عمان الى حدود الاحساء .

ويلي شبه جزيرة قطر ، الاحساء ، والقسم الاكبر منها صحراوى يرتفع في الجهة الغربية عن ساحل البحر ويتخلله كثير من التلال ، والمنطقة الساحليـــة تكثر فيها الآبار . وأغنى مناطق الاحساء منطقة الاحساء والقطيف في الجنـــوب حيث تكثر المياه من آبار وعيون . وتقع القطيف على خليج يشمل جزيرة (تاروت) وتعد المدينة البحرية الرئيسية في الاحساء وتكثر بها مياه العيون . وامــــــا القسم الشمالي من هذه المنطقة فهو الكويت ومعظم أرضه منبسطة واكثر سواحلـه رملي ، الا بعض الهضاب او التلال البارزة ، واكثر ما يزرع هناك النخيل . وليس في الكويت من الانهار الجارية غير مجرى واحد يقال له " المقطع " ، واشهـــــر

مدنه الكويت وجهرة ، وهي من أخصب بقاع الكويت حاليا ، كما انها كانت مأهولة بالسكان منذ عصر ماقبل الاسلام ·

مظهر السطح :

تتكون أغلب الارض في بلاد العرب من بواد وسهول تغلبت عليهما الطبيعة الصحراوية، ويمكن ايجاز مظاهر السطح الرئيسية في بلاد العرب على النحو الآتي :

١ ـ الحرار : تعد الحرار من المجموعة الصحراوية ، وهي ارض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار، وهذه الحرات انما هي مقذوفات بركانية تبتدئ من شرق حوران وتمتد منتشرة الى المدينة المنورة ، والحرار كثيرة في بلاد العرب ، ولقد عدّ أحد علماء العرب تسع وعشرين من هذه الحرار وأشهرها حرة واقم ، والتي تنسب اليها وقعة الحرة على أيام يزيد بن معاوية · وتكثر الحرات في الاقسام الغربية من شبه جزيرة العرب ، وتمتد حتى تتصل بالحرار التي في بلاد الشام بمنطقة حوران · وتوجد كذلك في المناطق الوسطى والشرقية الجنوبية من نجد حيث تتجه نحو الشرق ، وفي المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية ·

وفي أرض اليمن عدد كبير من الحرار، منها حرة " أرحب " شمالي صنعاء ، كما ان هناك كثيرا من الحرار في القسم الشمالي من " وادي أبرد " ـ بين صنعاء ومأرب ـ ولعل كثرة الحرار بجوار المدن القديمة هو الذي دفع البعض الى تفسير هلاك بعض المدن على انه من هياج البراكين · وتعد " حرة ضروان " من اشهر حرار اليمن ، وقد بلغ من شهرة قذفها للحمم ان القوم كانوا يتعبدون لها ويتحاكمون اليها فيما يشجر بينهم من خلاف ، وذلك

لاعتقادهم بأن النار تأكل الظالم وتنصف المظلوم ٠

٢ــ الدهنــاء : وهي مساحات من الاراضي تعلوها رمال حمراء فــي الغالب ، وتمتد من النفود في الشمال الى حضرموت ومهرة في الجنوب ، واليمن في الغرب ، وعمان في الشرق ، وفيها سلاسل من التلال الرملية ذات ارتفاعات مختلفة تنتقل في الغالب مع الرياح ، وتغطي مساحات واسعة من الارض ، ويمكن العثور على المياه في قيعانها اذا حفرت فيها الآبار٠ ويعد الجفاف سمــــة هذه المنطقة الصحراوية ، وكذلك تتميز بخلوها من الماء والمراعي ، ولذا فقـــد هجر الناس السكنى في اكثر أقسام الدهناء ، كذلك فان كثرة هبوب العواصـــف الرملية ولشدة حرارتها أقام الناس في الامكنة المرتفعة منها والتي تتساقـــط عليها الامطار٠ والاقسام الجنوبية من الدهناء تسمى بالربع الخالي وذلـــك لخلوها من السكان ٠ أما القسم الغربي من الدهناء فيسمى (بالاحقاف) وهـــو منطقة واسعة من الرمال اقترن اسمها باسم (عاد) ٠ وتكون (وبار) قسما مـــن الدهناء ، وكانت من الاراضي المشهورة بالخصب والنماء وهي اليوم من المناطق الصحراوية ٠

٣ــ النفـــود : وهو الصحراء المسماة " بادية السماوة " ، أما النفود فاسم لم يكن يعرفه العرب ، وعلى اى حال ، فهي صحراء واسعة ذات رمـــال بيض او حمر تذروها الرياح ، فتكون كثبانا مرتفعة وسلاسل رملية متموجة ، يحدها من الشمال وادى السرحان ، ومن غربها الجنوبي واحة تيماء ، ومن الجنـــوب جبلا أجا وسلمى ، ومن شرقها الجنوبي مدينة حائل ٠ وهكذا يبدو واضحا ان صحراء النفود تمتد على مسافة كبيرة من الارض ، تزيد عن مائة الف كيلومتـــر مربع ٠ وكان يطلق على النفود الكبير قديما " رملة عالج " ٠

التضاريس :

أ ـ الجبال :

تكون سلسلة جبال السراة العمود الفقرى لجزيرة العرب ، وتتصل بسلسلة جبال بلاد الشام ، وبعض قمم هذه السلسلة مرتفعة ، وقد تتساقط الثلوج عليها كجبل دباغ الذى يرتفع (٢٫٢٠٠) متر عن سطح البحر ، وجبل شيبان . وتنخفض هذه السلسلة عند دنوها من مكة ، فتكون القمم في اقل ارتفاع ، ثم تعود بعد ذلك الى العلو حيث تصل الى مستو عال في اليمن حيث تتساقط الثلوج على قمم بعض الجبال . وتشتهر منطقة مكة بمجموعة من الجبال ، اشهرها جبل "ابي قبيس" في جنوب مكة ، وجبل "حراء" في شرقها ، وجبل ثور ويشرف على مكة من الجنوب ، وجبل رضوى بين المدينة المنورة والبحر الاحمر .

وتمتد في محاذاة السواحل الجنوبية سلاسل جبلية تتفرع من جبال اليمن ، ثم تتجه نحو الشرق الى ارض عمان ، حيث ترتفع قمم الجبل الاخضر ارتفاعا يتراوح من تسعة آلاف قدم الى عشرة آلاف قدم ، وفي نجد منطقة جبلية تتكون من الجرانيت يقال لها جبال "شمر" وتتألف من سلسلتين ، يقال لاحدهما أجاء ، وللاخرى سلمى . واما جبل (طويق) فهو عبارة عن مرتفعات تقع في الوسط الشرقي من نجد وفي جنوب شرق الرياض ، وتتألف من الحجارة الرملية وتحيط بها الصخور والحجارة الكلسية ، ويطلق الجغرافيون العرب عليها اسم جبال العارض .

ب ـ الاودية والانهار :

تعد بلاد العرب من البلاد التي تقل فيها الانهار والبحيرات ، ومن

ثم يغلب عليها الجفاف ، واصبحت اكثر بقاعها صحراوية قليلة السكا ن ، ولكـــن تتوفر فيها الاود ية وتطغى عليها السيول عند سقوط الامطار ، وهي في الغالب طويلة ، تسير في اتجاه ميل الارض ، اما الاود ية التي تصب في البحر الاحمـر او في البحر العربي ، فانها قصيرة بعض الشي* وذا ت مجرى أعمق وانحــــدار أشد ، والمياه تسير فيه بسرعة • وليس في استطاعة احد التحد ث عن ملاحــــة بالمعنى المفهوم عن الملاحة في نهيرات جزيرة العرب ، وذ لك لأن هـــــذ ه النهيرات اما قصيرة سريعة الجريا ن ، واما ضحلة تجف مياهها في بعــــض المواسم •والامر كذ لك بالنسبة الى البحيرات ، فليس في بلاد العرب بحيرات ، وانما هناك عدد كبير من " السبخات " المالحة وهي مناطق واسعة تو*لف مساحة عظيمة من الارض السهلة غالباً ، وتحتوى على كثير من الاملاح المتجمدة ، ومـــن هذه السبخات سبخة المد ينة المنورة وسبخة حضوضاء في واد ى السرحا ن وسبخة الاحساء • اما الاود ية فكثيرة في شبه الجزيرة العربية ، ولعل من اهمها واد ى الرمة ، ويمتد من شرق المد ينة المنورة في اتجاه شمالي شرقي حتى يصل الـــى (واحة البعايث) ، وواد ى الحمض الذ ى كا ن يسمى قد يما " واد ى إضم " ويبـدأ من جنوب حرة خيبر ، ثم يتجه الى المد ينة المنورة حيث تتصل به أود ية فرعيــة كواد ى العقيق وواد ى القرى ، وهناك كذ لك واد ى السرحا ن وهو ليس واد يـــا بالمعنى المفهوم وانما هو منخفض واسع من الارض يمتد من الجنوب الى الشمال ، وتنحد ر منه أود ية كثيرة من جميع جهاته ، اما واد ى الد واسر فهو واد كبير يتجه شرقا عبر ود يا ن جبل طوق وتنتهي مياهه شرقـا عند اطراف الربع الخالـــي ، وهناك واد ى نجرا ن وهو أحد الاود ية الكبيرة في شبه الجزيرة العربية ، بل هو في الواقع مجموعة أود ية منها واد ى حرض وواد ى مور •

المنـــــاخ :

تعتبر شبه الجزيرة العربية من أشد البلاد جفافا وحراً ، ويرجع ذلـــك

(اولا) لوقوعها في منطقة قريبة من خط الاستواء · (وثانيا) ان معظمها يقع في الاقليم المدارى الحار · (وثالثا) انها بعيدة عن المحيطات الواسعة التي تخفف من درجة الحرارة · (ورابعا) ان المسطحات المائية التي تقع الى الشرق والى الغرب منها — اى الخليج العربي والبحر الاحمر — أضيق من أن تكفي لكسر حدة هذا الجفاف المستمر كذلك فان المحيط الهندى الذى يقع الى الجنوب منها تمنع مرتفعات حضرموت والربع الخالي الامطار الذى يساعد على سقوطها من الوصول الى داخلها ، بالاضافة الى ان رياح السموم التي تنتاب شبه الجزيرة العربية في مواسم معينة تسلب الرطوبة من الهواء قبل ان يدخل البلاد ·

ويسقط المطر في بعض الاحايين على بعض اجزاء شبه الجزيرة العربية فيبعث الحياة في الارض ، ولعل اكثر المناطق حظوة ونصيبا من المطر هي النفود الشمالي وجبل شمر ، اذ تنزل بها الامطار في الشتاء ، اما الصحارى الجنوبية فلا يصيبها المطر الا رذاذا ، واما الساحل الغربي فان المطر ينهمر هناك فتسيل السيول ثم تبدو الارض وكأن لم يصبها شيء · اما اليمن وعسير فتسقط عليها الامطار الموسمية التي تكفل وجود زراعة منتظمة ، وتهب على عسير في الصيف الرياح الموسمية سواء الغربية منها أم الجنوبية الغربية ، فالاولى تصل الى المنطقة من المحيط الاطلسي حاملة معها بعض الرطوبة ، وعندما تصطدم بجبال عسير تسبب هطول المطر ، ولكنها تسبب العواصف الرملية على منطقة تهامة ، ولذا تعرف هناك باسم الغبرة ، وغالبا ماتكون في نهاية الصيف · اما الرياح الجنوبية الغربية ، فتأتي من المحيط الهندى وتكون في اوائل الصيف وتثير البحر الاحمر وتهيجه فترتفع الامواج فيه ، ولا تسقط الا امطارا قليلة ، الا ان جبال اليمن تكون قد أفقدتها اكثر حمولتها ، ولا ينال تهامة منها شيء ·

وينهمر المطر احيانا بشدة فيكون سيولا عارمة تكتسح كل ماتجده ،

امامها ، وتسيل الاودية فتتحول الى انهار سريعة الجريان ، وقد لاقت مكة من السيول مصاعب كثيرة .

الموارد الطبيعيـة :

المعـادن :

أ ـ الذهب : وهو من المعادن التي استخرجت منذ العصور القديمة ومن ثم فقد ذكر الجغرافيون العرب اسماء ومواضع عرفت بوجود خام الذهب بها مثل موضع (بيشة) او (بيش) ، وقد كان الناس يجمعون التبر منه ، ويستخلصون منه الذهب . و(ضنكان) وكان به معدن غزير من التبر ، والمنطقة التي بين القنفذة ومرسى حلج ، وكذلك يشاهد في وادي تثليث على مقربة من (حمضـه) وعلى مسافة ١٨٣ ميلا من نجران آثار التبر ، ويظهر انه كان من المواضع التي استغلت قديما لاستخراج الذهب منها . وقد اشتهرت ديار بني سليم بوجود المعادن فيها وفي جملتها معدن الذهب . وقد ذكر الكتاب اليونان ان الذهب يستخرج في مواضع من جزيرة العرب خالصا نقيا ، لا يعالج بالنار لاستخلاصه من الشوائب الغريبة ولا يصهر لتنقيته . وقد عثرت احدى الشركات في اثناء بحثها عن الذهب في بعض اماكن وجوده في شبه الجزيرة العربيـة على ادوات استعملها الاولون قبل الاسلام في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه ، مثل رحى وادوات تنظيف ومدقات ومصابيح .

ب ـ الفضـة : وجدت مناجم قديمة للفضة شرقي القنفذة ، وعند منتصف المسافة بين وادي قينونة ووادي بناء ، وكذلك استخرجت الفضة من الرضواض في اليمن .

والى جانب الذهب والفضة ، عثر على خامات الرصاص والزنك شرقي القنفذة ، وعثر على مناجم الحديد في وادى فاطمة ·

٢ـ النبات :

يقل وجود النبات والاراضي الزراعية بصفة عامة في بلاد العرب ، وذلك نتيجة لقلة المياه اولا الى جانب جفاف الهواء وملوحة التربة التي تحول دون نمو النبات وازدهاره· وتعتبر نخلة البلح هي ملكة عالم النبات في شبه الجزيرة ، ومازالت حتى اليوم تحتفظ بمركز ممتاز بين الحاصلات الزراعية في بلاد العرب ، وان تدهورت قيمة التمور في السنوات الاخيرة ·

وقد اشتهرت مناطق عديدة من شبه جزيرة العرب بالكروم ، ومنها الطائف واليمن ، كما غرس في الواحات العربية الرمان والتفاح والمشمش والبرتقال والليمون والبطيخ والموز ، ويرجح ان الانباط واليهود هم الذين ادخلوا هذه الفواكه الى بلاد العرب من الشمال · كذلك زرع القمح والشعير في الواحات ، كما ينمو الارز في عمان والاحساء ، ويزدهر شجر اللبان على الهضاب المحاذية للساحل الجنوبي ، وكانت له اهمية كبرى في الحياة التجارية الاولى في بلاد العرب الجنوبية ·

وتوجد في البادية عدة انواع من شجر السنط منها الآثل والغضال الذى ينتج الفحم ، والطلح الذى يستخدم منه الصمغ العربي ، والأراك وهو الحمض وتتخذ منه المساويك ·

٣ـ الحيوان :

يعد الجمل هو الحيوان الاليف الوحيد الذى استطاع بعناده ،

وصلابته على السير بجبروت فوق رمال الصحارى ، وهو ايضا من اقدم الحيوانات التي سمعنا بها عند العرب وأعزها وقد صور في النصوص الاشورية ، عند ذكر معركة (قرقر) ومعارك اخرى وقعت بين العرب والاشوريين . ويرى العلماء ان الانسان قد ذلل الجمل حين صيره أليفا مطيعا في الالف الثانية قبل الميلاد . هذا وقد ذهب بعضهم الى ان العربية الشرقية انما كانت الموطن الذى ذلل هذا الحيوان في الشرق الادنى القديم .

اما الخيل ، فعلى الرغم من اشتهار جزيرة العرب بجمال خيلها وبتربيتها لأحسن الخيل وبتصديرها لها ، فان الخيل في جزيرة العرب انما هي من الحيوانات الهجينة الدخيلة الواردة عليها من الخارج ، ولا ترتقي أيام وصولها الى الجزيرة الى ماقبل الميلاد بكثير ، وقيل انها وردت اليها من العراق ومن بلاد الشام ، او من مصر .

اما البغال ، فانها من الحيوانات المعروفة بتحملها للمشقات وقدرتها على السير في المناطق الوعرة ، وقد استعملت في الحمل وفي الركوب ، وهي تؤدى خدمات في هذه المناطق التي تعد صعبة على الجمل ، ويظهر ان البغال لم تكن كثيرة الاستعمال في جزيرة العرب حتى ظهور الاسلام ، فقد ورد ان بغلة النبي عليه الصلاة والسلام كانت اول بغلة رؤيت في الاسلام ، وقد اهداها له المقوقس ، واهدى معها حمارا يقال له عفير . والحمير هي أول واسطة للركوب والحمل عند الحضر وأهمها ، وهي للحضرى مثل الجمال للبدوى ، ويظهر من ملاحظات بعض الباحثين ان الحمار في جزيرة العرب هو أقدم عهدا من الجمل ومن الخيل والبغال ، اذ كان واسطة الركوب والنقل في اوائل الالف الثانية قبل الميلاد .

والبقر من الحيوانات القديمة في بلاد العرب ، وهي من الحيوانات

الملازمة لاهل الحضر في الغالب ، ولا سيما اهل الريف ، اما الاعراب فـــان استفادتهم منها غير ممكنة ، وكان يستفاد من ألبانها ومن لحومها وجلودها كما يستفاد منها في حرث الارض ، وفي سحب الماء من الآبار وفي جر العربات ٠ اما الاغنام فهي المادة الرئيسية لتموين الناس باللحوم والصوف ، وتربى في معظـــم انحاء جزيرة العرب ٠

وعرفت جزيرة العرب الاسد ، الذى قل وجوده فيها في الاسلام ، ويظهر من كثرة اسمائه في اللغة ومن ورود اسمه في الشعر الجاهلي ، انه كان كثيـــرا فيها ، وهناك اماكن خاصة اشتهرت بكثرة أسودها ومنها (عثر)، و (عتود) ٠

طرق القوافل :

تقع شبه جزيرة العرب في مكان وسط من حيث المناطق المناخيـــــة والنباتية في العالم القديم ، او بعبارة اخرى ، فان الصحراء العربية تقع علـــى أقصر طريق بين أغنى اقاليم العالم القديم التي تتفاوت في انتاجها تفاوتا كبيرا ، مما يؤدى الى التبادل التجارى ، هذا بالاضافة الى ان البدوى يملك وسيلة المواصلات الوحيدة في الصحراء — وهو الجمل ، واخيرا فالتجارة وسيلة ممتـــازة للاستفادة ، وهي افضل بكثير من رحلاته التي يقوم بها بطبعه الى هوامـــش الصحراء ، لمبادلة حاصلاته بحاصلات الزراع المستقرين ٠ وهكذا تكاملت الاطراف لانشاء تجارة رائجة بين الاقليم الموسمي وبلاد الهلال الخصيب من ناحيـــة ، وبين جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وجنوبها ومصر ودول شرق البحر المتوسط من ناحية اخرى ٠ ولقد كان هناك مركزان تخرج منهما الطرق لتسلكها التجـــارة هما : جرها على الخليج العربي ، ومدن الساحل الجنوبي الغربي ، وقـــد سارت هذه الطرق كالآتي :

— الطريق الجنوبي الشمالي : من مأرب الى البتراء ، ويبدأ من عدن

وقنا في بلاد اليمن وحضرموت ، ثم مأرب ثم يتجه الى نجران فالطائف ، ثم مكة ويثرب وخيبر والعلا ومدائن صالح ثم ينفصل الطريق هنا ليتجه فرع منه الى تيماء صوب العراق ، والآخر يتجه الى البتراء ثم الى غزة ثم الى الشام ومصر.

ـ طريق مأرب ـ جرها : ويتجه من مأرب ثم نجران ، حيث يتجه الى الشمال الشرقي في وادى الدواسر ، ثم يتجه الى الافلاج باليمامة .

ـ طريق جرها ـ البتراء : ويبدأ من جرها ثم الهفوف ، ثم الى شمال اليمامة ، ثم يتجه الى الشمال الغربي ، ثم الى حائل فتيماء واخيرا البتراء .

ويرفد هذا الطريق البحر العربي والمحيط الهندى والممالك العربية الجنوبية وخاصة حضرموت ومنطقة عمان ، ويبدأ من الخليج متجها شمالا بغرب مارا بمحاذاة الحدود الشرقية لنجد ثم الى الشمال في اتجاه العراق ، وأما الى بادية الشام .

اما الطريق الاخيرفقد سلك الطرف الشرقي من الربع الخالي ، ويبدأ من حضرموت وعمان الى منطقة اليمامة ، ثم الى بلاد الشام او العراق .

ويلاحظ ان أهم المنتجات التي استخدمت في التبادل التجارى بين الاطراف التي عملت بالتجارة فهي تبر الذهب والصمغ والعاج وريش النعام والبخور من اللبان والمر ، وهي المواد المصدرة من الجنوب الى الشمال .. اما عن اهم صادرات الشمال الى الجنوب فهي الاقمشة والآلات والادوات والمعادن والملح .

مصادر التاريخ العربي القديم

يعتمد المؤرخ في دراسته لتاريخ العرب القديم على العديد من المصادر التي يأتي في مقدمتها المصادر الاثرية وماسجله المؤرخون والرحالة اليونان والرومان ، وما ورد عن بلاد العرب في العصور القديمة في الكتابات اليهودية كالتوراة ، وماسجله المؤرخ اليهودى يوسف بن متى ، وماجاء في الكتابات المسيحية عن بلاد العرب والقبائل العربية ، ثم المصادر العربية التي يأتي في مقدمتها القرآن الكريم ثم الحديث النبوى الشريف ، والتفسير ، وكتب السير والمغازى ، ثم الادب الجاهلي ، فكتب اللغة ، واخيرا كتب التاريخ والجغرافية . وسنقوم فيما يلي بعرض لهذه المصادر :

أولا : المصادر الأثرية

تعد المصادر الاثرية من أهم مصادر التاريخ العربي القديم ، ومع ذلك فان الاهتمام بها جد حديث ، اذ اننا منذ قرن واحد من الزمان كانت معلوماتنا عن تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام تعتمد فقط على مصادر قليلة لا تشفي غليل العلماء ، فكان الاعتماد بشكل رئيسي على ماجاء في التوراة وعلى ماكتبه المؤرخون والرحالة اليونان والرومان ، وعلى كتابات المؤرخين العرب والشعر الجاهلي وظل الامر كذلك حتى أخريات القرن الثامن عشر الميلادى حينما بدأ الاوروبيون يهتمون ببلاد العرب وكان وراء ذلك العديد من الدوافع والاسباب ، التي منها الدوافع السياسية ، فكان للرغبة في السيطرة على بلاد العرب بعد امتداد النفوذ الغربي في الشرق الاوسط والاقصى أثره في دراسة هذه المنطقة ومنها الرغبة في معرفة ماتحويه هذه البلاد من آثار ، فقد سمع الاوروبيون في رحلاتهم الى الهند مايتناقله سكان شواطيء اليمن وحضرموت عن الآثار والابنية

والنقوش المدفونة في التلال والاودية ، كما كان للكتابات القصصية التي سجلها مؤرخو اليونان والرومان والعرب ، وماحفلت به الكتب المقدسة عن ملكة سبـــأ وسليمان عليه السلام أثرها في محاولة الكشف عن التراث القديم لبلاد اليمن ·

ومن اوائل من قاموا باكتشافات علمية منظمة في جنوب بلاد العـــرب "كارستن نيبور Carsten Niebuhr " الذى كان ضمن بعثـــة دانيماركية غادرت مينا" كوبنهاجن عام ١٧٦١م ، وظل في بلاد العرب الجنوبية حتى عام ١٧٩٧م · وكانت النتائج التي توصلت اليها هذه البعثة من أفضـل النتائج التي توصلت اليها البعثات العلمية في ذلك الوقت ، ومازالـــت المعلومات التي دوّنها كارستن نيبور مرجعا أساسيا عن اليمن حتى الآن · وهو يعتبر اول رائد من رواد الغرب ظهر في القرون الحديثة ، وصف بلاد العرب ، ولفت انظار العلماء الى المسند والارقام العربية ، الى جانب ماقدمه من خرائط لأماكن مجهولة لم تكن قد وطأتها قدم اوروبي قبل ذلك · وقد اثارت رحلته هذه هم العلماء والسياح ، فقام من بعده عدد منهم لا يتسع المجال لذكرهـــم جميعا برحلات الى مختلف انحاء جزيرة العرب عادت على التاريخ العربـــي والكشوف الاثرية بالجزيرة العربية بفوائد جمة مكنت الباحثين من تتبع المراحـل الرئيسية لتاريخ العرب في العصور القديمة ·

ومن هؤلاء الباحثين الدكتور أولريخ جاسبار سيتزن الالماني الـذى تمكن من الوصول الى ظفار حيث نجح في العثور على النقوش التي اشار اليهـا كارستن نيبور وفي نسخ خمسة نقوش بالقرب من ذمار تعتبر اولى النقـــوش العربية الجنوبية ، وقد أرسلها الى اوروبا عام ١٨١٠م ، وهذه النصوص علـى قصرها أفادت في تدوين تاريخ العرب قبل الاسلام افادة غير مباشرة ، لانهـا لفتت انظار المستشرقين اليها والى دراسة التاريخ العربي القديم حتـى آل الامر الى حل رموز تلك الكتابة ومعرفة حروفها ·

وخطا البحث الاثرى في جنوب الجزيرة العربية خطوات كبيرة على يد الصيدلي الفرنسي توما يوسف أرنو Tomas Joseph Arnaud الـــذى زار اليمن عام ١٨٤٣م ، وتمكن بفضل علمه بالعقاقير من اكتساب صداقة المشايـــخ والزعماء ، وبهذه الصداقة استطاع ان يتجول في بعض انحاء اليمن ومدنهـــاء ولم يكن ذلك أمرا ميسورا للغرباء ، فزار مأرب وصرواح وقام بنقل ٥٦ نقشا سبئيا ، وكان لعمله اهميته في اقبال المستشرقين على فك رموز الخط العربي الجنوبـــي الذى اطلقوا عليه بشكل عام في البداية اسم الحروف الحميرية ، ولكن سرعـــان ماتبين لهم ان هذه النقوش ليست كلها حميرية ، وان بعضها نصوصا معينيـــة وبعضها كتابات سبئية ترجع الى عهد دولة سبأ ، وبعضها بلهجات اخـــرى ، تختلف عن الحميرية بعض الاختلاف ، وهذه الكتابة ، هي الكتابة المسمـــاة بـ " خط المسند " وبـ " القلم المسند " وبـ " المسند " في الموارد العربية ٠

وفي عام ١٨٧٠م قام اليهودى الفرنسي يوسف هاليـــفي Joseph Halevy برئاسة بعثة فرنسية تابعة لاكاديمية الفنون والآداب الجميلـــة ، بزيارة اليمن ، ولقد دخل اليمن في هيئة يهودى متسول من اهل القدس ليتجنب بذلك مايتعرض له الغرباء واهل البلاد المسلمون على السواء من اخطار وجبال القبائل وقطاع الطرق الذين لا يمسون أهل الذمة بسوء ٠ وقد استطاع بهـــذه الطريقة التجول في ارجاء اليمن حتى بلغ اعاليها مثل نجران واعالي الجـــوف ، وهي المنطقة التي كان فيها المعينيون ، ووصل في تجواله الى مأرب والى صرواح ٠ واخيرا عاد الى فرنسا ومعه ٦٧٦ نقشا لم يكن من بينها الا احد عشر نقشـــا سبق ان نقلها أرنو ، ومع ذلك فأهم نتائج هذه الرحلة كان في المعلومـــات الجديدة التي وردت في هذه النقوش ، فضلا عن الآثار القديمة التي زارهـــا وقام بوصفها وخاصة خرائب " قرنا و " عاصمة دولة معين ٠

ومن أهم من جاء بعد هاليفي ، العالم النمساوى ادوارد جـــلازر

Edward Glaser الذي قام بأربع رحلات الى اليمن بين ١٨٨٢و١٨٩٤ عاد منها بعدد كبير من النصوص والنقوش بلغت زها* ألف نقش ونص ، وبمادة غزيرة من المعلومات . ولقد أعد جلازر نفسه لهذه الرحلات اعدادا جيدا فزار قبل ذهابه الى اليمن كل من تونس ومصر ليتمكن من اللغة العربية ويتعرف على العادات العربية ، ورغم انه يهودي ، فقد ادعى الاسلام وارتدى زي علمائه وسمى نفسه "الحاج حسين" . ولقد تمكن في رحلته الاولى التي أستمرت من اكتوبر ١٨٨٢ وحتى مارس ١٨٨٤م من الحصول على ٢٥٠ نقشا ، وفي رحلته الثانية التي استمرت من ابريل ١٨٨٥ وحتى فبراير ١٨٨٦ تمكن من جمع معلومات مهمة عن طبوغرافية البلاد وأماكنها الاثرية وعاد بعدد من النقوش التي اضيفت الى ممتلكات المتحف البريطاني ، وفي رحلته الثالثة التي استمرت من عام ١٨٨٧ وحتى ١٨٨٨م حصل على أربعمائة نص من مدينة مأرب ، ونصوص اخرى من مدينة صرواح يرجع عهدها الى العصر السبئي . وفي رحلته الرابعة التي استمرت من عام ١٨٩٢ وحتى عام ١٨٩٤ استعان بالاعراب في نسخ النقوش القديمة في مناطق الجوف ، ومن ثم فقد تيسر له جمع مئات من النقوش الهامة دون ان يذهب بنفسه الى تلك المناطق البعيدة المحفوفة بالمخاطر ، كما تمكن خلال هذه الرحلة من جمع مجموعة من النقود العربية القديمة ، التي اصبحت ضمن مقتنيات المتحف الخاص بتاريخ الفنون في فينا .

وبفضل هذا العدد الضخم من النقوش التي حصل عليها جلازر تمكن المهتمون بدراسة تاريخ القسم الجنوبي من بلاد العرب من التعرف على خصائص اللغات العربية الجنوبية القديمة ومقارنتها بغيرها من اللغات السامية بما يستتبعه هذا من التوصل الى معرفة بعض العلاقات الداخلية والخارجية في صدد الاتصالات بين هذه المنطقة وغيرها من مناطق العالم القديم ، ولقد فتحت رحلات جلازر عهدا جديدا لمعلوماتنا عن اليمن . ويرجع

السر في نجاحه وتوفيقه الى اعداده العلمي الذى امتاز به عن سائر رفاقه الذين سبقوه ، فقد درس التقاليد والعادات واللغة العربية والديانة الاسلامية ، ثم انه كان يحدد هدفه قبل البدء في الرحلة ، ولقد قضى حوالي عشرة أعوام بين القبائل العربية فاكتسب صداقتهم وأمن جانبهم ، كما كان محببا الى كثيرين من أفراد قبائلهم والا مااستطاع ان يحصل على ماحصل عليه من وثائق ونقوش وعملات • ومن حسن الطالع أن الله وهب جلازر منذ عودته من رحلاته في بلاد العرب الجنوبية الى حين وفاته فسحة من الوقت مكنته من العناية بالنقوش ودراسة مشاكلها ، كما استغل بعض الاشارات الواردة فيها لوضع مؤلف عن تاريخ بلاد العرب الجنوبية •

وفي عام ١٩٣٦ ، أرسلت جامعة القاهرة بعثة علمية الى جنوب بلاد العرب تحت رياسة الدكتور سليمان حزين ، كانت مهمتها دراسة المنطقة من نواحيها الجغرافية والزراعية والجيولوجية ، وكذلك دراسة النقوش السبئية ، الا ان نشاط البعثة الاثرى اقتصر على المنطقة المحيطة ببلدة " ناعط " ، وقد نشرت البعثة بحثين احدهما عن الخطوط التجارية في شبه الجزيرة في العصر الروماني ، والآخر عن التغيرات المناخية التي أدت الى الهجرات من جنوب شبه الجزيرة الى شمالها في العصور القديمة •

وفي عام ١٩٤٧ ، قام الاستاذ الدكتور احمد فخرى برحلة الى اليمن زار فيها مناطق صرواح ومأرب وماحولهما ، وكذلك جميع مراكز الحضارة المعينية في الجوف ، وقد تمكن من العثور على حوالي ١٢٠ نقشا جديدا لم تكن معروفة من قبل ، كما أخذ مجموعة من الصور " الفوتوغرافية " لكل مارآه من آثار وبخاصة سد مأرب والمعابد الاخرى وبخاصة معبد المقه اله القمر السبئي الموجود في مأرب • وقد نشر نتائج رحلته في بضع مقالات ، وفي كتاب أصدره عام ١٩٥٢م ، في ثلاثة اجزاء • ثم قام بزيارة اليمن مرة اخرى عام ١٩٥٩م حيث زار مأرب للمرة

الثانية ونقل نقوشا جديدة لم تكن معروفة من قبل،كما نجح في الوصول الى موقع معبد في منطقة المساجد، وهو معبد كبير وحالته لا بأس بها .

ولقد توالت بعد ذلك البعثات الاثرية لعمل ابحاثها ودراساتها في جنوب الجزيرة العربية ،حيث أضافت الكثير الى معلوماتنا عن الحياة السياسية والاجتماعية والدينية في جنوب الجزيرة العربية .

والى جانب هذه المجهودات العلمية الخاصة بجنوب الجزيرة العربية، فقد كانت هناك مجهودات موازية في القسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية، ومنها ماقام به الرحالة " دى فرتيما " الذى وصل الى مكة قادما من دمشق عام ١٥٠٣م ثم واصل رحلته الى عدن ، وقد قام برسم خريطة لشبه الجزيرة العربية كما رسمها بطليموس . وفي عام ١٨١٢م تمكن الرحالة السويسرى "جوهان ليدونج بوركهارت" من الكشف عن مدينة البتراء ،كما قام بزيارة الحجاز حيث قدم وصفا دقيقا لموسم الحج وكتب عن مكة والمدينة كتابة علمية .

وفي بداية القرن العشرين قام العالم التشيكوسلوفاكي ألويس موسيل Alois Musil " بزيارة نجد والحجاز وبخاصة المواقع التي كانت تمر بها خطوط القوافل التجارية ، ولقد كتب عدة مؤلفات في وصف شمال الحجاز وبادية الشام ومنطقة الفرات الاوسط وتدمر ونجد .

ومن هؤلاء الرحالة ايضا " هارى سان جون بريدجر فلبي " الذى قام بعدة رحلات في أرجاء المملكة العربية السعودية ، وكانت آخر هذه الرحلات عام ١٩٥١ـ١٩٥٢م وكان بصحبته العالم البلجيكي "ج . ريكمانز" حيث زارا المثلث الواقع بين جدة ونجران والرياض ، وعاد ومعه ١٢٠٠٠ نقشا ، منها تسعة آلاف نقش ثمودى وبقيتها نقوش لحيانية وسبئية .

واستمرت عمليات البحث الاثرى في منطقة الجزيرة العربية ، وقـــام بهذه الجهود بعثات كندية وامريكية والمانية وانجليزية ، واخيرا قامت البعثات الوطنية بدورها في هذا المجال ، ومنها بعثة قسم التاريخ بجامعة الريـــاض برياسة الدكتورعبد الرحمن الانصارى في منطقة الفاو بوادى الدواسر.

وترجع اهمية المصادر الاثرية في كونها التعبير المادى الملموس الذى خلفه لنا الانسان في الجزيرة العربية ، وهو يتصل بكافة مجالات الحيـــاة وميادينها ، وتنقسم المصادر الاثرية الى انواع متعددة منها المصادر الاثريـة المعمارية وتشمل بقايا المنازل والمقابر والمعابد والحصون والسدود ، اى جميع البقايا المعمارية سواء كانت دينية او دنيوية في كافة مجالاتها ، وهناك كذلـك المصادر الاثرية الفنية وتتضمن جميع ماخلفه الانسان في مجالات النحـــت والنقش والتصوير. وهناك كذلك الادوات والاواني المصنوعة من الاحجـــار أو الفخار أو الاصداف أو العظام أو المعادن وغيرها . وتشمل المصادر الاثريـة كذلك أدوات الزينة والعملات التي كانت متداولـة . واخيرا فمن أهم المصادر الاثرية التي خلفها لنا الانسان تتمثل في النقوش التي سجلها الانسان سواء على جدران المعابد او الالواح التذكارية او النصب أو على صخور الجبال .

وسنقوم فيما يلي باعطاء صورة تفصيلية بعض الشيء لبعض انواع هذه المصادر ، ونبدأها بالمصادر الاثرية المعمارية :

تعتبر المصادر الاثرية المعمارية من المصادر الهامة التي يستطيـــع المؤرخ بواسطتها تكوين فكرة عن الاحوال الاجتماعية والسياسية للمجتمع الذى يقوم بدراسته ، فيستدل من طبيعة المواد المستخدمة في البناء وحجم المبـان على المستوى الاقتصادى او الطبقي لهذا المجتمع . وتوضح المبان الدينيـة ، طبيعة المعبودات السائدة ومدى الشعور الديني ، ومن ناحية اخرى فـــان

مواقع الحصون والاسوار تشير الى المناطق التي كانت معرضة للهجوم ، ويستدل من ذلك على أحد امرين ، اما ان هذه المنطقة كانت تجاور مجتمعا آخر وجدت لديه الرغبة في بسط نفوذه ، او مدها على هذه المنطقة ، او لأهمية هذه المنطقة الاقتصادية او الاستراتيجية كأن تكون تقع مثلا على طريق القوافل التجارية او قد تكون معبرا لدولة أخرى .

ولقد وهب الله بلاد العرب الجنوبية الاحجار الجيدة اللازمة للبناء، وبخاصة احجار الجرانيت والجبس والاحجار الجيرية والبازلت ، كما تتوفر بكثرة الاخشاب اللازمة للبناء، ولقد استخدم الانسان في جنوب الجزيرة العربية الطوب مع الحجر في العمارة ، واستكملت المبان العربية الجنوبية تطورها المعماري ، ووضح ذلك في نحت الصخور الرخامية الكبيرة التي كانت تنحت نحتا منتظما ، ويبنى بها بطريقة لا نكاد نتبين منها تعدد الاحجار ، وكانت يتم تماسكها ببعضها بواسطة بعض الاوتاد الرصاصية التي كانت تربط المداميك عن طريق ثقوب ، كما كان يصب الرصاص احيانا لزيادة تدعيم البناء وتثبيته . وتتميز هذه المبان بزخارفها المتعددة ، فقد اهتم بزخرفة الاسقف والحيطان والابواب ، وكان يتم ذلك بواسطة الذهب والفضة والاحجار الكريمة ، اما الاعمدة فكانت تزخرف بصفائح الذهب والفضة .

ومن نماذج المبان المعمارية التي كشف عنها في جنوب بلاد العرب معبد الاله المقه الذى يقع جنوب شرق مأرب والذى يطلق عليه العرب اسم "حرم بلقيس" ، ويبلغ طوله حوالي ٨٦ مترا وعرضه ٧٦ مترا ، وتنتهي الجدران بافريزين يتكونان من مربعات بينها فراغ وهذه تكون فتحات للهواء، ولا يوجد أى اثر للسقف ، ولو ان احتمال وجود سقف ليس بمستبعد لأن اضاءة الفناء قد تتم عن طريق فتحة في السقف حيث لا توجد فتحات لنوافذ ، ويوجد بابان كبيران الا ان احدهما اكبر من الآخر ، والكبير منهما يقع في نهاية الجهة

الشمالية الشرقية ، والاصغر يقع في الجهة الشمالية الشرقية • وكانت تتقدم الابواب والفناء عدد من الاعمدة المربعة الشكل •

وفيما يختص بعمارة الاسوار التي تحيط بالمدن ، فلقد كشف عن بعضها ومنها السور القديم الذى توجد بقاياه عند مدينة تاج الحالية في المنطقة الشرقية لشبه الجزيرة على مقربة من شاطيء الخليج ، وكذلك السور القديم الذى لا تزال آثاره باقية الى ارتفاع اربعة امتار في بعض الاماكن حول مدينة تيماء في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية ، ويفسر لنا هذا السور اهمية الموقع الذى كانت تشغله هذه المدينة في العصور القديمة ، فهي كانت تقع في الطريق بين وادى الرافدين وسورية •

وتجلت عبقرية العرب الجنوبيين في اقامة السدود التي من اشهرها سد مأرب في اليمن الذى شيد بحيث يحجز مياه الامطار وراءه ، حيث يتم التحكم فيها بواسطة عيون تفتح وتغلق حسب الحاجة • ومن هذه السدود كذلك سد السملقي الموجود بأعلى وادى ليه في ضواحي مدينة الطائف جنوب المدينة المنورة بحوالي ٣٥ كيلومترا ، وقد استمر وجوده في العصر الاسلامي ولا تزال معظم جوانبه قائمة •

وهناك نوع آخر من الابنية ظهر بوجه خاص في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية ، وهي المنطقة التي تكثر فيها التكوينات الصخرية ، وكان يتم تشييد المساكن في هذه المناطق بواسطة النحت في هذه التكوينات الصخرية ، بحيث تشكل فيها غرف وواجهات وأعمدة وزخارف ، ومن الامثلة الموجودة لهذا النموذج ما نجده في مدينة البتراء جنوب الاردن ، وفي واحة البدع (التي تعرف باسم مغاير شعيب) شرق خليج العقبة ، وفي مدائن صالح شمال العلا بحوالي ١٥ كيلومترا •

ولم تبذل مثل هذه العناية في تشييد المقابر ، اذ كان يدفن المتوفي في تابوت حجرى قائم الزوايا ، وكان يوضع عليه غطاء حجرى ، وفي اغلب الاحوال كانت تتجمع بعض المقابر في مكان واحد يحيط بها سور . واحيانا كان يدفن الموتى في غرف منحوتة في الصخر او في مدافن مستقلة بحيث يتكون كل مدفن من حجرتين ، وكان يقام نصب على القبر ، والنصب عبارة عن اعمدة ملساء رباعية الاركان ، وفي الجهة الامامية يوجد في أعلى النصب اسم المتوفي ، ويوجد اسفل اسم المتوفي مربع صغير رسم فيه . واحيانا كان يرسم الرأس في الجزء العلوى من النصب وتحت الرسم يذكر اسم المتوفي ، وهناك نوع آخر بسيط من النصب يشتمل على الكتابة وتحتها عينان فقط .

ومن المصادر الاثرية كذلك المنحوتات سواء كانت تماثيل او نقوش بارزة او غائرة ، وتوضح نماذج التماثيل التي عثر عليها في جزيرة العرب وجود صلات بين المناطق التي كشف فيها عن هذه التماثيل وبين حضارات الشرق الادنى القديم في مصر والعراق ، كما يوضح بعضها وجود تأثيرات يونانية في صناعة بعضها . ومن هذه التماثيل ، تمثال صغير عثر عليه في مدينة العلا شمال غرب الجزيرة العربية يبدو من هيئته ان الفنان الذى قام بنحته كان متأثرا بالفن المصرى القديم في مجال نحت التماثيل . ولقد عثر في جزيرة تاروت المجاورة لشاطئ الخليج العربي عند القطيف على تمثال يشبه من حيث نحته التماثيل السومرية التي ظهرت في جنوب بلاد الرافدين . وفي جنوب بلاد العرب ، عثر في مدينة تمنع بقتبان على تمثال لطفل يمتطي أسدا ، ويظهر في هذا التمثال الاثر اليوناني واضحا ، ويظهر ذلك في تمثيل الطفل عاريا ، حيث كان العرى ظاهرة شائعة في التماثيل اليونانية ، وكذلك في ليونة الحركة الخارجية . ويرى استاذنا الاستاذ الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى ان هذا التمثال الذى يرجح انه قد صنع في القرن الاول قبل الميلاد او القرن الاول

الميلادى ، كان تأثيرا يونانيا جاء نتيجة الاحتكاك بين اليونان وجنوبي شبه الجزيرة، فقد اخذ اليونان يزاولون الملاحة في البحر الاحمر منذ القرون الثلاث الاولى ق٠م بتشجيع من البطالمة في مصر ، واستمر ذلك ابان الامبراطورية الرومانية حيث عمل الاباطرة الرومان على فرض نفوذهم على مدخل البحر الاحمر عند مضيق باب المندب ٠ وفي خلال هذا النشاط التجارى البحرى بما فيه من مبادلات كان المجال مفتوحا لوصول بعض الدمى اليونانية التي قدرها الفنان العربي الجنوبي ٠

ومن المصادر الاثرية الهامة التي يعتمد عليها المؤرخ في دراسته لتاريخ شبه الجزيرة العربية المخربشات والنقوش وهي عبارة عن نصوص وكتابات عربية كتبت بلهجات مختلفة ، منها ماعثر عليه في بلاد العرب الجنوبية ، وتتضمن كتابات المعينيين والسبئيين ، ومنها ماعثر عليه في اماكن اخرى من جزيرة العرب ، مثل اعالي الحجاز وبلاد الشام ووسط الجزيرة وشرقها ٠ ولقد ساعدتنا المخربشات والنقوش والكتابات التي عثر عليها بالاضافة للمصادر الاثرية الاخرى في تقديم صورة واضحة الى حد ما عما كان جاريا في تلك البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد وحتى ظهور الاسلام، ولا سيما ان للآثار ميزتها باعتبار انها الشاهد الناطق الوحيد الباقي لنا من تلك الايام الماضية ٠

ومع ذلك فهناك نقاط ضعف تلاحظ على هذه المصادر منها (اولا) : ان الكتابات المؤرخة منها قليلة ، ومن ثم فلم تهدنا الى تقويم ثابت يمكن القول ان العرب القدامى كانوا يستعملونه ، وهذا يجعلنا نعتقد ان العرب كانوا يؤرخون الاحداث طبقا لسني حكم الملوك ، بل ان البعض قد تجاوزوا ذلك الى التأريخ بأيام الرؤساء والبعض الآخر اهمل التأريخ تماما ٠ ومنها (ثانيا) : ان اهمية معظم النقوش تنحصر في الناحية اللغوية اكثر من اهميتها التاريخية ، لانها في غالبيتها تتشابه في مضمونها وفي انشائها لتعلقها بأمور شخصية ٠

ومنها (ثالثا) : ان النصوص اللحيانية عبارة عن مخربشات صغيرة وبعضها ليست نقوشا كاملة ، ومن ثم فان الفائدة منها قليلة ،كما ان قلة من العلماء هي التي كانت بقادرة على ترجمتها ، ومنها (رابعا) : ان معظمها ذات صبغة دينية نظرا لانها وجدت في المعابد والقبور . ومنها (خامسا) : انه يجب اخذ جانب الحيطة والحذر اذا كان النقش يشير الى ملك او حاكم يتحدث عن منجزاته وبخاصة اذا كان الامر يتعلق بانتصارات أحرزها على خصومه ، نظرا لاحتمال المبالغة في تمجيد الانتصارات ، او التهوين من شأن الهزائم .

ومع كل نقاط الضعف هذه ، فقد أفادتنا فائدة كبيرة في تدوين تاريخ العرب القديم ، فقد أمدتنا بأسماء عدد من الملوك ، لولاها لما عرفنا عنهم شيئا ، كما استطعنا من خلال الاشارات التي وردت في بعض النقوش عن حروب وقعت بين بعض المناطق ان نكون فكرة عن طبيعة العلاقات الموجودة بين هذه البلاد ونفس الامر اذا كانت هناك اشارات الى وجود نوع من العلاقات السلمية كالتبادل التجاري او زيارات الوفود وغيرها .

وتقدم بعض النقوش معلومات تساعدنا على معرفة مدى الارتباط او الاتصال بين لغة واخرى ، ومن امثلة هذه النقوش التي عثر عليها ، النقوش المعينية السبئية ، التي وجدت بموقع إثرا في منطقة قريات الملح في القسم الشمالي الاوسط من شبه الجزيرة ، والتي يحاول الباحثون اللغويون ان يجدوا فيها همزة الوصل بين لغة الجنوب ولغة الشمال ، ومن هذه النقوش كذلك ، النقش الذى عثر عليه هاليفي بمنطقة نجران عام ١٧٧٢م والذى اتضح للباحثين بعد دراسته ان لغة العرب الجنوبيين في شبه الجزيرة العربية كانت قريبة في بعض مناحيها من اللغة الاكدية واللغة الحبشية ، وذلك فيما يتصل بتكوين الاسماء وتصريف الافعال وبعض المفردات والضمائر . وكان لهذا النقش اهمية اخرى باللغة ، وهو انه كان من النقوش التي ساعدت الباحثين في ترسم

العلاقة بين الخط العربي الجنوبي وبين الخط الذى كتبت به العرب النقوش التي عثر عليها في سيناء •

ويستفاد من النقوش في معرفة بعض المعلومات عن الاحوال والنظم والقوانين والعادات التي كانت سائدة في منطقة او اخرى من شبه الجزيرة العربية • وفي هذا المجال فلقد كشف عن آلاف النقوش التي تتصل بعبادة بعض الآلهة مثل المقه وعشتار وشمس ، كما كشف عن بعض النقوش التي سجلت بعض القوانين او التي تشير الى بعض القوانين التي كانت سائدة في وقت تسجيلها •

وتعتبر البقايا الفخارية من المصادر الهامة التي يعتمد عليها المؤرخ في دراسته لتاريخ العرب قبل الاسلام ، اذ تشير البقايا الفخارية الى الاحوال الاجتماعية ، فقد كان الفخار هو السلعة الاكثر استخداما في الحياة اليومية ، وتشير كميات الفخار التي يعثر عليها على مدى وجود حياة مستقرة من عدمه • ويستدل كذلك من طراز صناعة الاواني الفخارية وزيناتها على التطور الحضارى ، كما انها تستخدم كوسيلة من وسائل التقويم الزمني للموقع الذى توجد فيه ، وذلك عن طريق دراسة المادة المستخدمة في صناعتها وتقنيتها ونقوشها وزيناتها ومقارنتها بالبقايا الفخارية المشابهة في المواقع الاخرى •

ومن المصادر الاثرية كذلك ، العملة ، وهي تساعد المؤرخ في تحديد التواريخ والتعرف على اسماء الملوك الذين اصدروها ، وتفيد كذلك في معرفة الاحوال الاقتصادية من حيث المعدن الذى صنعت منه • وفي احيان اخرى يستدل من وجود عملات اجنبية على معرفة العلاقات التجارية الخارجية •

ثانيا : كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان

تتضمن كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان على معلومات تاريخية وجغرافية عن بلاد العرب قبل الاسلام ، ويبدو ان مصدر معلومات هؤلاء الكتاب هم الجنود اليونان والرومان الذين اشتركوا في الحملات التي وجهتها بلادهم الى بلاد العرب ، وكذلك من السياح الذين اختلطوا بقبائل عربية واقاموا بين ظهرانيها ، وكذا من التجار والبحارة الذين كانوا يتوغلون في تلك البلاد . وتعد الاسكندرية من اهم المراكز التي كانت تعنى بجمع المعلومات عن بلاد العرب وعادات سكانها ، ومنتجاتها ، وذلك لتقديمها الى من يرغب فيها من تجار البحر المتوسط ، وقد استقى كثير من كتاب الاغريق والرومان معارفهم من هذه المصادر التجارية العالمية .

ورغم اهمية هذا المصدر ، الا ان هناك نقاط ضعف فيه ، منها ، ان هؤلاء الكتاب كانوا يحكمون على مايرونه ويسمعونه من وجهة نظرهم ، وحسب عقليتهم وادراكهم وتأثرهم بعادات بلادهم ودياناتها ، فضلا عن انهم لم يكونوا يعرفون لغة البلاد التي كانوا يصفونها ، او يتحدثون عن تاريخها ، فاعتمدوا على رواية محدثيهم ، وكلهم من مستوى لا يزيد عنهم كثيرا ، اضف الى ذلك ان كثيرا منهم قد أساؤا فهم مارأوه ، او ذهب بهم خيالهم كل مذهب في تفسير او تعليل ماسمعوه ، بل ان بعضهم قد ذهب الى وجود اصل مشترك بين بعض القبائل العربية واليونانية ، ولعل في هذه الفكرة – رغم سذاجتها – مافيها من اشارات الى علاقة قديمة جدا بين سكان شبه الجزيرة ، وبين سكان البحر المتوسط الشماليين .

ومن اولى اشارات المصادر اليونانية عن بلاد العرب ، ماورد في ملحمة هوميروس الاوديسية ، وكذلك الاشارة التي وردت في اشعار هزيـــــــودوس Hesiodes ، ثم الاشارات التي وردت في مسرحية ايسخيلـوس Aeschylos (٥٢٥/ ٥٢٤ـــ ٤٥٦ ق٠م) ٠

وابتداء من مطلع القرن الخامس قبل الميلاد بدأت الكتابات التاريخية المفصلة عن بلاد العرب في الظهور، ومن هؤلاء المؤرخين :

١ـــ هيرودوت Herodotus (حوالي ٤٨٤ـــ ٤٣٠ ق٠م): تعتبر كتاباته اول كتابات مفصلة عن بلاد العرب ، وقد تعرض هيرودوت لذكر العرب عنــــــد الحديث عن الحروب التي قامت بين فارس ومصر على ايام الملك الفارسي قمبيــز (٥٣٠ــ ٥٢٢ ق٠م) ٠

ويلاحظ ان هيرودوت في كتاباته لا يقصر تسمية بلاد العرب على شبـــه الجزيرة العربية ولكنه يطلقها ، الى جانب شبه الجزيرة العربية على كل القســـم الداخلي من سورية وعلى شبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية ، ولقد تطرق في كتاباته الى موقع شبه الجزيرة العربية وتربتها وعن عادات العرب وتقاليد هـــــم وعقائد هم الدينية وملابسهم وسلاحهم وطرقهم في الحرب ، وأورد في كتاباتـــــه كذلك الشيء الكثير عن منتجات بلاد العرب كاللبان والمر والقرفة واللادن ، كما ذكر مقتطفات من تاريخهم وعلاقاتهم الخارجية ٠ ولكن يؤخذ على كتابـــــات هيرودوت انها لم تنجو من الافكار الساذجة التي سادت عصره ، وجعلــــــت كتاباته بها نواة الحقيقة ومغلفة بالمبالغة والتحريف ٠

٢ـــ ثيوفراستوس Theophrastos (حوالي ٣٧١ ـــ٢٨٧ ق٠م)
كان اخصائيا في التاريخ الطبيعي واحد تلاميذ ارسطو، واصبح خليفته فـــــي

رئاسة معهد اللوتيون ، وقد ألف كتاب Historia Plantarum وكذلك كتاب De Causis Plantarum ، ويلاحظ انه في خلال حديثه عن النباتات تطرق الى ذكر البقاع العربية التي كانت تنمو بها الاشجار التي يتحدث عنها ، وخص بالذكر المناطق الجنوبية من بلاد العرب ، فكان اول من ذكر السبئيين وتكلم بشكل تشريحي عن اللبان والمر الذى يستخرج من مناطقهم كما اعطى بعض المعلومات عن تجارتهم وسفنهم .

٣ـ اراتوشنيس Eratosthenes (٢٧٥ـ ١٩٤ق.م) : كان جغرافيا ، ولقد قدم في كتاباته تقسيما لبلاد العرب ، فقسمها الى بلاد العرب الصحراوية وبلاد العرب الميمونة ، وقسم المنطقة من الشمال الى الجنوب حسب الحياة الاقتصادية التي يمارسها السكان ، كما تكلم عن بعض الشعوب الموجودة في جنوب الجزيرة العربية مثل معين وسبأ وقتبان وحضرموت .

٤ـ سترابون Strabo (٦٤ق.م ـ ١٩م) : ألف كتابا باللغة اليونانية في سبعة عشر جزءا اسماه "الجغرافية" Geographica ، ووصف فيه الاحوال الجغرافية الطبيعية لمقاطعات الامبراطورية الرومانية الرئيسية وتاريخها واحوال سكانها الاجتماعية والدينية ، وقد خصص في كتابه السادس عشر فصلا خاصا عن بلاد العرب ، ذكر فيه الخطوط التجارية البحرية والبرية من موانئ وطرق الجانب الشرقي للبحر الاحمر الى موانئ وطرق الجانب الغربي لهذا البحر ، محددا بدايات الخطوط ونهاياتها والمواقع التي تمر بها ، وتعرض لنظام الحكم الذى كان يسود بعض المناطق العربية ، والعلاقات التي كانت تربط بين اقوام المنطقة وغيرهم ، ومن اهم ماقدمه سترابون وصفه للحملة الرومانية على الجزيرة العربية ، وهي الحملة التي قادها ايليوس جالوس Aelius Gallus اول وال روماني على مصر . وقيمة حديثه عن الحملة ترجع الى انه قد شارك بنفسه فيها وكان صديقا شخصيا لقائدها ، ومن ثم فقد تيسر له الحصول

على معلومات قد لا تتيسر لغيره ، فوصفه لها وصف شاهد عيان ، وقد استهل وصف الحملة بهذه العبارة : "لقد علمتنا الحملة التي قام بها الرومان على بلاد العرب بقيادة ايليوس جالوس في ايامنا هذه اشياء كثيرة عن تلك البلاد ". ولقد ذكر الاسباب التي أدت الى التفكير في القيام بهذه الحملة ، والاستعدادات التي سبقتها ، والطرق التي سلكتها ونتائجها والاخطاء التي وقعت فيها .

٥ـ بلينيوس الاكبر Pliny the Elder (٢٣/ ٢٤ ـ ٧٩م) : هو جايوس بلينيوس سيكوندوس Gaius Plinius Secundus ومن كتبه المهمة كتابه "التأريخ الطبيعي Naturalis Historia" الذى قسمه الى سبعة وثلاثين قسما ، ولقد تناول شبه الجزيرة العربية في قسميه من هذا المؤلف ولقد تحدث فيهما عن بلاد العرب وثرواتها وجغرافيتها ومدنها وسكانها وبعض الاحداث التاريخية التي مرت بها ، وطرق التجارة في شبه الجزيرة والمسافات بين بعض المراكز التجارية . ويتحدث كذلك عن المنتجات الطبيعية لشبه الجزيرة العربية ومناطق تواجدها ومواسم محاصيلها وطريقة استخراجها وجمعها . كما يتحدث عن اثمانها .

٦ـ ومن الكتب الهامة التي وصلتنا عن شبه الجزيرة العربية كتاب لمؤلف يوناني مجهول ، واسم الكتاب "الطواف حول البحر الاريترى" . وقد اختلف المؤرخون حول الوقت الذى تم فيه تأليف هذا الكتاب ، فيرى البعض انه في نهاية القرن الاول الميلادى ، أو في عام ٨٠م ، او في النصف الاول من القرن الثالث الميلادى . وقد وصف مؤلف هذا الكتاب في مؤلفه تطوافه في البحر الاحمر وسواحل بلاد العرب الجنوبية ، فوصف الطرق التجارية بين مصر والهند مرورا بشواطئ شبه الجزيرة ، كما اشار في كتابه الى الانباط وكذلك علاقة الامبراطورية الرومانية بشبه الجزيرة العربية . الا انه لم يهتم الا بأحوال السواحل ، اما الاقسام الداخلية من جزيرة العرب ، فيظهر انه لم يكن ملما بها

إلماما كافيا ٠

٧ـ كلاوديوس بطلميوس Claudius Ptolemaius (القـــرن الثاني الميلادي) : ألف كتابا في الجغرافيا أسماه " الدليل الجغرافـــي Geographike Hyphegesis وقد جمع فيه بطلميوس ماعرفه العلمـــاء اليونان وماسمعه هو بنفسه وماشاهده بعينه ، ولقد قسم فيه الاقاليم بحســب درجات الطول والعرض، وتكلم في كتابه على مدن البلاد العربية وقبائلهـــا واحوالها ، وتعتبر الخريطة التي أرفقها بكتابه أدق خريطة وضعت في العصــر القديم ، وظلت هي الخريطة المعمول بها حتى بدايات العصر الحديث ٠ ولقد قسم بطلميوس شبه الجزيرة العربية الى ثلاثة اقسام : العربية الصحراويـــة ، والعربية الصخرية والحجرية والعربية الميمونة ٠

ثالثا : الكتابات اليهودية

١ ـ التـوراة :

التوراة او (التورة) كلمة عبرية معناها الهداية والارشاد ، ويقصد بهـا الاسفار الخمسة الاولى (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنيه) والتـي تنسب الى موسى ـ عليه السلام ـ وهي جزء من العهد القديم ، والذى يطلـــق عليه تجاوزا اسم " التوراة " من باب اطلاق الجزء على الكل ، او لاهمية التـــوراة ونسبتها الى موسى عليه السلام ٠

هذا وقد تحدثت التوراة في كثير من اسفارها عن العرب وعلاقتهـــم بالاسرائيليين ، غير انها عندما تتحدث عن العرب ، تهتم بالاماكن والقبائـــل العربية ذات العلاقة الاقتصادية باليهود في بعض الاحيان ، وذات العلاقـة

السياسية في احوال اخرى ، ولهذا نجدها عندما تتحدث عن القبائل العربية، تتحدث عنها على اساس انها قبائل كانت لها علاقة بالعبرانيين ، ثم هي قبائل بدوية في المكان الاول، الا عندما يتصل الامر بقصة سليمان ـ عليه السلام ـ وملكة سبأ ، فان هذه القبائل تصبح ذات شأن آخر . وعلى اى حال، فعلينا حين نتعامل مع التوراة كمصدر تاريخي ، ان نتخلص تماما من الهالة التي أسبغها عليها المؤمنون بها، وان ننظر اليها كما ننظر الى غيرها من المصادر التاريخية وذلك لأن من كتبوا التوراة المتداولة اليوم كانوا بشرا مثلنا، وهم كمؤرخين لا يختلفون كثيرا عن نظائرهم من معاصريهم في الشرق ، وهي مادامت كتاب تاريخي ، فليس هناك مايمنع من مناقشتها ونقدها فيما يتفق مع المنطق والمعقول .

٢ ـ التلمود :

هناك نوعان من التلمود ، التلمود الفلسطيني او التلمود الاورشليمي كما يسميه العبرانيون اختصارا، والتلمود البابلي نسبة الى بابل بالعراق ويعرف عندهم باسم بابل اختصارا . ولكل تلمود من التلمودين طابع خاص به ، هو طابع البلد الذى وضع فيه ، ولذلك يغلب على التلمود الفلسطيني طابع التمسك بالرواية والحديث ، اما التلمود البابلي ، فيظهر عليه الطابع العراقي الحر وفيه عمق في التفكير وتوسع في الاحكام والمحاكمات وغنى في المادة . وقد بدىء في وضع التلمود منذ القرن الثالث الميلادى ، وهو يكمل احكام التوراة .

ولقد تحدث التلمود عن عدد من جوانب الحياة عند العرب ، وان كان على الباحث ان يستنتج ذلك بشكل غير مباشر في اغلب الاحوال من حديث كتاب التلمود عن المسائل الفقهية والتشريعية وهو الموضوع الاساسي له ، والتي تتطرق الى مايجوز وما لا يجوز العمل به في المعاملات بين العرب والعبرانيين،

كذلك يجب ان ندخل في اعتبارنا ان عددا من الامثلة التي ترد في التلمود في سبيل الحديث عن هذه المعاملات انها تشير الى عرب سيناء وليس الى سكان شبه الجزيرة العربية .

٣ـ كتابات المؤرخ اليهودي يوسف بن متى (يوسف فلافيوس) :

ولد يوسف بن متى في اورشليم عام ٣٧م ، وتوفي حوالي عام ١٠٠م في روما ، ولقد ألف وهو في روما كتبه المعروفة التي من اهمها " تأريخ عاديات اليهود Joudaike Archaioloigia " تنتهي حوادثه بعام ٦٦م ، وقد ألفه من عشرين جزءا ، وكتاب " تأريخ حروب اليهود Peri tou Joudiakou Polemou " وتبدأ حوادثه من استيلاء انطيوخس انيفانوس Antiochus Epiphanos على القدس عام ١٧٠ ق.م ، وحتى الاستيلاء عليها مرة ثانية في عهد تيتس Titus سنة ٧٠م ، ولقد كان المؤلف شاهد عيان لهذه الحادثة .

وتحتوي مؤلفاته معلومات قيمة عن العرب ، وبخاصة الانباط الذين كانوا يقيمون على ايامه في منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات فتتاخم بلاد الشام ، ثم تنزل حتى تتصل بالبحر الاحمر ، غير انه لم يهتم الا من ناحية علاقة الانباط بالعبرانيين ، فضلا عن ان بلاد العرب عنده لا تعني سوى مملكة الانباط .

وعلى الرغم من تحيزه لقومه اليهود ورغبته في ارضاء حماته من الاباطرة الرومان ، واعتماده الى حد كبير على كتاب العهد القديم في مؤلفاته ، فان لمؤلفاته قيمة تاريخية لا شك فيها ، وبخاصة الفترة التي عاصرها والحروب التي شارك فيها .

رابعا : الكتابات المسيحية

ترجع اهمية الكتابات المسيحية الى انها في ثنايا عرضها لانتشار المسيحية في بلاد العرب تعرضت الى ذكر القبائل العربية وبعض ماكان يوجد فيها والعلاقات فيما بينها وكذلك علاقة القبائل العربية بكل من الفرس واليونان كما ترجع اهميتها ايضا الى انها كانت حينما تتعرض لذكر حوادث معينة كانت تربطها بتواريخ ثابتة مثل المجامع الكنسية او تواريخ بعض القديسين او الحروب الهامة . ولقد ساعدنا ذلك في معرفة تواريخ الاحداث التي أشارت اليها الكتابات المسيحية ، ومن هؤلاء الكتاب المسيحيين :

يوسيبيوس Eusebius (٢٦٣ـ ٣٤٠م) : كان واحدا من آباء الكنيسة البارزين في عصره ، وقد ولد في فلسطين ، او ربما في قيصرية التي كان أسقفا لها ، وهو اول مؤرخ كنسي يعتد به ، ولقد اطلق عليه العديد من الالقاب التي من بينها : يوسيبيوس القيصري ، وابي التاريخ الكنائسي ، وهيرودوت النصارى . وساعده اتصاله بكبار رجال الدولة ورؤساء الكنيسة على ان يعرف الكثير من اسرار الدولة وان يراجع المخطوطات والوثائق التي كانت تحويها خزائن الحكومة وخزائن كتب الرؤساء والموسرين . ومن اهم مؤلفاته نذكر مؤلفه الذى اطلق عليه " The Chronicon " وقد ألفه باللغة اليونانية ، ولقد ضم بجانب التاريخ العام تقاويم وجداول بالحوادث التي حدثت في ايامه ، ولقد استعرض في هذا المؤلف تاريخ اليونان والرومان حتى سنة ٣٢٥م ، وامكننا من خلاله معرفة علاقتهم ببلاد العرب وتتبع بعض الاخبار والحوادث التي حدثت في بلاد العرب .

وبالاضافة الى هذا المؤلف ، فقد ألف العديد من الكتب التي منها :

" التأريخ الكنائسي " الذى اخرجه في عشرة اجزاء" وهو يبدأ بالمسيح عليه السلام وينتهي بوفاة الامبراطور ليكينوس Licinius عام ٣٢٤م ، وكتاب " شهداء فلسطين " الذى تحدث فيه عن معاناتهم حتى الاستشهاد في الفترة من ٣٠٣ـ ٣١٠م وكتاب سيرة قسطنطين ، ويمكننا من خلال هذه المؤلفات معرفة بعض الاخبار عن بلاد العرب وبخاصة بلاد العرب الشمالية •

بروكبيوس Procopius (المتوفي عام ٥٦٣م) : يعد بروكبيوس المؤرخ الكنسي لعصر جستنيان ، وكان أمين سر القائد بليزاريوس، وقد رافقه عدة سنين في بلاد فارس وشمال افريقية وجزيرة صقلية ، وقد تحدث في كتابه " تاريخ الحروب " عن المعارك التي دارت بين الغساسنة واللخميين ، فضلا عن غزو الاحباش لليمن في الجاهلية •

ومن هؤلاء المؤرخين المسيحيين كذلك نذكر كل من اثاناسيوس (حوالي ٢٩٦ـ ٣٧١م) وجيلاسيوس (حوالي ٣٢٠ـ ٣٩٤م) وروفينوس تيرانيوس المتوفي عام ٤١٠م وايرينوس أسقف صور والمتوفي عام ٤٤٤م، وزكريا المتوفي حوالي عام ٥٦٨م، ويوحنا ملالا المتوفي عام ٥٧٨م •

وذلك بالاضافة الى ماكتبه المؤرخين النصارى من روم وسريان في ايام الدولة الاموية والدولة العباسية ، ولقد ألفوا في التاريخ العام وتاريخ النصرانية فتحدثوا عن العرب في الجاهلية والاسلام • وترجع اهمية هذه المؤلفات في تتبع انتشار المسيحية بين القبائل العربية وعلى معرفة صلات الفرس والروم بالعرب •

وتوجد في قائمة المخطوطات السريانية في المتحف البريطاني اسماء مخطوطات تاريخية ودينية ذات فائدة كبيرة في معرفة اخبار بلاد العرب

وعلاقاتهم وذلك اثناء تتبعها لانتشار المسيحية في بلاد العرب .

خامسا : المصادر العربية

١ ـ القرآن الكريم :

يأتي في مقدمة المصادر العربية القرآن الكريم ، كتاب الله الذي "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد" (سورة فصلت ، آية ٤٢) تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظه وصيانته "انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" (سورة الحجر: آية ٩) وحماه وصانه من ان يتطرق اليه شيء من الضياع فقال سبحانه وتعالى : "وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد" (سورة فصلت آية ٤١ ـ ٤٢) وقوله جل من علا : "ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه" (سورة القيامة ١٧ ـ ١٩) .

ويعتبر القرآن الكريم من اصدق المصادر وأصحها على الاطلاق ، فلا سبيل الى الشك في صحة نصه بحال من الاحوال ، والقرآن الكريم كتاب هداية وارشاد أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستورا للمسلمين ومنهاجا يسيرون عليه في حياتهم فاذا ماعرض لحادثة تاريخية ، فانما للعبرة والعظة كذلك فان القرآن الكريم في محاولته تصحيح عدد من الاوضاع والممارسات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي عند نزوله ، يعطينا فكرة واضحة عن هذه الاوضاع والممارسات ، وعن الدوافع التي أدت بهذا المجتمع الى اتخاذها طريقا للسنة والتعنت في سبيل المحافظة عليها ، وهي دوافع يسهب القرآن الكريم في عرضها وتفصيلها ، ومن ثم نستطيع تكوين صورة عن الصراع الذي شهده مجتمع الجزيرة

العربية في نهاية العصر الجاهلي بين ماكان قائما وبين ماكانت الدعـــــوة الاسلامية بسبيل تقديمه .

ويقدم لنا القرآن الكريم معلومات هامة عن عصور ماقبل الاسلام فـــي الجزيرة العربية واخبار دولها وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، فقـد اشار القرآن الكريم في كثير من آياته الى ديانات العرب ومعتقداتهم في العصر الجاهلي فأشار الى اصنام العرب وآلهتهم وطقوسهم الدينية ومن هـــذه العبادات عبادات ود (القمر) والشمس والشعر ونسر واللات والعزى ومناة ، ويشير القرآن الكريم الى العديد من الدعوات الدينية التي قام بها عدد مـن الانبياء في بعض مناطق شبه الجزيرة العربية مثل دعوة هود في قوم عـــاد الاولى في الجزيرة العربية الجنوبية ، ودعوة صالح في قوم ثمود ، ودعوة شعيب في اهل مدين . كما اشار الى العديد من عاداتهم كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر ، ومن الناحية الاقتصادية فقد اشار القرآن الكريم الى بعـض مجالات نشاطهم الاقتصادى والرحلات التجارية التي كانوا يقومون بها فـــي الصيف والشتاء ، وفي ذلك قوله جل وعلا " لا يلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" (سورة قريش) .

وبالاضافة الى ذلك فان القرآن الكريم قد انفرد ـ دون غيره مـــن الكتب السماوية ـ بذكر اقوام عربية بادت كقوم عاد وثمود ، فضلا عن قصة اصحاب الكهف وسيل العرم وقصة اصحاب الاخدود واصحاب الفيل وغيرها . كما اشـار القرآن الكريم في العديد من آياته الى احدى ممالك العرب الجنوبية ، وهـــي مملكة سبأ ، فأشار الى الكثير من احوالها السياسية والاقتصادية ونظام الحكـم بها ، وذلك في سياق قصة ملكتها مع نبي الله سليمان عليه السلام .

٢ـ الحديث الشريف :

اذا كان القرآن الكريم هو المصدر الديني الاول ، فان المصدر الديني الذى يليه هو الحديث . والحديث هو ماورد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قول او فعل او تقرير . وجاء الحديث مفسرا للقرآن الكريم ، ذلك ان كثيرا من آيات القرآن الكريم مجملة او مطلقة ، او عامة ، فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبينها او قيدها او خصصها ، وذلك تصديقا لقوله تعالى " وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم " (سورة النحل آية ٤٤) ، ومن هنا كان الحديث الشريف هو المصدر الثاني للشريعة الاسلامية ، ثم هو اصدق المصادر التاريخية بعد القرآن الكريم لمعرفة التاريخ العربي القديم .

واهمية الحديث كمصدر تاريخي للمجتمع العربي قبل الاسلام تنحصر في عصوره القريبة من الاسلام بالذات ، ومن ثم يصبح الحديث مطابقا لها من الناحية الزمنية ، ولقد تضمنت الاحاديث النبوية الشريفة بجانب الاحكام الدينية وقوانين المجتمع الاسلامي بعضا من اخبار العرب وعاداتهم الاجتماعية والفكرية قبيل الاسلام .

٣ ـ التفسير :

رغم أن القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب ، فانه لم يكن كله في متناول الصحابة جميعا يستطيعون ان يفهموه اجمالا وتفصيلا بمجرد أن يسمعوه ، ومن ثم فقد اختلفوا في فهمه حسب اختلافهم في ادوات الفهم وذلك لاسباب منها : انهم كانوا يعرفون اللغة العربية على تفاوت فيما بينهم ، وان منهم من كان يلازم النبي صلوات الله وسلامه عليه ويشاهد الاسباب التي دعت الى نزول الآيات ، ومنهم من ليس كذلك ، ويرجع ذلك ايضا الى اختلافهم في معرفة

عادات العرب في اقوالهم وافعالهم .

وكان ذلك من دواعي نشأة علم التفسير، وذلك لفهم القرآن وتدبره، ولبيان ماأوجز فيه، او ماأشير اليه اشارات غامضة، وقد نشأ علم التفسير في عصر الرسول — عليه الصلاة والسلام — فكان النبي اول المفسرين له، ثم تابعه اصحابه من بعده، ولعل اشهرهم الامام علي — كرم الله وجهه — وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود .

ونظرا لتضخم التفسير بالاسرائيليات في عصر التابعين، مما دفع الامام احمد بن حنبل الى ان يقول "ثلاثة ليس لها اصل، التفسير والملاحم والمغازي" اي ليس لها اسناد، لأن الغالب عليها المراسيل، والى ان يقول الامام ابن تيميه "والموضوعات في كتب التفسير كثيرة".

ورغم ذلك، ورغم هذه الشوائب التي شابت التفسير، فالذي لا شك فيه ان كتب التفسير تحتوي على ثروة تاريخية قيمة، تفيد المؤرخ في تدوين التاريخ العربي القديم، وتشرح ماجاء في مجملات القرآن الكريم . ويتصل بالفترة التي سبقت البعثة المحمدية من عادات وتقاليد واقوال جاء ذكرها مجملا في القرآن الكريم .

٤ — الشعر الجاهلي :

يعتبر الشعر الجاهلي من المصادر التي يعتمد عليها الباحث في دراسته لتاريخ العرب قبل الاسلام، وذلك لما اشتمل عليه من امور تتصل بالفخر والحماسة والرثاء والهجاء، او وصف لطبيعة بلاد العرب، حتى انه قيل فيه "انه ديوان العرب"، ويعنون بذلك انه سجل سجلت فيه اخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم وافكارهم .

وليس أدل على اهمية الشعر الجاهلي ماروى عن "عكرمة" تلميذ ابن عباس انه قال : ماسمعنا ابن عباس فسر آية من كتاب الله عز وجل الا نزع فيها بيتا من الشعر ، وكان يقول : "اذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله ، فاطلبوه في الشعر ، فانه ديوان العرب ، به حفظت الأنساب ، وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله ، وغريب حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحديث صحابته والتابعين ". وعن ابن سيرين قال : قال عمر بن الخطاب : "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الاسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد ، وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالامصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم أكثره".

ويعود الفضل للشعر الجاهلي في بقاء الكثير من الاخبار المتعلقة بالجاهلية التي لولاه لما كنا نعرف من أمرها شيئا ، كما كان سببا في تخليد بعض الاحداث لسهولة حفظه ولقيام راويه بقص المناسبة التي قيل فيها . ويضاف الى ذلك ان كثيرا من شعراء الجاهلية قد ساهموا في الاحداث التي حدثت في الجاهلية ، ومن ثم فان اشعارهم تعتبر سجلا حيا معاصرا لهذه الاحداث ، والعوامل التي أدت اليها ومآآلت اليه . كما ان حياة بعضهم اتصلت بالاسلام ، فلم يكن شعرهم وماقالوه ورووه ببعيد عهد عن اهل الاخبار ورواة الشعر .

على انه يؤخذ على الشعر الجاهلي — كمصدر تاريخي — بعض المآخذ والتي منها انه لا يرجع الى أبعد من عصر الجاهلية ، وهو جزء من عصر ماقبل الاسلام ، فان ماوصلنا من الشعر الجاهلي لا يتخطى بدايات القرن السادس الميلادي ، اى انه يخطي قرنا واحدا قبل العصر الاسلامي ، بينما يقدر العلماء لعصور ماقبل الاسلام مدة قد تتجاوز العشرين قرنا تمتد من منتصف الالف الثاني

قبل الميلاد ٠

ومنها ايضا مالحق ببعض قصائد الشعر الجاهلي من زيادة او نقصان فاحتمال التغيير او الزيادة في الابيات او في القصائد يظل امرا محتملا ، ومن ثم يجب مقارنة هذا الشعر ببعضه حتى يكتسب الباحث تصورا عاما للمجتمع الجاهلي يصبح مايتوائم معها اصيلا وما لا يتوائم معها دخيلا او منحولا ٠

كما يجب ان نضع في اعتبارنا عنصر المبالغة المتوقع في الشعر ، وفي بعض الاحيان تكون المبالغة من النوع العادي الذي يمكن ادراكه ، ولكنه في احيان اخرى قد تتخذ هذه المبالغات أبعادا اكبر من حقيقتها ومن مضمونها ٠

ويؤخذ على الشعر الجاهلي ايضا - كمصدر تاريخي - انه لا يسهب في الحديث عن التاريخ السياسي للقبائل في شبه الجزيرة العربية بقدر ما ورد فيه عن الاحوال الدينية والاجتماعية ٠ كما ان معظم ماوصلنا منه انما كان من عمل البدو وليس من عمل الحضر، ومن ثم فهو يمثل البادية اكثر مما يمثل الحاضرة، ويضاف الى ذلك ماتجه اليه بعض الباحثين من الاعتقاد بأن العلماء قد خففوا مدفوعين بالعامل الديني من الطابع الوثني في بعض القصائد ، كما ان الافراط في الحرص على صحة اللغة وصفائها في اوساط البصرة قد ادى الى اجراء بعض التصحيحات في الاشعار المروية ٠

ورغم ان كل هذه المآخذ ، فان ماوصلنا من الشعر الجاهلي ، منحولا او اصيلا ، يعتبر مصدرا اساسيا لتصوير حياة العرب في الجاهلية ، ذلك ان القائمين بتزييفه ونحله كانوا يرمون على ان يقلدوا خصائص الشعر الجاهلي المعنوية واللفظية في مهارة وحذق لدرجة ان الناقد كان يصعب عليه ان يفرق بين قول المزيف وقول الجاهل، وعلى هذا النحو ، فالشعر المنحول يدل من

حيث تصويره للحياة في العصر الجاهلي على مايدل عليه الشعر الثابت من تصوير للحياة في بلاد العرب قبل الاسلام ·

فاننا يمكننا التعرف على جوانب الحياة في المجتمع العربي قبل الاسلام من دراسة الشعر الجاهلي ، فمن دراسة اسماء الرهوط والقبائل يمكن تصور التكوين القبلي والعشائري الذى كان يشكل الدعامة الاساسية من دعامات الحياة في شبه الجزيرة في الفترة السابقة لظهور الدعوة الاسلامية ·

ويمكننا معرفة الاماكن والبلدان والآبار والمناطق الصالحة للسكن او لمضارب الخيام ومسار القوافل واماكن الرعي ، ومن ثم فهو يساعد الباحث في التعرف على مناطق العمران وتوزيعها ، وعلى اتجاه الطرق التجارية او المسالك بين قسم وآخر او قبيلة واخرى · ويضاف الى ذلك الايام والمعارك التي سجلها الشعر الجاهلي مثل حرب داحس والغبراء ويوم حليمه بين الغساسنة والمناذرة ، ويوم خزازى بين نزار واليمن ، ويوم عراعر بين عبس وكلب ، ويوم ذى قار بين شيبان والفرس وغيرها ·

ولقد حفظ لنا الشعر الجاهلي صورا من حياة العرب في الجاهلية ، في الجد واللهو والحب والبغض ، وفي ايام الخصب والرخاء وايام القحط والبوءس ، وفي اوقات السلم والحرب ، وفي الزهد والتدين والترف والفجور ·

ومن اشهر شعراء الجاهلية الذين يستفاد من شعرهم في هذا الموضوع اصحاب المعلقات ، مثل امروء القيس بن حجر الكندى ، وطرفة بن العبد البكرى ، وزهير بن ابي سلمى المزني ، ولبيد بن ربيعة العامرى ، وعمرو ابن كلثوم التغلبي ، وعنترة بن شداد العبسي ، واخيرا الحارث بن حلزه البكرى · ويستفاد كذلك من اشعار حسان بن ثابت شاعر النبي عليه افضل الصلاة والسلام ·

٥ـ كتب السيرة والمغازى :

تعتبر كتب السيرة النبوية الشريفة والمغازى من المصادر المساعدة التي يستطيع الباحث الاعتماد عليها في دراسته لتاريخ العرب قبل الاسلام، ذلك لأن كتابها قد تعرضوا لذكر اخبار الجاهلية القريبة من الاسلام واحيانا للانبياء السابقين، ثم يفصلون القول في نسب النبي –عليه الصلاة والسلام– وفي اخبار مكة وقريش ومن يتصل بهما من افراد وقبائل، واشتملت هذه الكتب على الكثير من الشعر الجاهلي الذى كان يستخدمه كتاب السير والمغازى في الاستشهاد على مايكتبون او يتحدثون عنه.

ومعظم كتاب السير والمغازى من اهل الحجاز ومن المدينة بالذات باعتبارها دار هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ودار السنة التي عاش فيها الصحابة وسمعوا احاديث الرسول ورووها بدورهم الى التابعين، بينما تألفت حركة اخرى للتأليف في السيرة والمغازى في البصرة كنتيجة طبيعية للصراع الحزبي والاقليمي والقبلي.

ولعل من اشهر كتب السيرة، كتاب سيرة ابن هشام، وهو اول كتاب عربي وصل الينا يؤرخ لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وللعرب قبل الاسلام، وقد اعتمد صاحبه (ابو محمد عبد الملك بن هشام المتوفي عام ٢١٨هـ) على الرواية الشفوية، كما يعتمد على كتب ضاعت، اهمها كتاب ابن اسحاق المتوفي عام ١٥١ هـ الذى كان اول من ألف في سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– بناء على طلب الخليفة العباسي المنصور (٧٥٤ – ٧٧٥م) واستحق بذلك تسمية ابن خلدون له "بالاستاذ"، الا ان هناك من سبقه في التأليف في المغازى من امثال "عمرو بن الزبير" (المتوفي عام ٩٤ هـ) الذى يدخل في عداد الطبقة الاولى من كتاب السيرة، وكان له فضل كبير على كتاب السيرة كابن هشام

وابن سعد ، اذ يدين كلاهما بجزء كبير من كتاباتهما لما رواه . ورجع اليه الطبري في صفحات عديدة من تاريخه . وابان بن عثمان (المتوفي عام ١٠٥ هـ) واشتهر بالحديث والفقه ، وكتابته في السيرة لا تعدو ان تكون صحفا تضمنت احاديث عن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم ينقل له او يرو عنه احد من كتاب السيرة الاول . وشرحبيل بن سعد (المتوفي عام ١٢٣ هـ) وابن شهاب الزهري (المتوفي عام ١٢٤ هـ) الذي يرجع اليه الفضل في تأسيس مدرسة التأريخ في المدينة ، ولقد عرف بقوة أسانيده ، وقلة استخدام الشعر في كتابته ، صنف كتابا في نسب قريش كما تناول فترة الخلفاء الراشدين حتى انتقال الخلافة الى الامويين .

ومن كتاب السيرة محمد بن اسحق (المتوفي عام ١٥٢ هـ) وهو ابو عبد الله محمد بن اسحق بن يسار ، وهو من اصل فارسي ، وتنقسم سيرته الى ثلاثة اقسام :

١ــ المبتدأ ، ويبحث في تاريخ الجاهلية مبتدئا به منذ الخليقة .

٢ــ المبعث ، وتناول فيه حياة النبي عليه الصلاة والسلام حتى السنة الاولى للهجرة .

٣ــ المغازي ، وتناول فيه حياة الرسول في المدينة وغزواته حتى وفاته عليه الصلاة والسلام .

ويؤخذ على كتابات ابن اسحق اعتماده على اهل الكتاب في الرواية كما اعتمد على ماجاء في التوراة وأورد كثيرا من الشعر المنحول دون تحقيق او تمحيص ، ومع ذلك فانه يحسب له انه جمع في كتاباته بين اساليب المحدثين والقصاص .

٦ ـ كتب التاريخ والجغرافيا :

اتجه المؤرخون المسلمون في كتاباتهم عن العصر الاسلامي الى كتابة مقدمات لكتبهم عن العصر الجاهلي ، ودونوا في هذه المقدمات أنساب القبائل وصلتها بعدنان وقحطان او اسماعيل او ابناء نوح ، وتقسيم العرب الى طبقات ، واتجه بعضهم في كتاباته الى ذكر اخبار العرب في التاريخ القديم ، وهي لا تعدو ان تكون مجموعة من القصص الشعبي والاساطير المتأثرة بالتوراة ، بينما اقتصر البعض الآخر في كتاباته على ذكر الاخبار الجاهلية القريبة من الاسلام كأيام العرب .

الا انه يؤخذ على هذا المصدر عدة مآخذ منها ، (اولا) انه لا يمكن الاطمئنان الى الكتابات التي تذكر اخبارا أبعد من القرن السادس للميلاد وذلك نظرا لعدم معاصرة اصحاب هذه الكتابات لما كانوا يكتبون عنه ، ويمتد ذلك عبر سبعة عشر قرنا ، اذ لم يبدأ اول تدوين لاخبار العرب السابقين للاسلام الا في عهد معاوية بن ابي سفيان في اواسط القرن الاول الهجري اى في اواخر القرن السابع الميلادي . ومثل هذه المسافة الزمنية الطويلة بين وقوع الاحداث وتدوينها أمر يضعف بالضرورة من قيمة هذه الكتابات لانه لم يرد بها سند مدون ، ولم تؤخذ من نصوص مكتوبة ، وانما كان الاعتماد في روايتها على تواتر الروايات ، وهو امر لا يمكن الاطمئنان اليه ، ذلك ان رواة الاخبار ، حتى وان كانوا بعيدين عن الميول والاهواء ، وكانوا اصحاب ملكة حسنة ذات قدرة في النقد والتمييز ، فان للذاكرة حدودا لا نستطيع ان نتجاوزها . لذا وجب علينا الحذر في الاعتماد على هذه الموارد وتمحيص ماجاء فيها .

(ثانيا): ان كثيرا من الكتابات المتصلة بالمنافسات بين القبائل ومآثرها ، توجد فيها الكثير من المبالغات والافتعال والتعصب .

(ثالثا) : ان معظم هذه الكتابات قد كتبت بأسلوب القصص الشعبي ، وهو اسلوب يصل الى نغمة الحديث الاسطوري كلما اوغل هؤلاء الكتاب في الحديث عن الماضي حتى وصلوا الى آدم عليه السلام .

ومع هذه المآخذ ، فاننا نعتمد على هذا المصدر فيما يتصل بالفترة القريبة من ظهور الاسلام من النواحي السياسية والاقتصادية والفكرية . ومن الكتابات العربية التي أرخت للعرب قبل الاسلام نشير الى كل من :

١ـ عبيد بن شريه الجرهمي اليمني : اختلف في اصله ، فذكر البعض انه كان من اهل صنعاء ، بينما رأى آخرون انه من الرقة بالعراق ، والارجح انه كان يمنيا ومن جرهم . وكان قصاصا اخباريا وعرف بين الناس بذلك فطلبه معاوية بن ابي سفيان . وينسب اليه العديد من الكتب ، مثل كتاب الامثال ، وكتاب الملوك واخبار الماضين الذى طبع في ذيل كتاب "التيجان في ملوك حمير" المطبوع في حيدرآباد بالهند بعنوان "اخبار عبيد بن شريه الجرهمي في اخبار اليمن واشعارها وانسابها" لابي محمد بن هشام بن ايوب الحميرى المتوفي عام ٢١٣هـ . وقد وضع الكتاب على الطريقة التي تروى بها الاسماء وايام العرب ، وفيه اشعار كثيرة وضعت على لسان عاد وثمود ولقمان وغيرهم .

ويمكن ان يقسم موضوع الكتاب بشكل عام الى ثلاثة اقسام :

الاول خاص بتوزيع القبائل العربية القديمة من بابل الى الجزيرة العربية مع اشارات الى توزيع الترك والصقالبة والسودان والبربر من حفدة نوح الآخرين . والثاني : خاص بنهاية العرب البائدة من آل عاد الاولى والاخرة وقوم ثمود وجرهم ، والظروف التي هلكوا فيها ، واخبار انبيائهم وصلحائهم ، من هود وصالح ولقمان . والثالث : خاص بأخبار ملوك اليمن القدامى ، ابتداء من اول ملوكهم الذى اطلق عليه "سبأ" وانتهاء بحسان بن تبع أسعد الكامل .

ويلاحظ في هذا المؤلف انه بجانب القصص الاسطوري توجد فيه بعض المعلومات الهامة ذات طابع جغرافي وطبوغرافي عن بعض نواحي بلاد العرب ، مثل الاحقاف والحجر ووادي القرى واليمامة ، وعن مسميات الرياح عند العرب ، واسماء سنوات القحط والجفاف واسماء الايام في الجاهلية ، الى جانب ذكر عدد من الاصنام وشيء من الطقوس الدينية العربية القديمة .

٢ـ وهب بن منبه : (المتوفي عام ١١٠هـ/ ٧٢٨م) ، كان يمنيا من اهل ذمار وأصله فارسي . وقيل انه كان يهوديا وأسلم ، ولهذا ينسب اليه الكثير من القصص الاسرائيلي الذي دخل في مؤلفات المسلمين . وكان يدعي العلم بالكتب المنزلة القديمة جميعا ، وهو يبدأ الكتاب بقوله : "قرأت ثلاثة وتسعين كتابا مما أنزل الله على الانبياء فوجدت فيها ان الكتب التي انزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتابا" . وزعم كذلك انه كان يتقن اليونانية والسريانية والحميرية ، ويحسن قراءة الكتابات القديمة التي لا يقدر احد على قراءتها .

والمنهج الذي اتبعه وهب بن منبه في كتابه "كتاب التيجان في ملوك حمير" لا يكاد يختلف عن مؤلف عبيد بن شريه ، وهو يعالج ثلاث موضوعات :

١ـ بداية عمران العالم بآدم واولاده ، ثم العمران الثاني بنوح وبنيه .

٢ـ الشعوب العربية البائدة ، مثل عاد الاولى والآخرة ، والعمالقة ، وثمود وجرهم .

٣ـ ملوك اليمن ، واولهم يذكر يعرب بن قحطان وآخرهم سيف بن ذي يزن .

واشار في ثنايا مؤلفه كذلك الى ديانة العرب وعاداتهم وتقاليدهم ، واحوال مكة والبيت الحرام .

وهكذا يصبح كتاب التيجان ، موسوعة هامة في تاريخ الجزيرة العربية واحوالها . وينسب الى وهب بن منبه كذلك "كتاب المبتدأ" الذى يشير عنوانه الى ابتداء الخليقة ، وهو الكتاب الذى اعتمد عليه احمد بن محمد الثعلبي في كتابه "عرائس المجالس في قصص الانبياء" وينسب اليه كذلك "كتاب المغازى" الذى لم يبق منه سوى مجموعة اوراق مخطوطة محفوظة في مكتبة هيدلبرج بألمانيا .

٣ـ الهمداني : (المتوفي بعد عام ٣٤٠هـ/٩٥١م) ، هو ابي محمد الحسن بن احمد بن يعقوب يمني الاصل من قبيلة همدان ، يعتبر كتابه "الاكليل" الذى وضعه في عشرة اجزاء ، ذروة التخصص في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ولم يصلنا منه سوى أربعة اجزاء ، والاجزاء العشرة كما سجلها المؤلف هي :

١ـ مختصر من المبتدأ واصول الانساب .
٢ـ نسب ولد الهميسع بن حمير .
٣ـ في فضائل قحطان .
٤ـ في السيرة القديمة عن تبع ابي كرب .
٥ـ في السيرة الوسطى من اول ايام اسعد تبع الى ايام ذى نواس .
٦ـ في السيرة الآخرة الى الاسلام .
٧ـ في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المستحيلة .
٨ـ في محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات .
٩ـ في امثال حمير وحكمها واللسان الحميرى وحروف المسند .

١٠ــ في معارف همدان وأنسابها وعيون اخبارها ٠

وللهمداني كتاب آخر هو "صفة جزيرة العرب" الذى استفاد منه من أتى بعده ، من الكتاب مثل : البكرى في كتابه "معجم مااستعجم" ، وياقوت في "معجم البلدان" ٠

٤ــ هشام بن محمد بن السائب الكلبي (المتوفي عام ٢٠٤هـ/ ٨١٩م) :

كان والده من علماء الكوفة في التفسير والاخبار والانساب ، ويعتبر هشام بن محمد من اعظم الاخباريين في تاريخ العرب في الجاهلية ، اذ كان يعتمد على الاصول والمصادر التاريخية ، الامر الذى يجعل منهجه في الرواية اقرب الى منهج المؤرخين ، ولكن يؤخذ عليه سرعة التصديق ، ورواية الخبر على علاته دون نقد او تمحيص وقد اتهم بالوضع والكذب ، حتى تجنبت جماعة من العلماء الرواية عنه ٠

وقد اهتم هشام بصفة خاصة بجمع الاخبار التاريخية عن الحيرة وامرائها من المصادر المدونة ، واعتمد في ذلك على محفوظات كنائس الحيرة ، وعلى المواد الفارسية المترجمة ، وله كتب كثيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست ويبلغ عددها ١٤٠ مؤلفا ٠ ومن كتبه التي تهمنا كتاب الاصنام ، وهو يبين سعة اطلاعه على اخبار ماقبل الاسلام ، ومعرفته التي لا تحد بأحوال العرب في الجاهلية ٠ ولقد ردد في هذا الكتاب ماكان يعبده العرب قبل الاسلام الى جانب بيوت العبادة المعظمة عند العرب كالكعبة ، وكعبة نجران ، ورئام ٠ كما انه يشير الى طقوس العبادة والشعائر التي كان يمارسها العرب قبل الاسلام ٠

وفي كتابه أنساب الخيل في الجاهلية والاسلام ، يبين كيف اولع العرب بالخيل في الجاهلية والاسلام ، الى حد انهم كانوا يصبرون على الشدة وضيق العيش ويكرمونها حتى يؤثروها على الاهل والولد ٠ وعندما يذكر ابن الكلبي

اسماء مشاهير خيل العرب في الجاهلية ، يعرض لبعض اخبار العرب وأيامهـا في الجاهلية .

٥ـ ابو عبيدة معمر بن المثنى التميمي : هو فارسي الاصل ، يهـودي الآباء ، ولكنه عربي تيمي او تميمي بالولاء ، وكان لذلك اثره في ان جمع بيـن الثقافات الفارسية واليهودية والعربية ؛ ولقد اهتم ابو عبيدة بصفة خاصة ببـلاد العرب الشمالية ، فروى عن اخبار قبائلها وأيامها ، الا ان البعض يرميه بنزعتـه الشعرية ، وانه كان يطعن في الانساب ، ويؤلف في مثالب العرب .

٦ـ حمزة الاصفهاني : يتميز مؤلفه " سني ملوك الارض " بطابعـه العلمي الجاف ، والكتاب يتناول التأريخ منذ " المبتدأ " اى منذ بدء الخليقـة وحتى ايام المؤلف ، ويهمنا من هذا المؤلف قسمه الاول الذى يتعلق بعصـور ماقبل الاسلام ، وفيه يعالج حمزة الاصفهاني تاريخ عمران الارض وتاريخ الـدول القديمة من البابليين والفرس واليونان والرومان والبيزنطيين ، كما يعالـج دول العرب ، في اليمن والحيرة ونجد والحجاز وذلك في عشرة ابواب مقسمة الـى ٢٧ فصلا .

ويتميز حمزة الاصفهاني بميزتين : اولا هما : انه ايراني (موطنا علـى الاقل) فهو على دراية تامة بأحوال الفرس ، ثم انه عالم مدقق كان يهتم باختيار مصادره سواء كانت كتبا أم رجالا ، وهذا مالفت الانظار اليه من غير شك .

٧ـ الطبـري : هو محمد بن جرير الطبري ، المتوفي عام ٣١٠ هـ ، وهو صاحب اشمل مؤلف تاريخي كتبه مؤرخو العرب حتى القرن الرابع الهجرى ، وهو المعروف باسم " تاريخ الامم والملوك " ، وقد نجح المؤرخ في ان يجعله موسوعـة تاريخية ، ليس عن تاريخ العالم الاسلامي فحسب ، بل عن تاريخ البشرية الـى

حد ما ، فهو محاولة لدراسة تاريخ العالم .

ونظرا لانه فارسي الاصل فقد اهتم بتتبع اخبار الدولة الساسانية الفارسية ، ونظرا للعلاقات بينها وبين الجزيرة العربية قبل الاسلام ، فقد كتب الطبرى فصول مستفيضة في اخبار العرب قبل الاسلام .

وللطبرى اهمية خاصة نظرا لسعة اطلاعه وشموله وحرصه في كثير من الاحيان على الاطلاع واثبات بعض الوثائق الرسمية التي حصل عليها وخاصة وثائق الفتوح العربية .

٨ ـ ابن الاثير : (المتوفي عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) ، لخص ابن الاثير في كتابه (الكامل في التاريخ) كتاب الطبرى في اخبار الرسل والملوك ، الا انه لم يكتف بتلخيص الطبرى ، بل انه قام بسد الثغرات التي وجدها في كتاب الطبري ، بمعلومات احسن انتقادها حتى صار كتابه هو الآخر من المصادر الهامة . وذكر في مؤلفه ابتداء الخلق وآدم وبنيه والرسل من نوح الى اسماعيل ، وتاريخ الفرس ، واخبار ملوك الروم قبل المسيح وبعده ، والعرب وعلاقاتهم بهؤلاء الملوك ، ويرتب ايام العرب بطريقة تجعل من السهل تناولها .

٩ ـ المسعودى : (المتوفي عام ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) ، يعتبر كتاب مروج الذهب للمسعودى من المصادر الاساسية بالنسبة لتاريخ العرب قبل الاسلام ، وذلك بفضل ماكتبه في تاريخ العالم القديم وفي العرب قبل الاسلام واستغرق ذلك الجزء الاول ومعظم الجزء الثاني من مؤلفه . ويتميز مؤلفه بالمقدمة الجغرافية التي عرف فيها بالبلاد وبأثر البيئة على الانسان والحيوان والنبات . كما انه قد اهتم بأحوال الناس والجماعات بشكل عام ، فهو لا يركز على التاريخ السياسي ، بل يسجل انواعا من النشاط الاقتصادى والاجتماعي والعادات

والتقاليد والمعتقدات وغيرها ٠

ويبدأ المسعودى تاريخه ، كما فعل الطبرى ، بذكر المبتدأ وشأن الخليقة من آدم وبنيه ، ومن أتى بعده ، من الانبياء من نوح الى ابراهيم ، واخبار الشعوب البائدة ، مثل طسم وجديس وعمليق ، قبل ان يركز على بني اسرائيل الذين يرتبط تاريخهم بتاريخ اليمن عن طريق سليمان عليه السلام ، كما يرتبط بتاريخ العراق ٠

١٠ — ابن خلدون : (المتوفي عام ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م) ، يكاد ابن خلدون يلخص كل ماكتبه قدامى الكتاب من المشارقة في الجزء الثاني من كتاب العبر ، وهو الجزء الاول من تاريخه الذى يعقب المقدمة ، وجعل ابن خلدون عنوان هذا الجزء : " في اخبار العرب واجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة الى هذا القرن " ٠

ودول العرب السابقة على الاسلام — حسب خطة ابن خلدون — مقسمة الى ثلاث طبقات على النحو الآتي :

١ — الطبقة الاولى : وهم العرب العاربة او العمالقة ، من عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعبد ضخم وجرهم وحضرموت ، ويتلو ذلك الخبر عن ابراهيم ابي الانبياء وبنيه ٠

٢ — الطبقة الثانية : وهم العرب المستعربة ، ويدخل بضمنهم اليمنية او السبئية ، وبذلك يدخل في هذه الطبقة ملوك التبابعة من حمير ، وملك الحبشة لليمن ، وغزو الحبشة للكعبة ٠

٣ — الطبقة الثالثة : وهم العرب التابعة للعرب ، بين العرب

البادية اهل الخيام من العدنانية والمعدية وملوك الحيرة ويثرب ثم قريش .

والسمة السائدة في كتابات هؤلاء المؤرخين تحرى الدقة في كتاباتهم عن تاريخ الاسلام في معظم الاحوال ، والاهمال والخلط الذى صحب كتاباتهم عن عصور ماقبل الاسلام . ولعل عذرهم في ذلك ان عصر الاكتشافات الحديثة الذى نعيشه الآن لم يكن قد بدأ بعد ، وان الاعتماد في التاريخ لبلاد العرب قبل الاسلام انما كان على ماجاء في التوراة والادب العربي القديم ، كذلك فان الخط العربي كان في اول الامر غير منقوط ، وكذا كانت الكتابات النبطية التي يرجح ان الخط العربي مشتق منها ومتطور عنها . ولعل أهم مافي كتب الاخباريين من عيوب انما هي اولا — وذلك فيما يذكر استاذنا الاستاذ الدكتور محمد بيومي مهران — تلك المبالغات التي ادخلها اهل الاغراض او الطامحون ممن دخلوا الاسلام ، لأن العرب كانوا يستفتونهم فيما غمض عليهم . وثانيا — هناك ماتابع العرب فيه اليهود وأعني به رد كل أمة الى آب من آباء التوراة ، حتى المغول والفرس ، فمثلا ردوا نسب الفرس الى " فارس بن ياسور بن سام " ، وقس هذا على تعليل اسماء البلاد ، وردها الى اسماء من يظنون انهم مؤسسوها ، بما يشبه قول اليهود ، فمثلا مصر ، انما بناها " مصرايم " وآشور بناها آشور ومن هذا القبيل قولهم " يعرب " لمن تكلم العربية . ثالثا — هناك اختلاف الاخباريين في الانساب ، حتى أنهم لم يتفقوا الا في القليل من اسماء الملوك والامراء ، وان كان الامر جد مختلف بالنسبة الى قريش ، وهناك رابعا — ان العرب كانت تتصرف في الاسماء غير العربية ، بتبديل حروفها وتغييرها ، ومن ذلك اختلافهم في ذى القرنين بين ان يكون " الصعب بن مداثر " من ملوك اليمن ، او ان يكون الاسكندر المقدوني ، وقريب من هذا مافعلوه بملوك مصر على ايام الفراعين ، فملك مصر على ايام يوسف (عليه السلام) انما هو " الريان ابن الوليد بن الهروان بن آراشة بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام

ابن نوح " ، وان فرعون موسى (عليه السلام) انما هو " قابوس بن مصعب ابن معاوية " صاحب يوسف الثاني ، وكانت امرأته " آسية بنت فراحم بن عبيد ابن الريان بن الوليد " فرعون يوسف الاول ، وانها من بني اسرائيل على مايرى بعض الرواة . والجدير بالذكر في هذا المجال – هو من اين جاء المؤرخون الاسلاميون بهذه الاخبار ، والتوراة – على فرض انهم نقلوها عن اليهود – لم تذكر هذه الاسماء ، والامر كذلك بالنسبة للقرآن الكريم ، فضلا عن ان الفراعين المصريين ليس من بينهم من يحمل هذه الاسماء ، ولكنه الخلط وادعاء العلم . وهكذا يبدو لنا ان الخلط من ناحية ، والاسرائيليات من ناحية اخرى ، قد لعبوا دورا كبيرا في مسح بعض هذا التاريخ الذى كتبه المؤرخون الاسلاميون عن العصور التي سبقت الاسلام بآماد طويلة . ورغم ذلك فهم قدموا لنا الكثير من المعلومات التي يمكن الاعتماد عليها في التأريخ لعصور ماقبل الاسلام .

طبقات العرب

اتفق الرواة واهل الاخبار او كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث القدم الى طبقات : عرب بائدة وعرب عاربة ، وعرب مستعربة ، او عرب عاربة ، وعرب متعربة ، وعرب مستعربة ، او عرب عاربة ومستعربة وتابعة ومستعجمة ، واتفقوا او كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث النسب الى قسمين : قحطانية ، منازلهم الاولى في اليمن ، وعدنانية ، منازلهم الاولى في الحجاز . ويقسم الاخباريون والمؤرخون العرب احيانا الى طبقتين : عرب عاربة ، وعرب مستعربة . ومن الجدير بالذكر ان هذا التقسيم لم يرد الينا من النصوص الجاهلية ، وانما ورد الينا في الكتب المدونة في الاسلام ، وتقسيم العرب — الى طبقات — وذلك من ناحية القدم والتقدم في العربية — هو تقسيم لا نجد له ذكرا في التوراة او الموارد اليهودية الاخرى ، ولا في الموارد اليونانية او اللاتينية او السريانية . ويظهر انه تقسيم عربي خالص ، نشأ من الجمع بين العرب الذين ذكر انهم بادوا قبل الاسلام فلم يبق منهم غير ذكريات وبين العرب الباقين ، وهم إما من عدنان ، وإما من قحطان .

والعرب البائدة هم الذين كانوا عربا صرحاء خلصاء ذوي نسب عربي خالص — نظريا على الاقل — ويتكونون من قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وجرهم والعماليق وحضورا ومدين وغيرهم . وأما العرب الباقية — ويسمون ايضا المتعربة والمستعربة — فهم الذين ليسوا عربا خلصاء ، ويتكونون من بني يعرب بن قحطان ، وبني معد بن عدنان . ويقسم ابن خلدون العرب — طبقا للتسلسل التاريخي — الى طبقات اربعة ، فهم عرب عاربة قد بادت ، ثم مستعربة وهم القحطانيون ، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والاوس والخزرج

ثم الغساسنة والمناذرة ، واخيرا العرب المستعجمة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الاسلامية ٠

ورغم مافي هذه التقسيمات من مآخذ ، الا اننا سنشير اليها بايجاز ، ولنبدأ بالعرب البائدة ، فقد شك كثير من المستشرقين في حقيقة وجود اكثر الاقوام المؤلفة لهذه الطبقة ، فعدها بعضهم من الاقوام الخرافية التي ابتدعتها مخيلة الرواة ، وخاصة حين عجزوا عن العثور على اسماء مشابهة لها او قريبة منها في اللغات القديمة او في الكتب الكلاسيكية ، ولكن ظهر بعد ذلك ان في هذه الاحكام شيئا من التسرع ، اذ تمكن العلماء من العثور على اسماء بعض هذه الاقوام ، ومن الحصول على بعض المعلومات عنها ٠

والمقصود بلفظة (بائد) عدم وجود احد من العرب ينتسب الى هذه القبيلة او تلك عند كتابة المؤرخين الاسلاميين لتاريخ مابعد ظهور الاسلام ، اما العرب الباقية فنعني بها تلك الجماعات ـ التي كانت ـ وماتزال ـ تعيش في هذه المنطقة ٠

وتعد (عاد) اقدم الاقوام العربية البائدة من وجهة نظر الاخباريين ، ويضربون بهم المثل في القدم ، وربما تكونت هذه النظرية عند الجاهليين من قدم عاد ، او من ورود اسم عاد في القرآن الكريم ، ثم مجيء اسم (ثمود) بعد ذلك ، ومن ثم فقد قدما على بقية الاقوام البائدة ٠

هذا وقد ذهب بعض الاخباريون الى ان عادا هي (هدورام) في التوراة ، ودليلهم على ذلك اقتران عاد بإرم في الكتب العربية ، وبعض القراءات التي قرأت (بعاد إرم) ، في الآية :" ألم تر كيف فعل ربك بعاد ،

إرم ذات العماد " ، على الاضافة ، او باضافة إرم الى ذات العماد . وبين (عاد إرم) و (هدورام) تشابه كبير في النطق . وذهب الاخباريون الى وجود طبقتين لقوم عاد هما : عاد الاولى ، وعاد الثانية ، وكانت عاد الاولى من اعظم الأمم بطشا وقوة ، وكانت مؤلفة من عدة بطون تزيد على الالف ــ وقد نشأت فكرة وجود طبقتين لعاد عند الاخباريين الى ما اشار اليه القرآن الكريم من ان هناك عادا الاولى ، وعادا الثانية ، وان عاد الاولى انما هم عاد إرم الذين يسكنون الاعمدة التي تحمل الخيام ، وان عادا الثانية انما هم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع ، وربما كانوا هم قوم ثمود .

اما (ثمود) فقد ورد اسمها في الكتب العربية مقرونا باسم عاد ، ويعد هذا الاسم في الغالب ، والروايات العربية الواردة عنهم لا تعرف من تاريخهم شيئا ، انما روت عنهم قصصا أوردتها لمناسبة ماذكر عنهم في القرآن الكريم على سبيل العظة والاعتبار والتذكير . وقد وردت اشارات عنهم في الشعر الجاهلي . وتكاد تجمع الكتب العربية على ان ثمودا انما كان مقامها بالحجر الى وادي القرى بين الحجاز والشام ، على ان ارتباطها بعاد يقتضي تقاربهما في المكان ، ولذا ذهب الاخباريون الى ان ثمودا انما كانت باليمن قديما ، فلما ملكت حميرا اخرجوها الى الحجاز ، ولقد أثبتت الدراسات الحديثة ان الثموديين قد عاشوا في شمال الجزيرة العربية منذ أعماق التاريخ .

وقد ورد اسم ثمود في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، فجاء منفردا ، وجاء مقرونا باسم شعوب اخرى مثل قوم (نوح) وقوم (عاد) . وتاريخ قوم ثمود يعود الى ماقبل الميلاد بزمان ، فقد كانوا ضمن الشعوب التي حاربت الاشوريين في عهد (سرجون الثاني) ، وقد ذكر هذا الملك في النصوص التاريخية التي سجلها ، انه تغلب عليهم ، وانه أجلاهم عن مواطنهم

الى السامرة ، ويرى بعض الباحثين ان آخر ذكر ورد في الوثائق لقوم ثمود كان في القرن الخامس الميلادى ، حيث ورد ان قوما منهم كانوا فرسانا في جيش الروم ٠

اما (طسم وجديس) فينسبهما الاخباريون الى " لاوذ بن إرم بن سام ابن نوح " مع القليل او الكثير من التعديل في هذا النسب ، وانهما كانا قريبا بعهد عاد الاولى ، اما موطنهما فكان في منطقة اليمامة ، والتي كانت تسمى " جو " من قبل ، ولكن يبدو ان هذا لم يكن هو الوطن الاول ، ويرجح ان يكون بداية استقرار " طسم " في منطقة العلا ، ثم انتقلت بعد ذلك الى منطقة اليمامة ٠ وربما يرجع سبب انتقالها الى عوامل اقتصادية ، ويبدو ان (جديس) قد نزحت كذلك مع (طسم) ٠ وبهذا يمكن ان نجد صلة نسب قائمة بين القبيلتين ٠

هذا ولم يرد ذكر اسم هذه الاقوام في القرآن الكريم ، وقد ورد اسم (طسم) في نص يوناني عثر عليه في (صلخد) ويعود تاريخه الى عام ٢٢٣م ، كما ان التوراة اشارت الى (طسم) على انه من نسل (دادان بن يقطان) ، اضف الى ذلك ان بعضا من المستشرقين يرى ان اسم Jodisitae او Jolisitae الوارد في جغرافية بطليموس هو اسم قبيلة من قبائل شرق بلاد العرب ، وأنها جديس بعينها ٠ وقد نسب الاخباريون اماكن عديدة الى طسم وجديس وهي قرى ومدن ذكر انها كانت عامرة آهلة بالسكان ذات مزارع ، ومن بين هذه الاماكن المذكورة (المشقر) وهو حصن بين نجران والبحرين ، و (مغنق) وهو من قصور اليمامة على أكمة مرتفعة ٠

اما (أميم) فقد جعلهم الاخباريون في طبقة (طسم وجديس) وقالوا انهم من نسل (لاوذ بن عمليق) ، وكان من شعوبهم (وبار بن أميم) ، نزلوا برمل

(عالج) بين اليمامة والشحر ، وانهارت عليهم الرمال فأهلكتهم . ويزعم الاخباريون ان ديار (أميم) كانت بأرض فارس ، ولم يذكروا كيف عدوهم من طبقة العرب الاولى اذا كانت ديارهم بأرض فارس . وقد جاء في جغرافية بطليموس اسم شعب عربي ذكر على انه من شعوب العرب الجنوبية وهذا الاسم قريب جدا من اسم (وبار) ، وتقع ارض (وبار) بين رمال يبرين واليمن . ومع ذلك ، فان شعب وبار ، في رأى كثير من المستشرقين ـ انما هو من الشعوب الخرافية ، وان كانت ذكرى (وبار) ماتزال في ذاكرة العرب حتى اليوم ، ففي الربع الخالي اماكن كثيرة زعم الاعراب انها كانت مواضع (وبار) .

أما (عبيل) فقد ذكر الاخباريون انهم اخوان عاد بن عوص ، او اخوان عوص بن إرم ، او انهم لحقوا بموضع (يثرب) حيث اختطوا يثرب ، وكان الذى اختطها منهم رجل يقال له (يثرب بن بائلة بن مهلهل بن عبيل) ، ثم ان قسما من العماليق انحدروا الى يثرب ، فأخرجوا منها عبيلا ، فنزلوا موضع (الجحفة) فأقبل سيل فاجتحفهم فذهب بهم فسميت (الجحفة) .

ونقرأ في التوراة عن "عبيال "او "عوبال "على انه من ولد " يقطان " (قحطان في المصادر العربية) ، ومن هنا رأى فريق من علماء التوراة ان (عبيل) من الممكن ان يكون "عيبال "او "عوبال " ، ويشير بطليموس الى موضع يقال له Avalitae على خليج يدعى بهذا الاسم Avalites Sinus وعليه مدينة تسمى Avalitae Emporium ، وسكانها يدعون Avalitas ، وقد ورد الاسم عند "بليني "محرفا الى Abalitae وربما كان هؤلاء هم عوبال . وقد ذكر ان في اليمن مكانا يقال له عبيل ، وقرية تقع على طريق صنعاء تعرف ب (عبال) وهذان الاسمان قريبان من اسم عبيل .

اما (جرهم) فقد نظر اليهم الاخباريون على انهم طبقتان ، جرهم الاولى : وهم من العرب البائدة ، وكانوا على عهد عاد وثمود والعمالقة ، وقد اقاموا بمكة . ويرجعون انسابهم الى (عابر) ، وقد أبيدوا على ايدى القحطانيين ، اما جرهم الثانية فقد اطلقوا عليهم جرهم القحطانية وينسبهم اهل الاخبار الى (جرهم بن قحطان بن هود) وقد كانوا اصهارا للنبي – صلى الله عليه وسلم – هذا وقد ورد اسم جرهم عند بعض الكتبة اليونان.

وفيما يتصل (بالعمالقة) فقد نسبهم الاخباريون الى (عمليق بن لاوذ ابن سام بن نوح) ، ولم تذكر التوراة اصلهم ونسبهم ، ويبالغ الاخباريون في اهمية العماليق وسعة انتشارهم بدرجة لا يمكن ان يقبلها منطق او يقرها عقل ، فيجعلونهم أمما كثيرة تفرقت في البلاد ، فكان منهم اهل عمان والحجاز والشام ومصره فضلا عن اهل المدينة وبنو هف وبنو مطر وبنو الازرق وسعد بن زهران ، هذا الى جانب شعبة منهم ذهبت الى صنعاء ، كما كان منهم الجبابرة بالشام – وهم الكنعانيون – والفراعين بمصر ، والأرقم ملك الحجاز بتيماء . وأما اصل الكلمة (عماليق) او عمالقة ، فمجهول ، وان كانت هناك آراء تذهب الى انه منحوت من اسم قبيلة عربية ، اطلق عليها البابليون اسم (ماليق) او (مالوق) ، واضاف اليها اليهود لفظ "عم" اى الشعب او الأمة ، فقالوا (عم ماليق) ثم جاءت العربية فقالت (عمالقة) .

ويكاد يتفق الاخباريون على ان العماليق عرب صرحاء ، ومن أقدم العرب زمانا ، ولسانهم هو اللسان المضرى الذى نطقت به كل العرب البائدة . والعماليق في نظر التوراة – من اقدم الشعوب التي سكنت جنوب فلسطين ، ربما لانهم كانوا أول من اصطدم بالاسرائيليين اثناء التيه في صحراوات سيناء.

وقد ورد في التوراة ان العمالقة هاجموا بني اسرائيل عند خروجهم من مصر وأسروا جميع مقاتليهم ،كذلك فقد اتحد العمالقة مع "عجلون" ملك مؤاب الذى انتزع من الاسرائيليين مدينة النخل ، وكان (شاول) هو اول ملك اسرائيلي يحارب العماليق ، وقد نجح في الانتصارعليهم طبقا لما ورد في التوراة .

أما (حضورا) فقد ذكر الاخباريون انهم كانوا يقيمون بالرس ، وهو اما موضع بحضرموت او اليمامة او بناحية صهيد ، وكانوا يعبدون الاوثان ، وبعث اليهم نبي منهم اسمه (شعيب بن ذى مهرع) فكذبوه ، وهلكوا . وقد ورد في القرآن الكريم (اصحاب الرس) مع عاد وثمود مرة ، ومع قوم نوح مرة اخرى . وذهب فريق من المفسرين الى ان شعيب بن ذى مهرع كان نبيهم ، بينما يتجه فريق آخر الى القول بأن نبيهم هو (خالد بن سنان) وان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تحدث عنه فقال " ذاك نبي ضيعه قومه " ، وذهب فريق ثالث الى انه (حنظلة بن صفوان) .

ويروى الاخباريون ان بختنصر ـ وهو الامبراطور البابلي نبوخذ نصر (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م) قد غزا (حضورا) وأعمل السيف فيهم ، فقتل الغالبية العظمى منهم ، بينما هجر بقيتهم الى اماكن اخرى من امبراطوريته . واما سبب ذلك فلأن القوم قد كفروا بنبي لهم يدعى (شعيب بن مهدم ذى مهدم ابن المقدم بن الحضور) ، ومن ثم فقد أوحى الله الى النبي اليهودى "برخيا ابن أخنيا" ان يترك نجران ويذهب الى نبوخذ نصر ويأمره بغزو العرب ، الذى تمكن من اخضاعهم . واهل حضور الذين قتلهم نبيهم ، وقتلهم (نبوخذ نصر) هم شعب من اليمن على رأى الاخباريين ، وفي اليمن موضع يسمى (حضور) ينسبه الاخباريون الى (حضور بن عدى بن مالك بن زيد بن

سدد بن حمير بن سبأ) ، وذكروا انه المكان الذى قصده (نبوخذ نصر) فقتل أهله . وعلى هذا المكان مسجد يزار حتى اليوم ، يقال له مسجد شعيب نبي اصحاب الرس .

اما (المديانيون) فقد تحدث القرآن الكريم عنهم ، وعن نبيهم الكريم شعيب عليه السلام ، في مواطن متفرقة من سوره ، ووفقا لما جاء في القرآن الكريم ، فان شعيبا أتى مدين واصحاب الأيكة ، فنهاهم عن عبادة الاوثان وأمرهم ان يقيموا الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان . وكان اهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم (مدين) التي هي قرية من أرض معان في اطراف الشام مما يلي الحجاز ، قريبا من بحيرة قوم لوط . هذا وقد كانت مدين هذه انما تمتد من خليج العقبة الى موءاب وطور سيناء . ويفهم من التوراة ان مواطن المديانيين انما كانت تقع الى الشرق من العبرانيين ، ويبدو انهم توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين ، متخذين منها مواطن جديدة ، عاشوا فيها أمدا طويلا .

ويرجح بعض الباحثين ان عصر شعيب ، انما كان قبل عصر موسى ، معتمدين في ذلك على ان الله سبحانه وتعالى قد ذكر شعيبا في القرآن الكريم ـ كما في سورة الأعراف ويونس وهود والحج والعنكبوت بعد نوح وهود وصالح ولوط ، وقبل موسى ، واذا ماعدنا الى عصر الخليل عليه السلام (١٩٤٠ ـ ١٧٦٥ ق.م) وتذكرنا ان لوطا وقومه انما كانوا معاصرين لأبي الانبياء ، لأمكننا القول ان شعيبا وقومه انما كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وبخاصة ان التوراة تذكر ان مدين انما كان من ولد الخليل من زوجته قطوره الكنعانية .

دولــــة معيـــــن

يتفق العلماء - أو يكادون - على ان دولة معين ، انما هي دولـــة نستطيع ان نلمح بعض معالمها وسط جنبات التاريخ القديم لبلاد العـــرب الجنوبية ، وانها - طبقا للنقوش التي تركتها في شمال اليمن حول بلـــدة معين - قد قامت في منطقة الجوف بين نجران وحضرموت ، وهي منطقة سهلـة غرينية ، اشتهرت بنخيلها واخشابها ومراعيها التي تعتمد على مياه "الخارد ن" وعلى الامطار التي تسقط هناك ، فتكون سيولا تسيل في أودية ، فاذا أضفنـــا الى ذلك كله ، ان الجبال تحيط بها من جهات ثلاث ، مما يكون حماية طبيعية لها ، تبين لنا الى اى مدى ساعدت تلك العوامل الطبيعية على ان تكـــون منطقة "جوف" هذه ، مركزا هاما للحضارة في اليمن القديم .

وكانت معين موقعها من الجوف مألوف لدى الشعراء العـــرب ، ويستشهد الهمذاني بقول مالك بن حريم :

سخمى الجوف مادامت معين

بأسفله مقابلة سرادا

ويذكرها الهمذاني بقوله "فنحن محافد اليمن المشهورة " . وهـــو دلالة على عظم عمرانها ، وانها قام بها قصر للملك من اشهر قصور اليمن . وقـــد اكدت الجهود الاثرية الحديثة صحة الموقع وظروف العمران . ومصادرنـــا الاصلية عن دولة معين ، انما هي الكتابات التي تركها اصحاب هذه الحضارة ، فضلا عن كتابات الرحالة القدامى من الاغريق والرومان ، من امثال ديـــودور الصقلي ، وسترابو ، وثيوفراستوس . اما المصادر العربية ، فلا علم لها بهـــذه ،

الدولة وان عرفت اسم "معين " و " براقش" على انهما موضعان في الجوف ، او محفدان من جملة محافد اليمن وقصورها القديمة ، كما انها جعلتهما من ابنية "التبابعة "

اما عن الحدود الزمنية لتاريخ دولة معين ، فقد ظل موضع جدل واختلاف كثير من الدارسين ، وقد كان الغالب من قبل على العلماء هو الغلو في قدم "معين " فأرخها "جلاسر " الى الالف الثاني او الالف الثالث قبل الميلاد . ثم اتجه الرأى بين العلماء الى شيء من الاختزال في تاريخ الكتابات المعينية ، فهبطوا بتاريخ بداية الدولة الى مابين ١٥٠٠ — ١٢٠٠ ق.م . وانها استمرت حتى عام ٧٠٠ ق.م ، وهناك من كان اكثر تحديدا فجعلها تبدأ في ١١٢٠ ق.م . وينتهي حكم آخر ملوكها عام ٦٣٠ ق.م ، ثم ازداد العلماء نقدا لمصادرهم ، وتقدمت اساليب الدراسة المقارنة لتواريخ الشعوب القديمة ، فاقترح احدهم ان بداية دولة معين لا يمكن ان يكون سابقا على عام ٥٠٠ ق.م ، في حين هبط آخر بهذا التاريخ الى عام ٤٠٠ ق.م وان نهايتها تقع في منتصف القرن الاول الميلادى او قبل ذلك كحد اقصى . ويمكن القول ان اسباب هذا الاختلاف بين آراء المورخين انما يرجع اولا الى انه بالنسبة لاصحاب التاريخ المبكر ، فقد تأثروا بعبارة "بلينيوس " التي وجهت أذهانهم الى قدم دولة معين ونقوشها . ففي تلك العبارة يربط بلينيوس بين المعينيين والمينوييين من سكان جزيرة كريت ، وجعل الشعبين من اصل واحد . وواضح ان السبب هو تشابه الاسمين عند كتابته بالحروف اليونانية او اللاتينية . ولكن كنتيجة لتقدم دراسة تاريخ الكتابات القديمة وتطورها ، من الكتابة الهجائية الفينيقية ، ولأن الكتابة المعينية هجائية متطورة عن الكتابة الفينيقية ، فلا بد ان تكون لاحقة لها . كل هذا غيّر من رأى العلماء وخاصة بعد ان ثبت ان حروف

الهجاء الفينيقية بلغت مرحلة النضج في القرن العاشر الميلادى وعلى ذلك لا يمكن ان تكون الكتابات بالخط المسند في اليمن عامة ، سابقة على القــــرن العاشر بل لاحقة عليه . اما الاسلوب الآخر الاكثر تحديدا للتاريخ فهو الاختبار المعملي للآثار العضوية المعينية بطريقــة (كربون ١٤) والتي قد أثبتــت ان معين وسبأ كانتا متعاصرتين ، الى ان تمكنت سبأ من احتوائها هي وغيرها مــن مدن اليمن الاخرى والتفوق عليهم .

هذا وقد اشتهر المعينيون بأنهم قاموا بدور فعال في انمــاء التجارة مع الشمال . ولعل اشهر نص في هذا المجال هو النقش المعينــــي المعروف بنقش " جلاسر " وموضوعه الرئيسي هو عودة قافلة كبرى سالمة الـــــى (قرناوى) اهم مدن معين . هذا وقد ذكر اسم شعبي " معين ويثل " فــــي نهاية النقش مما يدل على ان المدينتين قد اشتركتا في هذه القافلة ، وهــذا يدل على فخامتها وشمولها . ومثل هذه القوافل كان يشبه احيانا الحملــــة العسكرية في حجمها وتسليحها ، حتى تستطيع ان تواجه الاخطار التي تتعرض لها . وهناك ما يشير في النص الى ان تلك القافلة كانت تجارتها مع مصـــــر .

كذلك فهناك نقش من جزيرة ديلوس اليونانية ببحر ايجه ، ويرجع الـى النصف الثاني من القرن الثاني ق.م ورد فيه اسم الاله (ود) والهة معيــن ، وهو بهذا يؤكد ان خطوط التجارة المعينية قد تعدت حدود الجزيرة العربية الى مصر ، وعبر البحر المتوسط الى ديلوس ، وان هذا الامتداد لم يكن عــن طريق وسطاء آخرين ، ولكن مباشرة بواسطة تجار معينيين . ونظرا لامكانيـــة تعرض هذه القوافل للخطر على طول الطريق ، اقام المعينيون محطات او مراكز تجارية على طريق القوافل من معين ونجران جنوبا الى فلسطين ودمشق . وقد كشف لنا عن هذه الحقيقة نقش عثر عليه في موقع العلا في شمال غرب الجزيـرة

حيث اقامت معين لها في هذه البلدة مستوطنة تجارية . ويتضح من انها كانت وثيقة الصلة بالوطن الاصلي وخاضعة لملك معين ، الذى كان يدير شئون المستوطنة عن طريق (كبير) يذكر اسمه في الوثائق الى جانب اسم ملك معين ، ومع ذلك يتضح لنا ان معين كانت تمارس تجارتها عن طريق شبكة متقنة من المحطات التجارية المنتشرة على مراحل مناسبة ،على طريق القوافل داخل الجزيرة العربية ، او خارجها في مراكز التجارة العالمية في شرق البحر المتوسط . ويبدو مرجحا انه قد اشتركت مع معين في هذه التجارة الدولية بعض جاراتها من الدول الجنوبية التي تتكامل معها ، وانسب الاقاليم التجارية لمثل هذا التكامل اقليم حضرموت نظرا لسيطرته على مناطق اللبان او تحكمه فيها بحكم موقعه واشرافه على المحيط الهندى من ناحية الجنوب . وكانت حضرموت على اتصال بحرى مباشر بكل من الهند وشرق افريقيا ، بينما تحكمت معين في زمام طريق التجارة الى الشمال وكان هناك اتصال تجارى مباشر بين الاقليمين ، وفي النقوش المعينية من قرنوا أو قرناو (اى معين) ويثل (اى براقش) ـ كلاهما من مدن الجوف ـ اشارات تدل على وجود علاقة خاصة كانت تقوم في وقت من الاوقات بين معين وحضرموت ، بل لعل هذه العلاقة ارتبطت بنشاط التجارة العالمية لمعين منذ عام ٤٠٠ ق.م تقريبا ، اذ وجدت أسرة حكمت المنطقتين معا منها "صدق ايل" ملك حضرموت والذى حكم معين ايضا ـ وارتباط معين وحضرموت ارتباطا تجاريا وسياسيا ،كان بهدف السيطرة على تجارة البخور وخاصة فيما بين القرنين الرابع والثاني ق.م .

اما عن علاقة معين بسبأ ، التي كان نفوذها وسلطانها في تزايد مستمر خلال القرنين الثاني والاول ق.م ، فهناك نقش معروف من مدينة يثل (براقش) ذكر فيه اسم معين واسماء آلهتها واسماء ملوكها وذكر فيه اسم سبأ وملوكها .

ولعل هذا يدل على ان معين كانت لا تزال قائمة ، ولم تكن قد أدمجت بعد في الدولة السبئية . ويستدل من هذا النقش ايضا ان أسرة سبئية قد اتخذت مركزا تجاريا لها في بلدة يثل المعينية مما يشير الى تشابك النشاط التجارى بين تجار معين وسبأ في المرحلة الاخيرة من تاريخ معين المستقلة ، اى خلال القرن الاول ق.م ، ثم ازداد شأن سبأ في الوقت الذى ضعفت فيه معين وازداد انقسامها الى عدد من حكومات المدن المستقلة ، حتى استطاعت سبأ في النهاية ان تبتلعها واحدة بعد الاخرى . اما بالنسبة للنشاط السياسي الذى سارت عليه معين ، فواضح من النقوش ان النظام الملكي كان معمولا به ، وان ملوك معين اتبعوا الاسلوب الشائع في ممالك اليمن القديم هو انهم تسموا بأسماء ملكية ذات طابع مقدس او ديني كما أشرك الكثيرين منهم ابناءهم معهم في الحكم ، ويرجح وجود مجلس يتكون من رؤساء العشائر والاسر الشريفة بجوار الملك .

ومن اهم المدن المعينية مدينة " قرناو " العاصمة ، ومدينة " ياثل " (براقش) وهي المركز الديني ، ومدينة " نشق " (البيضاء) ، ومدينة " نشان " (نشن) .

دولـة حضرمـــــوت

تقع حضرموت الى الشرق من اليمن على ساحل بحر العرب . وفيمـــا يتصل باسمها ، فقد ترد اسمها في كتابات الكتاب اليونان والرومان مع شـــي قليل او كثير من التغيير والتحريف ، فورد Chatromotitae و Hadramyta ، اما عند الاخباريين ، فقد اعتبروا "حضرموت" ابنا من ابناء يقظان ، واعتمـــدوا في ذلك على رواية التوراة . وقد وصف صاحب كتاب "الطواف حول البحـــر الارثيرى" سواحل حضرموت الجنوبية بأنها مناطق موبوءة يتجنبها الناس ، ومن ثم فلا يجمع التوابل واللبان منها الا العبيد او المجرمين الذين صدرت ضدهم احكاما صارمة . ومن الواضح ان هذا التفسير يعتمد على المعنى الظاهر مـــن المقطع الثاني للكلمة وهو "موت" . وربما كان لذلك صلة بالمعنى العبرى للكلمة "دار الموت" ، ومن ثم فقد قيل اسم حضرموت في التوراة "حاضرميت" .

ويقدم "ياقوت الحموى" تفسيرا آخر لهذا الاسم ، يعتمد على روايـــة التوراة يذكر فيه ان حضرموت اسما لرجل هو "عامر بن قحطان" وانه كان اذا حضر حربا اكثر فيها من القتل ، ومن ثم فقد سمي بحضرموت ، وهناك تفسير آخر لهـــا ، انها سميت على اسم "حضرموت بن قحطان" الذى نزل هذا المكان فسميت به ، فهو اسم موضع ، واسم قبيلة .

ويقدم استاذنا الاستاذ الدكتور مصطفى العبادى تفسيرا آخر لهـــذه التسمية ، فهو يذكر ان اسم حضرموت نسبة لأحد الآلهة السامية القديمة وهـــو "موت" ، صنو الاله "ايل" وخصم الاله "بعل" في اساطير اوجاريت ، باعتبار ان موت اله العقم والعالم السفلي الذى حاربه بعل اله الخصب والنماء .

وفيما يتصل بالتحديد الزمني لعصر دولة حضرموت ، فليس هناك اتفاق على بدايته او نهايته ، فهناك من يرجع بدايته الى نهاية الالف الثاني قبل الميلاد ، بينما يرجعه البعض الآخر الى القرن الخامس قبل الميلاد .

ويستدل من النقوش التي كشف عنها بعض الامور الداخلية ، وهي توضح كذلك صلات حضرموت بالدول المحيطة بها في ذلك الوقت . ومن هذه الاصلاحات الداخلية التي ورد ذكرها ، نقش يخص احد كبار الموظفين وهو " شكم سلحان بن رضوان " ، وفيه يذكر انه كلف ببناء سور وباب وتحصينات لحصن " قلت " الذى يشرف على وادى تقطعه الطريق القادمة من مدينة " حجر " والمؤدية الى ميناء " قنا " ، فضلا عن انشاء اسوار وحواجز في ممرات الوادى الرئيسية لحماية منطقة حجر من اى غزو أجنبي ، ولا سيما غزو الحميريين الذين كانوا يهددون حضرموت ، ويتدخلون في شئونها . ويذكر ان هذه الاعمال قد تمت في ثلاثة اشهر ، وقام شكم سلحان كذلك ببناء سد في وادى البنة ، وكان ارتفاع هذا السور يبلغ حوالي سبعة امتار ، وبالاضافة الى ذلك فقد أنشأ استحكامات ساحلية لحماية البر من اى هجوم بحرى . ويرى بعض الباحثين ان هذه الاستحكامات قد تم تشييدها في اواخر القرن الخامس او اوائل القرن الرابع قبل الميلاد .

ويرجح من بناء هذه الاستحكامات ان دولة حضرموت كانت تعاني في ذلك الوقت من هجمات الحميريين عليها ، ومن ثم فقد لجأت الى سد الاودية بجدر حصينة قوية حتى يمكنها التحكم في المرور في الوادى .

ومن النقوش الهامة التي وصلتنا من دولة حضرموت ، وتوضح صلاتها الخارجية بجيرانها نقش يرجع الى عهد الملك " العزيلط " ملك حضرموت ، وقد دوّن هذه النقوش رجلا من اشراف حمير بعث بهما ملك سبأ وذى ريدان

للمشاركة في الاحتفال بتتويج ملك حضرموت ملك حضرموت في حصن أنود ، كما وردت كتابات اخرى سجلها الملك الحضرمي نفسه ذكر فيها " العزيلط " ملك حضرموت ، ابن عم ذخر ، سار الى حصن انود ، ليتلقب بلقبه ٠

ولا نعرف تاريخ نشأة هذا التقليد في حضرموت ، ولا السبب الذى من اجله اختير حصن انود لهذا الغرض ٠ فربما كان وجود المبعوثين الحميريين دليلا على ان العلاقات بين حضرموت وسبأ كانت ودية ، ومن ثم فقد ارسل ملك سبأ وذى ريدان مبعوثين لتهنئة حليفه وصديقه ملك حضرموت بمناسبة تتويجه ٠ الا انها من ناحية اخرى ، قد يستدل من وجود هذين المبعوثين ان ملك حضرموت انما كان يتولى سلطانه برضى من ملك سبأ ٠

وفيما يتصل بالتتويج عن حصن انود ، فربما كان هناك دافعا دينيا وراء ذلك ، ولقد استمر هذا التقليد الى حوالي عام ٢٠٠ م ٠

ومن النقوش التي تلقي ضوءا على سياسة حضرموت الخارجية كذلك ، نقشا يسجل استقبال " العزيلط " لوفود من الهند ، وتدمر ، ومن الآراميين ، وسجل نقش آخر مرافقة عشر نساء قريبات للملك الى حصن انود ٠ وتشير هذه النقوش عن وجود علاقات ودية بين حضرموت وهذه المناطق ، ومن ناحية اخرى ، فاذا كان المقصود من قريش هنا المعروفة بمكة ، فان هذا يعد أقدم ذكر لها في وثيقة مدوّنة ٠

واذا تحدثنا عن اهم مدن حضرموت ، فمما لا شك فيه ان مدينة " شبوة " العاصمة كانت من اهم مدن حضرموت ، ومن اهم آثارها التي كشف عنها بقايا المعابد والقصور ، فضلا عن بقايا السدود التي كانت مقامة على وادى شبوة لحصر مياه الامطار والافادة منها في رى المناطق الخصبة ٠

ومن النقوش التي وصلتنا وتتصل بمدينة شبوة ، نقش تحدث فيه صاحبه وهو "يدع ال بين بن رب شمس" وذلك حوالي عام ٢٠٠ م ووصف نفسه انه من احرار يهبار ، وانه عمر مدينة شبوة واقام فيها ، وبنى معبدها من الحجارة بعد الخراب الذى حل بها ، وانه احتفالا بهذه المناسبة ، قد أمر بتقديم القرابين في حصن انود فذبح ٣٥ ثورا و٨٢ خروفا و٢٥ غزالا وثمانية فهود ٠

ولم يورد النقش سبب هذا الخراب الذى حل بمدينة شبوة ، فهل كان ذلك نتيجة تدخل خارجي من سبأ ، وان المدينة قد عانت من التدمير في هذا الخراب ، او انه كان نتيجة ثورة داخلية ، وان "يدع ال بين" كان ثائرا على الملك الشرعي في حضرموت ، وان الحرب قد انتهت بزوال الاسرة الملكية السابقة ، وتتويج "يدع ال بين" ملكا على حضرموت ، وانه كتب على هذه المدينة ان تلاقي الأمرين في هذه الحرب الاهلية ٠

ومن مدن حضرموت كذلك مدينة "ميفعة" العاصمة القديمة لحضرموت ، وتشير النصوص الى تحصينها وتسويرها واقامة الابراج حولها لصد الغزاة عنها ، ومنها كذلك مدينة قنا وهي ميناء حضرموت الرئيسي ، وهو يقع الى الشرق من عدن ٠ ومن هذه المدن ، مدينة "مذب" او "مذاب" والتي اشتهرت بمعبدها الذى خصص لعبادة اله القمر "سين" ٠

واما متى انتهت دولة حضرموت ، واصبحت جزءا من مملكة سبأ وذى ريدان ، فهناك من الباحثين من يرى ان ذلك كان في عام ٢٩٠م ، ويرى آخرون انه كان بعد عام ٣٠٠م في عهد الملك "شمر يهرعش" ، بينما يذهب فريق ثالث الى انه كان في القرن الرابع الميلادى ٠

دولــــة قتبــــا ن

يقع اقليم قتبا ن في جنوب اليمن بين حضرموت شرقا واوسا ن غربا ، وهي مثلهما تشرف جنوبا على بحر العرب او المحيط الهندى ، وتتصل شمـــــالا بالمرتفعات اليمنية • وتقع في تلك المرتفعات عاصمتها " تمنع " وقد اشار بعض الكتبة الكلاسيكيين من امثال " ثيوفراستس " و " سترابو " و " بليني " وغيرهم الى القتبانيين ، اما المصادر العربية فليس فيها شيء يستحق الذكر عن قتبــا ن ، سوى انها موضع من نواحي عد ن ، وانهم من قبائل حمير — ويبدو ا ن هـــــذا الخلط بينهم وبين حمير يرجع الى ضعف قتبا ن واندماجها بعد فقــــــد استقلالها في حكومة سبأ ، وهي التي يطلق عليها المؤرخون اسم (حمير) •

وقد تميزت الكتابات القتبانية بكثرة ماورد فيها من نصوص رسمية تتعلق بالضرائب او القوانين او التجارة ، ومع ذ لك فا ن غالبيتها قد كتب في اغــــراض شخصية ، ومن ثم فهي لا تفيد في استخراج تاريخ منها •

وفيما يتعلق بتعيين مبدأ او نهاية مملكة قتبا ن فقد أرجع " هومـــــل " تاريخها الى ماقبل سنة (١٠٠٠) قبل الميلاد ، وذ هب (ملاكر) الـــــى ان ابتداء حكم قتبا ن كا ن في حوالي عام ٦٤٥ ق٠م ، وان نهاية استقلالها كا ن في القرن الثالث قبل الميلاد • ويرى " جلاسر " ا ن نهاية هذ ه الدولة كانت بيـــن (٢٠٠) و (٢٤ ق٠م) ، وذ هب " ريكمنس " ا ن نهايــة مملكــة قتبا ن كانــت في حوالي السنة (٢١٠) او (٢٠٧) للميلاد • هذا وقد كا ن حكام قتبـــــا ن الاوائل يلقبون انفسهم باللقب الذ ى تلقب به حكام سبأ وهو لقب " مكـــــرب " ، وتترجم هذ ه الكلمة بكلمة " مقرب " اى التقرب الى الآلهة — فهو اذ ن كناية عن الكاهن الحاكم الذ ى يحكم باسم الآلهة التي يتحد ث باسمها — ثم تلى ذ لك

ان تلقب حكام قتبان بلقب "ملك "عندما ازدادت سلطاتهم وتجاوزت حدود المعبد ·

ومن قدماء مكربي قتبان — المكرب (سمة على وتر) وقد عثر على كتابات من عهده ، كتبت بشكل حلزوني ، وهناك كذلك ابنه (هوف عم يهنعم) وجاء بعده (شهر يجل يهرجب) و (آب شبم) و (أبعم) ·

ويحاول بعض الباحثين ان يقسموا تاريخ قتبان الى ثلاث فترات ، تختلف الواحدة منها عن الاخرى ، واهم حكام الفترة الاولى "يدع اب ذبيان " بن شهر ، وقد حكم في الفترة (٧٥٠— ٧٣٥ ق·م) في رأى البعض ، وكان اول من حمل لقب ملك بجانب لقب مكرب — وربما كان في بادئ الامر كاهنا ، ثم حمل لقب ملك ، ثم اللقبين معا ، وان اقتصر في الفترة الاخيرة من حكمه على لقب ملك ، على اساس انه اللقب الرئيسي لحكام قتبان · وقد عثر على عدد من الكتابات القتبانية ، ورد فيها اسم هذا الملك · قد ورد في احداها قيام هذا المكرب بعمل ثغرة في الجبل ليمر منها الطريق المسار في الجبل من مكان الى مكان · وقد اشترك في هذا العمل الى جانب "يدع اب ذبيان"، شعب قتبان وقبائل اخرى غير قتبانية هي اوسان وكحد ودهس ، وفي هذا دلالة على وجود فن هندسي راق عند العرب الجنوبيين في هذا العهد ·

ويرى بعض الباحثين ان ملك قتبان كان قد توسع في عهد (يدع اب ذبيان) هذا فصار يشمل كل (اوسان) وقتبان ومراد ، حتى بلغ حدود سبأ · ولحماية ارضه اقام حواجز وفتح طرقا في الهضاب والجبال ليكون في امكان جيشه اجتيازها بسهولة في تحركه لمقاتلة اعدائه · وتعبيرا عن فتوحاته هذه ، في شمال ، وفي جنوب قتبان استعمل جملة (ايمنن واشامن) اى (الجنوبيون والشماليون) وهو لقب يعبر عن هذا التوسع الذى تم على يديه·

كذلك قام الملك "يدع اب ذبيان "ببناء حصن "برم" تقريبا وتسود دا لآلهة قتبان. وينسب الى عهد هذا الملك وثيقة على جانب كبير من الاهمية، وذلك لأنها تظهر لنا اصول التشريع وكيفية اصدار القوانين عند العرب الجنوبيين قبل الميلاد، وهي توضح لنا ان الملك هو المرجع الاعلى للدولة، فهو وحده يملك حق اصدار القوانين ونشرها والامر بتنفيذها، والى جانبه كان هناك مجالس مسماة ب (المزود) وتتكون من ممثلي المدن ومن رؤساء القبائل والشعاب، وهي التي تقترح القوانين وتضع مسودات اللوائح ، فاذا وافقت المجالس عليها عرضتها على الملك لامضائها ولنشرها بصورة أمر ملكي، ليطلع الناس على احكام الامر الملكي ويعملوا به. وقد احتوت الوثيقة السالفة الذكر على قانون في عقوبات القتل العمد او القتل الخطأ غير المتعمد وفي العقوبات التي يجب ان يعاقب بها من يصيب انسانا بجرح او جروح قد تحدث آفات وعطلا في الشخص. وتعتبر هذه الوثيقة الهامة التي ترجع الى عهد الملك "يدع اب ذبيان" من الاوامر التي اصدرها الملك في النصف الاول من القرن الرابع ق.م.

وورد اسم ملك آخر من ملوك قتبان يدعى (شهر هلل بن يدعاب) في قانون اصدره للقتبانيين المقيمين بمدينة "تمنع" اى عاصمة قتبان، ومن يقيم خارجها، وذلك لتنظيم التجارة، ولتعيين حقوق الحكومة في ضرائب البيع والشراء، والاماكن التي يكون فيها الاتجار. وفي هذا القانون مصطلحات تجارية مهمة ترينا مبلغ تقدم القتبانيين في اصول التشريع التجارى في ذلك الوقت.

اما الملك "يدع اب يحل" القتباني، فقد نشبت في عهده حرب بين سبأ وقتبان ذكرت في احدى النصوص التي ورد بها ان قبائل سبأ ثارت وتمردت على ملك قتبان ولكنه تغلب عليها وفرض عليها الجزية واخذ غنائم منها.

وجاء في الكتابات القديمة اسم ملك آخر من ملوك قتبان وهو الملك (شهر غيلن بن أبشم) وقد اصدر امر ملكي لجباية الضرائب من قبيلة (كحد) كذلك فقد احرز هذا الملك نصرا على حضرموت · ويتبين من ذلك ان قتبان كانت في عهد هذا الملك قوية · وقد عثر على عدد من الكتابات القتبانية ورد فيها اسم الملك (شهر يجل بن يدع أب) وجاء بها أمر ملكي في كيفية جمع الجباية من طائفة معبد الاله عم في أرض لبخ — ويظهر من هذا المصطلح ومن مصطلحات مشابهة اخرى ان العرب الجنوبيين كانوا يؤلفون طوائف تنتمي الى اله من الآلهة تتسمى به وتقيم حول معبده ، وربما كانت تتعاون في استغلال الارض وتقدم حقوق الحكومة منها الى الجباة الذين يجبون تلك الحقوق ·

وقد ورد في احدى الكتابات القتبانية ان حكومة معين كانت خاضعة لحكومة قتبان في عهد الملك القتباني (شهر يجل يهرجب) ، ويرى بعض المؤرخين ان ذلك كان حوالي سنة ٨٢٠ ق·م ، وان كانت معين قد احتفظت باستقلالها الذاتي ، اذ بقي ملوكها يحكمونها في ذلك العهد ، ولدينا نص مهم طويل ، هو قانون اصدره (شهر يجل يهرجب) باسمه وباسم شعب قتبان لقبائل قتبان في كيفية الاستفادة من الارضين (المعينية والقتبانية) واستثمارها ·

وورد اسم ملك آخر من ملوك قتبان ويدعى (نبط بن شهر هلال) وذكر في عهده حرب اشتركت فيها عدة جهات ، وهي حرب وقعت في عهد هذا الملك ، ورغم انه قد تلقب في الكتابات بلقب ملك ، الا انه كان في الواقع خاضعا لحكم حكومة حضرموت ، وقد جعل المؤرخين زمان حكمه في حوالي السنة (١٢٠م) ، وجعلوا نهاية حكم ابنه في حوالي السنة (١٤٠) بعد الميلاد · ومعنى ذلك ان الحرب المذكورة قد وقعت في خلال هذه السنين ·

ويتفق جميع الباحثين في دراسة تاريخ الحكومات العربية الجنوبية على ان السبئيين هم الذين قضوا على استقلال حكومة قتبان ، وقد اختلفوا فقط في تحديد الوقت الذى تم فيه ، فبينما يرى البعض ان ذلك كان في حوالي عام ٥٤٠ ق.م ، يرى البعض الاخر ان سقوط مدينة تمنع كان في حوالي ٥٠ ق.م . ولا يعني سقوط تمنع وخرابها وفقدان القتبانيين لاستقلالهم ، ان الشعب القتباني قد زال من الوجود ، وان اسمه قد اندثر واختفى ، فاننا نرى ان الجغرافي الشهير (بطليموس) يذكر اسمهم في جملة من ذكرهم من شعوب تقطن في جزيرة العرب .

اما عن اهم مدن قتبان ، فهي العاصمة (تمنع) وتعرف حديثا ب (كحلان) وب (هجر كحلان) في (وادى بيحان) في منطقة عرفت قديما بخصبها وبكثرة مياهها وبساتينها ، وقد تعرضت لاحداث عنيفة انتهت بخرابها بالحريق . اما عن الاسباب التي أدت الى حدوث هذا الحريق الذى دمر المدينة فهي غير معروفة لنا ، وقد أدت في النهاية الى دمار تمنع وانتقال الحكم منها الى موقع آخر يدعى (حرب) او (حريب) التي قامت بها أسرة جديدة اتخذوا لقب ملك وضربوا عملة ذهبية بأسمائهم .

وفي مجال العمارة أبدى القتبانيون اهتماما بالغا ببيوت الآلهة ومعابدها ، وفي هذا تعبير عن عقيدتهم الراسخة وولائهم الدائم لها ، ولا يخلو نقش مهما كانت مناسبته الا وقد ذكرت فيه العديد من الآلهة . ايمانا منهم بوقوف الآلهة معهم في احوال السلم والحرب ، ومن ثم كان من الطبيعي ان يقوم اهل قتبان بأداء واجباتهم نحو تلك الآلهة من صلاة ودعاء وشكر ورعاية لبيوتها ، وقد جاءت النقوش القتبانية مصدقة لكل ذلك . وهناك نقوش من عهد المكربين ، ورد فيها اسماء آلهة قتبانية هي (انبي) و (حوكم) و (عم) ، وورد فيها ايضا بناء معابد للآلهة على سبيل الشكر والدعاء لها لترعى السلام والامان للتجارة المسافرة على الطرق .

دولـــة سبـــأ

حظيت دولة سبأ بأهمية خاصة بين الدول التي ظهرت في جنـــوب الجزيرة العربية ، ويرجع ذلك الى الصلة التي ربطت بين ملكة سبأ والنبـــــي سليمان — عليه السلام — وورود اخبار هذه العلاقة في القرآن الكريم والتـــوراة . وتشير الادلة الاثرية التي كشف عنها في العراق القديم ورود اسم سبأ فـــي النقوش الاشورية التي ترجع الى عهد الملك سرجون الثاني (٧٢١ — ٧٠٥ق.م) وذلك في معرض الدول التي تؤدى اليه الجزية ، ويتجه بعض العلماء الـــى الاعتقاد بأن هذا النص يشير الى قيام السبئيين بدفع الجزية عن تجارتهم فـــي شمال جزيرة العرب ، حتى يسمح لهم بالمرور الى شواطيء البحر المتوســـط ، وذلك نظرا لان سرجون الثاني لم يصل بفتوحاته الخارجية حتى اليمن . ويشير بعض العلماء الى ان كلمة SA-Ba-A-A = Sabu الواردة في احـــد النصوص السومرية التي عثر عليها في لجش حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م تعني سبأ ، واذا كان ذلك صحيحا ، اصبحت هذه النصوص السومرية اقدم نصوص تاريخيـــة تصل الينا — حتى الآن — وفيها ذكر سبأ ، ويكون السبئيون بذلك اول شعـــب عربي جنوبي يصل ذكره الينا .

وقد اثار هذا النقش جدلا كبيرا بين العلماء ، فاتجه البعض الـــى الاعتقاد بأن السبئيين المذكورين في النصوص السومرية كانوا يقيمون في باديـــة شمال بلاد العرب ومنها انتقلوا الى اليمن ، واختلفت الآراء كذلك بشأن زمـــن هذا الانتقال فاتجه البعض الى تحديده بالقرن الثاني عشر قبل الميـــلاد ، وأرجعه البعض الاخر الى القرن الحادى عشر ، بينما أرجعه فريق ثالث الـــى القرن الثامن قبل الميلاد .

ولقد اشارت بعض كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان الى دولة سبأ ، وكان المؤرخ اليوناني " ثيوفراستس " هو اول من اشار اليهم ، وقد اعتمد في معلوماته التي ذكرها عن دولة سبأ على ماسمعه من تجار الاسكندرية ومن البحارة الذين كانوا يجوبون البحر الاحمر ويصلون الى العربية الجنوبية وسواحل افريقية والهند ، ونظرا للاطماع السياسية للسيطرة على بلاد العرب ، فقد حاول الرومان الحصول بكافة الطرق على المعلومات المتصلة ببلاد العرب عن طبيعة ارضها ومواردها وحالة سكانها ومواطن الضعف لديهم ، واعتبروا هذه المعلومات من اسرار الدولة التي لا يجوز افشاؤها ، ولقد تم جمعها وخزنت في الاسكندرية ، ولم يسمح الا لبعض الخاصة من العلماء بالاستفادة منها ، ولقد أدى ذلك بطبيعة الحال الى زيادة المعلومات عن بلاد العرب ، ومحاولة تنقيتها من الشوائب وتوثيقها الى ابعد حد ممكن .

وفيما يتصل بالأدلة الاثرية السبئية ، فاننا نعتمد في دراستنا لدولة سبأ اعتمادا كبيرا على الكتابات السبئية التي عثر عليها في مواضع متعددة من جنوب الجزيرة العربية وبخاصة في الجوف مقر السبئيين ، الا انه يؤخذ على الكتابات السبئية انها لم تتخذ تأريخا مطلقا كبداية للتاريخ ، وانما أرخت الاحداث نسبة الى الاشخاص ، وبعض الاحداث الهامة ، وذلك مما يجعل عملية تحديد زمن هذه النصوص أمرا من الصعوبة بمكان ومع ذلك فلقد أمدتنا هذه النقوش بمعلومات لا بأس بها عن نظام الحكم وتتابع الحكام في بعض الاحايين والاعمال الهامة التي قاموا بانجازها والاحداث الكبيرة التي حدثت في عهودهم .

وفيما يتصل بالكتابات المقدسة ، فلقد اشار القرآن الكريم في سورة سميت باسم " سبأ " وهي السورة رقم " ٣٤ " من القرآن الكريم ، الى ماكانت تتمتع

به دولة سبأ من نعيم ورخاء مقيم ، فقال جل من علا : " لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور" (آية رقم ١٥) ثم تتحدث آيات القرآن الكريم بعد ذلك عما اصابهم نتيجة اعراضهم ، من تعرضهم لسيل مدمر حطم كل شيء . انظر في ذلك قوله سبحانه وتعالى : " فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل" (آية رقم ١٦ من سورة سبأ) .

واشار القرآن الكريم في سورة النمل الى قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام ـ دون الاشارة الى اسمها - ومما جاء في ذلك قوله سبحانه وتعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ

أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا
عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ
ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا
تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۩
۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ
مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ
إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ
ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً
أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ
شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ
ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ
أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ
فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ
أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم
بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ
لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾
قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ
قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ
أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا
مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾
قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ
كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾
وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ
كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ
لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ
قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

ولقد وردت كلمة "سبأ" و "شبا" في التوراة ، ولكن كاتبي التوراة كانوا مترددين في نسبهم ، فهم مرة من الحاميين ، فلقد ورد في الآية السابعة من الاصحاح العاشر من سفر التكوين : "وبنو كوش سبا وحويله وسبته ورعمه وسبتكا . وبنو رعمه شبا وددان". وورد كذلك في الآية التاسعة من الاصحاح الاول من اخبار الايام الاول : "وبنو كوش سبا وحويله وسبتا ورعما وسبتكا . وبنو رعما شبا وددان". فلقد ذكروا في هذين الموضعين على انهم من كوش اى من الحاميين .

وهم مرة اخرى من الساميين ، فلقد ورد في الآيات من ٢١ ـ ٢٨ من الاصحاح العاشر من سفر التكوين مايشير الى ذلك : "وولد لسام ايضا بنون وهو ابو جميع بني عابر اخو يافث الاكبر ، بنو سام عيلام واشور وارفكشاد ولود وأرام ، وبنو أرام عوص وحول وجاثر وماش وارفكشاد ولد شالح وشالح ولد عابر ، وولد لعابر ابنان اسم احدهما فالج لانه في ايامه انقسمت الارض واسم اخيه يقطان ، ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت ويارح ، وهدورام واوزال ودقلة وعوبال وابيمائيل وشبا".

ووصفت ارض "شبا" في التوراة بأنها كانت تصدر اللبان ، وان تجارها كانوا يقومون بالتبادل التجارى مع العبرانيين ، انظر في ذلك ماجاء في الآية العشرين من الاصحاح السادس من نبوءة إرميا : "لماذا يأتيني اللبان من شبأ وقصب الذريرة من أرض بعيدة" . وماجاء في الآيات ٢٢ ـ ٢٤ من الاصحاح السابع والعشرين من نبوءة حزقيال وجاء فيها :

"تجار شبأ ورعمه متجرون معك وبأفضل كل طيب وبكل حجر كريم وبالذهب أقاموا اسواقك ، حاران وكنه وعادان وتجار شبأ واشور وكلمد متجرون

معك ، هؤلاء يتجرون معك بالانسجة الفاخرة وبأردية من السمنجوني والوشـــي وبالنفائس من الثياب المبرمه المشدودة بالحبال المحكومة بين بضائعك ".

ولقد اشارت التوراة الى قصة سليمان — عليه السلام — مع ملكة سبـــأ ، ويلاحظ ان التوراة لم تذكر اسم ملكة سبأ . ولقد وردت هذه القصة في الآيـات من ١ — ١٠ ، ١٣ من الاصحاح العاشر من سفر الملوك الثالث وجاء فيهـــا : " وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان واسم الرب فقدمت لتختبره بأحاجي ، فدخلت اورشليم في موكب عظيم جدا ومعها جمال موقره اطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة وأتت سليمان وكلمته بجميع ماكان في خاطرها ، ففسر لها سليمان جميـــع كلامها ولم يخف على الملك شيء لم يفسره لها ، ورأت ملكة سبأ كل حكمـــة سليمان والبيت الذى بناه ، وطعام موائده ، ومسكن عبيده ، وقيام خدامه ولباسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب فلم يبق فيها روح بعـــد ، وقالت للملك حقا كان الكلام الذى يلقى في أرضي عن اقوالك وعن حكمتك ، ولـم اصدق ماقيل لي حتى قدمت وعاينت بعيني فاذا اني لم أخبر بالنصف فقـــد زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذى سمعته ، طوبى لرجالك طوبى لعبيـــدك هؤلاء القائمين دائما بين يديك يسمعون حكمتك ، تبارك الرب إلهك الـــذى رضي منك وأجلسك على عرش اسرائيل فانه لأجل حب الرب لاسرائيل الـــى الابد ، اقامك ملكا لتجرى الحكم والعدل ، وأعطت الملك مائة وعشرين قنطـــار ذهب واطيابا كثيرة وحجارة كريمة ولم يرد بعد في الكثرة مثل ذلك الطيـــب الذى وهبته ملكة سبأ للملك سليمان ... واعطى الملك سليمان ملكة سبأ كـــل بغيتها التي سألتها فوق ماأعطاها من العطايا على حسب كرم الملك سليمـان وانصرفت وذهبت الى أرضها هي وعبيدها ".

وتشير احداث هذه القصة الى معرفة العبرانيين بالسبئييـــن ، وان

اختلفت وجهات نظر المؤرخين في مكان دولة سبأ التي ورد ذكرها في احداث هذه القصة ، فاتجه بعض الباحثين الى الاعتقاد بأنها كانت مملكة عربيـــــة صغيرة في اعالي جزيرة العرب كان سكانها من السبئيين القاطنين في الشمال ٠

ورغم الاختلاف في تفاصيل كيفية تعرف سليمان - عليه السلام - بمملكة سبأ والهدف من الزيارة بين ماورد في القرآن الكريم والتوراة ، الا انها تشيـر الى معرفة العبرانيين بالسبئيين والى وجود هذه المملكة في القرن العاشـــر قبل الميلاد ٠

أصل السبأيين :

اختلف المؤرخون في اصل السبئيين ، فتذكر الروايات العربية ان سبأ من قحطان ، ويسمونهم العرب المتعربة ، تمييزا لهم عن العرب الذين كانـــوا قبلهم ، وتشير هذه الروايات ان والده هو يشجب بن يعرب بن قحطان، وتذكر ان من اولاده قبائل كثيرة انتشرت في كل مكان من جزيرة العرب قبل الاســلام وبعده ، ونسب اليه نسله من السبئيين ، وقد ذكروا ان اسمه الحقيقي هـــو "عبد شمس" واما "سبأ" فهو لقب تلقب به ، وذهبوا في سبب هذه الكنيــة مذاهب متعددة ، فقالوا انه لقب به لانه اول من سبأ ، اى سن السبى مـــن ملوك العرب ، واتجه البعض الاخر الى احاكة الاساطير حوله فقالوا انه بنـى مدينة "سبأ" وسد مأرب ، وغزا الاقطار وبنى مدينة عين شمس في مصر، وهي امور لا تعدو ان تكون خيالا في مخيلة كاتبيها ٠

ولم يعثر في النصوص العربية الجنوبية التي كشف عنها عن شـــي٠ يتصل بشخص يدعى سبأ او اسمه واعماله ، وكل ماورد في هذه النقوش يشير الى

ان سبأ هو اسم شعب كوّن له مملكة وكان له حكامه ونظامه السياسي والاداري والاقتصادي ، وعلاقاته الخارجية ٠

ويتجه بعض العلماء الى الاعتقاد بأن السبئيين كانوا في الاصل شعب بدوي يتنقل بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها ، ثم استقر في بلاد اليمن فيما يقرب من عام ٨٠٠ ق٠م ، واخذوا يوسعون منطقة نفوذهم على حساب جيرانهم من المعينيين والاوسانيين والحضارمة ، وعملوا بالتجارة وسيطروا على الطرق التجارية الرئيسية التي تصل ما بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها وبلاد الشام ، وكان لذلك اثره الكبير في ازدهار دولة سبأ ونموها بين ممالك العرب الجنوبية ٠

مراحل التاريخ السبئي :

امكن بفضل النقوش السبئية تقسيم عصر دولة سبأ الى عدة مراحل وذلك على اساس تغير لقب حكام سبأ ، حيث تغير هذا اللقب عدة مرات ، وفي كل مرة كان يتغير فيها كان يحدث تغيير في نظام الحكام ، وتدخل سبأ في عهد جديد يختلف عنوانه عن العهد السابق ، ولقد امكن تحديد مراحل اربعة رئيسية مرت بها سبأ ، وهذه المراحل هي :

١ــ مرحلة المكاربة : وهي مرحلة كان يتلقب فيها حاكم سبأ بلقب مكرب ، اى المقرب من الآلهة ، او الوسيط بين الآلهة والناس ، وقد اتخذ المكاربة من صرواح عاصمة لهم ثم نقلوها الى مأرب ، ويمتد عصر المكاربة من عام ٨٠٠ ــ ٦٥٠ ق٠م ٠

٢ــ مرحلة ملوك سبأ : وهي المرحلة التي تلقب فيها حكام سبأ بلقب

" ملك سبأ " وتمتد هذه المرحلة حتى عام ١١٥ ق٠م او ١٠٩ ق٠م ٠

٣ـ مرحلة ملوك سبأ وذى ريدان (١١٥ ـ ٣٠٠ م) ٠

٤ـ مرحلة ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن واعرابها في المرتفعات وفي التهائم ٠ وهو آخر دور من ادوار الحكم في سبأ (٣٠٠م ـ ٥٢٥م)

١ـ سبأ في عهد المكارية :

اتخذ حكام سبأ في اقدم عهودهم لقب " مكرب " وذلك كما ورد في الكتابات السبئية وتشير اللفظة على التقرب من الآلهة ، فكان " المكرب " هو المقرب او الوسيط بين الآلهة والناس ، وغلب على حكام سبأ في هذه المرحلة الصفة الدينية ٠

وفيما يتصل بالتحديد الزمني لحكم المكارية فهناك عدة آراء تدور حول هذا الامر ، فهناك من يرى ان بداية حكم المكارية ترجع الى القرن العاشر او التاسع قبل الميلاد ، بينما هناك رأى ثان يرى ان بداية حكمهم كان في بداية عام ٨٠٠ ق٠م واستمر عهدهم لمدة قرنين ونصف اى حتى حوالي عام ٦٥٠ق٠م بينما رأى فريق ثالث ان مدة حكم المكارية قد استمرت ثلاثة قرون وذلك من حوالي ٧٥٠ ق٠م وحتى ٤٥٠ ق٠م ٠

ونلاحظ من ذلك اختلاف آراء المؤرخين حول بداية عهد المكارية وكذلك نهاية هذا العهد ، فبينما يرجع البعض بدايته الى القرن العاشر ق٠م ، نجد البعض الآخر يرجع بدايته الى اواسط القرن الثامن ق٠م ، وبينما يجعل

البعض نهاية هذا العهد في منتصف القرن السابع ق٠م ، نجد البعض الاخر يجعلها في اواسط القرن الخامس ق٠م ٠ ويرجع ذلك ــ كما سبقت الاشارة ــ الى عدم وجود تواريخ محددة وثابتة نستطيع التأريخ على اساسها لدولة سبأ ولعدم وجود تواريخ ثابتة تثبت حكم كل ملك بصورة قاطعة ٠

ومن أقدم مكاربة سبأ الذين وصلتنا معلومات عنهم المكرب " سمه علي " وقد وصلنا من عهده بعض الكتابات المكتوبة بالطريقة الحلزونية ، ولكن هذه الكتابات كانت قصيرة وناقصة ، ولقد ورد فيها اسماء بعض المعبودات مثل : عثتر والمقه وذات حميم ٠

ولقد اختلفت آراء العلماء حول حكام سبأ وترتيب تتابعهم في الحكم وكذلك سنوات حكمهم ، وحاولوا ترتيبهم على اساس تقدير عمر البقايا الاثرية التي تخلفت من عهودهم والطبقات الاثرية المتخلفة فيها وكذلك على اساس دراسة نماذج الخطوط والكتابات التي وردت عنهم ، ويلاحظ في ذلك تباين آراء المؤرخين حول عددهم وتتابعهم ، ومن اشهر هؤلاء المكاربة :

— سمه علي
— يدع ايل ذريح
— يثع أمر وتر
— يدع إيل بين
— يثع أمر وتر
— كرب إيل بين
— ذمر علي وتر
— يثع أمر بين

— ذمرعلي ينف
— كرب إيل وتر

سياسة سبأ الداخلية في عهد المكاربة

١ــ بناء المعابد :

اهتم مكاربة سبأ ببناء معابد الالهة وتقديم القرابين لها، وتشير نقوش المكاربة الاوائل الى تشييدهم لمعابد الالهة في صرواح ومأرب وغيرها من المناطق السبئية، ولعل من اشهر هذه المعابد، المعبد الذى شيده المكرب "يدع ايل ذريح" للاله المقه في مأرب[١]، ويسمى هذا المعبد "معبد أوام" وهو يعرف حاليا باسم "محرم بلقيس"، وهو يقع جنوب شرق مأرب الحالية بحوالي اربعة كيلومترات.

وفي محاولة لتفسير معنى التسمية الحالية للمعبد، يذكر الاستاذ الدكتور احمد فخرى ان كلمة "محرم" تعني المكان المقدس للاله او بعبارة اخرى "المعبد". اما "بلقيس" فيرى المؤرخون العرب انها ملكة سبأ التي زارت سيدنا سليمان ــ عليه السلام ــ ويرون ان اسمها كان "بلقيس" او "بلقمه"

(١) يتجه بعض الباحثين الى ان هذا المعبد كان موجودا قبل عهد "يدع ايل ذريح" وانه لم يكن الباني له كله، بل قام ببناء بعض اجزائه فقط، غير انه لم يعثر على اسم من قام ببنائه، ومهما كان الامر فان اقدم اسم موجود في هذا المعبد هو لهذا المكرب، ولهذا فانه ينسب اليه، حتى تكشف لنا الحفائر التي تجرى في هذه المنطقة عن اسم بانيه.

ويرجح علماء الساميات ان " بلقمه " هو الارجح ، وربما كان اسم الاله " المقه " يدخل في تركيبه . اما اسم " بلقيس " الذى تكرر ذكره في كتب المفسرين المسلمين فلم يرد على الاطلاق بين الاسماء السبئية المعروفة ، وهناك احتمال بأن الاسم منقول عن العبرية التي نقلته بدورها عن اليونانية ومعناه " أمة " او جارية .

وفيما يتصل بالتصميم المعمارى لمعبد أوام او محرم بلقيس ، فيلاحظ انه يكاد يكون بيضاوى الشكل، ويوجد مدخله الرئيسي في الناحية الشمالية، ويوجد امام المدخل بهو ذى اعمدة على جوانبه ، وبعد المدخل بحوالي عشرة امتار تقوم ثمانية اعمدة كبيرة في صف واحد ، وذلك عدا الاعمدة الصغيرة . ويوجد في الجهة الشرقية من البناء هيكلا صغيرا من الحجر له اربعة اعمدة . وشيد السور الخارجي للمعبد من احجار منحوتة ، وهي تتفاوت في احجامها، وقد زين أعلى السور ببعض الزخارف . وكان للمعبد باب جانبي آخر في الناحية الغربية وهو مواجه للمدينة القديمة ، وربما كان هناك طريق موصل بين الاثنين ، ومن المحتمل ان تكون هناك ابواب جانبية اخرى مغطاة الآن بالرمال .

وقام مكاربة سبأ بعد ذلك بترميم المعبد وتوسيعه ، ومن هؤلاء المكاربة " يثع امر بين " الذى حكم في النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد ، الذى سجل نقشا على الناحية الغربية من سور المعبد اشار فيه الى قيامه باتمام بناء المعبد . ولقد ظل هذا المعبد يؤدى وظيفته في عبادة الاله المقه مدة تناهز الالف عام ، حيث عثر على كتابات بالقرب من باب المعبد تشير الى القيام ببعض الترميمات فيه ، وترجع هذه الكتابات الى القرنين الثالث والرابع الميلاديين .

وقام المكرب " يدع ايل ذريح " ببناء معبد للاله المقه ايضا في مدينة

صرواح ، ولكن لا يمكن معرفة التصميم الاصلي بهذا المعبد ، وذلك نظــــرا لانه قد استخدم خلال العصور الوسطى كحصن ، فاستحدثت فيه مداخــــل وسدت منافذ وهدمت كثيرا من احجاره .

٢ـ تشييد السدود :

اهتم مكارية سبأ بالاصلاحات الزراعية ، فعملوا على استصلاح الارض واستغلالها ، ومن اجل ذلك وجهوا اهتمامهم لبناء السدود لحجز الميــــاه للاستفادة منها في اعمال الزراعة ، واقام العرب السدود لقلة المياه في بلادهم فلم يدعوا واديا يمكن استثمار جانبيه بالماء الا وحجزوا سيله بسد ، فتكاثــرت السدود بتكاثر الاودية حتى تجاوزت المئات . ولقد ذكر الهمذاني في يحصب العلو من مخاليف اليمن وحده ، ثمانين سدا ، والى ذلك اشار شاعرهم بقوله :

وبالبقعة الخضراء من ارض يحصب ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

وكانوا يسمون كل سد باسم خاص به ، او بنسبة الى البلد المقام فيه ، ومن اعظم هذه الاسداد في بلاد العرب واشهرها سد مأرب . ومن اقـــدم النقوش التي وصلتنا عن سد مأرب نقش من عهد المكرب " سمه على ينــف " واشار فيه الى تصميمه لسد رحاب للسيطرة على مياه الامطار والاستفادة مـــن السيول ، وهو جزء من مشروع سد مأرب ، ويشير هذا النقش كذلك الى قيـــام هذا المكرب بثقب حاجز من الحجر ، وفتح ثغرة فيه لمرور المياه منها الى سد رحاب لتسيل الى منطقة يسران ، وكانت تغذيها مسايل وقنوات عديدة تأتـــي بالماء من حوض هذا السد .

وتشير نقوش " سمه على ينف " وهي اقدم كتابات تصلنا عن ســـــد

مأرب الى قيامه بأعمال هامة فيه ، الا انه لا يمكن القول انه هو مشيد .. فقد يكون تشييده قد بدأ من قبل حكمه وانه أتم هذا العمل ، ولكن نظرا للنقص الشديد في الوثائق المتصلة بهذا الموضوع يظل "سمه على ينف" هو اقدم المكاربة الذين نعرف عنهم قيامهم بتشييد سد مأرب ، وكان ذلك في اواسط القرن الثامن قبل الميلاد . ولقد سار على نهجه من جاء بعده من المكاربة في الاهتمام بسد مأرب وتعلية جدرانه وترميمها واستحداث اضافات اليه .

ويعتبر سد مأرب أعظم عمل هندسي قديم في الجزيرة العربية كلها ، ولقد حظي بكثرة ماورد عنه في اخبار العرب واشعارهم وذلك على سبيل العظة والعبرة لما اصاب سبأ نتيجة انهياره ، ولقد اشار القرآن الكريم في سورة سبأ الى مااصاب سبأ نتيجة حدوث سيل العرم ، فقال تعالى في كتابه الكريم : "لقد كان لسبأ في مساكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا انفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور". الآيات من ١٥ ــ ١٨ .

وسيل العرم الذى يشير اليه القرآن الكريم ، والذى كتب فيه المفسرون كثيرا ، وكان سببا في خراب المنطقة حدث في وقت مابين اعوام ٥٤٣ ، ٥٧٠ م ، اى قبيل مولد النبي عليه افضل الصلاة والسلام . ولكن بالرغم من ان حادث هذا السيل كان قريبا من البعثة المحمدية فان ماكتبه الشراح والمفسرون مليء بالقصص الخيالية سواء كانت عن سبب تخريب السد وتهدمه او عن الذين

قاموا ببنائه ، فقال بعضهم ان بانيه هو سبأ بن يشجب ، وقال غيرهم بنساه لقمان بن عاد ، وجعله فرسخا في فرسخ ، وجعل له ثلاثين فتحة ، الى غير ذلك من المبالغات .

ولعل من اوثق روايات العرب عن سد مأرب ماذكره ابي محمد الحسن ابن يعقوب الهمداني في كتابه الاكليل ، وكان قد شاهد انقاضه بنفسه في اوائل القرن الرابع للهجرة ، وكان يقرأ خط المسند ويفهمه ، فوصف انقاضه مع تطبيقها على ماجاء في القرآن الكريم ، ولقد جاء في رواية الهمداني :

" ذكر مأرب : وهي مسكن سبأ الذى قال الله فيه : " لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور " . وهي كثيرة العجائب . والجنتان عن يمين السد ويساره ، وهما اليوم غامرتان ، والغامر العافي ، وانما عفتا لما اندحق السد فارتفعتا عن ايدى السيول . ووجدت في احداهما غريق اراك ، وفي اصله جذع نخلة اسود قد كبست باقيه السواقي ، فقال بعض من كان معي : لا اظنه الا من بقايا نخل الجنتين ، وما اظنه بقي من العصر القديم . واما مقاسم الماء من مداخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعا فرغ من عملها بالامس . ورأيت بناء احد الصدفين وهو الذى يخرج منه الماء ، قائما بحاله على اوثق مايكون ولا يتغير الا ان يشاء الله ، وانما وقع الكسر في العرم وقد بقي من العرم شيء مما يصل الى الجنة اليسرى يكون عرض اسفله خمسة عشر ذراعا ، قال تبارك وتعالى : " فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى اكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل " قيل الخمط الاراك والاثل الطرفاء ، والسدر المعروف العبرج وهو العلب وجمعه علوب والواحدة علبه .

ومن امثال العرب في الرجل المنيع الجانب : هو رجل لا يغاش عليه ولا يخلف وثله ود ومه ، وبها من الاراك ماليس ببلد ومن الحمام المطوق في الاراك ما يجل عن الصفة . وكان السيل يجمع من اماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن ، من (عروش وجانب ردمان وسرعة وذمار وجهران وكومان وأسبيل وكثير من مخاليف خولان) . وفي هذا السد يقول الاعشى :

"كفى ذلك للمؤتس اسوة	ومأرب قفا عليها العرم
رخام بناه له حمير	اذا جاء ماؤهم لم يرم
فأروى الحروث واعنابهم	على ساعة ماؤهم ينقسم
فعاشوا بذلك في غبطة	فجار بهم جارف منهزم
فطار القيول وقيالها	بيهماء فيها سراب يطم"

وفيما يتصل بوصف السد ، فيلاحظ ان السيول المتدفقة في الوديان تصل الى منطقة قريبة من مأرب في وادى أذنه حيث تدخل في جبل يسمى "جبل بلق" وتسمى الفتحة التي تدخل منها المياه باسم "الضيقة" ولكل من جهتيها اسم حسب وصفها فهي بلق الايمن وبلق الايسر .

ويرتفع جبل بلق في تلك المنطقة الى حوالي ٣٠٠ متر، ويبلغ متوسط اتساع "الضيقة" ٢٣٠ مترا ، ولكنها تتسع في الوسط فيصبح اتساعها ٥٠٠ مترا، ثم تضيق بعد ذلك فلا تزيد عن ١٩٠ مترا تقريبا، ثم تستمر الناحية الشمالية في امتدادها بينما تنفرج الناحية الاخرى . وقد اختير هذا المكان لتشييد السد ، فبني فيه جدارا قويا يعترض الوادى ويوقف مياه السيول المتدفقة ، وجعلوا في الناحيتين فتحتين احداهما الى اقصى اليمين واستغلوا ذلك الجبل المرتفع في هذا الغرض فلم يبنوا الا جدارا ضخما

واحدا ليكون صدفا ثانيا للبوابة ، اما البوابة التي في الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهي أكبر واعظم ، وتنقسم الى قسمين ، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيران مسافة غير قليلة ، ثم ينتهيان بحوض كبير مبني بالحجر ترى في جهاته المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لري ناحية من نواحي الوادي الفسيح .

ولقد شيد هذا السد لغرضين ، (الاول) السيطرة على مياه السيول المتدفقة فلا تخرب مايعترضها اذا جاءت فجأة بكثرة غير عادية ، (وثانيهما) تخزين تلك المياه ورفع مستواها امام السد وعدم صرف شيء منها الا بالمقدار اللازم ، وبذلك يضمنون ري وادي مأرب الذي يرتفع عن مستوى السابله بخمسة امتار ، ويأمنون توفر كميات المياه اللازمة للري حين يحين موعد مجيء سيول اخرى .

وفيما يتصل بوقت تهدمه ، فيلاحظ ان السد لم يتهدم مرة واحدة وانما صارع عوامل الزمن والطبيعة ، واهمال الانسان طيلة الفترة التي كان قائما فيها ، ولا ريب انه تأثر بتلك التحولات السياسية والاقتصادية التي شهدتها اليمن قديما ، وتعرض للاهمال والكوارث الطبيعية مرارا . ومن النقوش التي سجلت تهدم السد والقيام بترميمه ، نقش عثر عليه في مأرب ويعرف باسم " جام ٦٧١ " ويرجع الى اواسط القرن الرابع الميلادي ، وفيه يشير " تأران بن يهنعم " وابنه " ملكي كرب يهأمن " الى اصلاح ماتهدم من السد في حوالي ثلاثة اشهر . ووصلنا النقش الثاني من عهد الملك " شرحبيل يعفر بن ابي كرب اسعد " التبع اليماني وذلك بين عامي ٤٤٩ ، ٤٥٠ م ، وفيه يشير الى اصلاح ماتهدم من السد من جدارمه او قنواته واعيد بناؤه سويا ، كما كان ، وذلك في خمسة اشهر من العمل المتواصل واشترك

في اصلاحه عشرون الف رجل ٠

وتهدم سد مأرب للمرة الثالثة في عهد ابرهة الذى حكم اليمن بعد الغزو الحبشي والياالنجاش الحبشة ثم حاكما مستقلا عنه ، وكان ذلك حوالي عام ٥٤٣ م ٠ وقد عمل في اصلاح السد آنذاك عدد كبير من العمال وصرف على ترميمه اموال طائلة اشير اليها في نقش ابرهة الذى عثر عليه قرب السد ويطلق عليه (المدونه ٥٤٢) وكان خبر انكسار السد قد بلغ ابرهة وهو في احدى حملاته لاخضاع بعض القبائل الثائرة ، وعاد ابرهة ومعه من ثار عليه من القبائل واشترك الجميع في اصلاح السد وباشراف ابرهة نفسه ٠ وقد خلد ابرهة ذكرى هذا العمل في نقش عثر عليه في جلازر ٠ ونورد فيما يلي ماجاء في هذا النص اعتمادا على ماورد في مؤلف الاستاذ جرجي زيدان عن العرب قبل الاسلام :

" بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه والروح القدس ، ان ابرهة عزيز الاحباش الاكسوميين ، ملك اراخميس زبيمان ، ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت واعرابهم في نجد وتهامة ، قد نقش هذا الاثر تذكارا لتغلبه على يزيد ابن كبشه ، عامله الذى كان قد وُلاه كندة ورى ، وعينه قائدا ومعه أقيال سبأ الصحاريين ، وهم مرة ونمامة وحنش ، ومرثد وصنف ذو خليل واليزنيون اقيال معدى كرب بن السميفع وهفان واخوته ابناء الاسلم ، فأنفذ الملك اليه الجراح ذازنبور ، فقتله يزيد وهدم قصر كداره وحشد من اطاعه من كندة وحريب وحضرموت ، وفرهجان الزمارى الى نجران ٠ وبلغ الملك الاستصراخ ، فنهض بجنده الاحباش الحميريين الوفاء في شهر ذو القياط من سنة ٦٥٧ (من تاريخ اليمن) فنزل اودية سبأ ٠٠٠ فجاء يزيد وبايع وخضع للملك بين يدى القواد ٠ وهم في ذلك جاءهم النبأ بتهدم السد

والحائط والحوض والمصرف في شهر ذو المدرح سنة ٦٥٧ فأمر بالعفو ٠٠٠ وبعث الى القبائل بانفاذ الحجارة للاساس والحجر الخام والاخشاب ورصاص الصب ٠٠٠ لترميم السد في مأرب ٠٠٠ فتوجه اولا الى مأرب وصلى في كنيستها ، ثم عمد الى الترميم فنبشوا الانقاض حتى وصلوا الى الصخر وبنوا عليه ، وعلم وهو في ذلك ان القبائل تضايقت من العمل ، ورأى اعدامهم يعود بالضرر فعفا عنهم : احباشهم وحميريهم ، وأذن بانصرافهم ٠٠٠ ورجع الملك الى مأرب بعد ان عقد تحالفا مع الاقيال الآتي ذكرهم : اكسوم ذو معاهر بن الملك ومرجزف ذو ذرئاح وعادل ذو غائش وازد اد شولمان وشبحان ورعين وهمدان والكلاع ٠٠٠ الخ وجاء اليه وفد النجاشي ووفد ملك الروم ورسول من المنذر وآخر من الحارث بن جبلة ، وآخرون جاءوا بعون الرحمن يخطبون مودته في اواخر شهر داوان ، وبعثوا اليه من غلة اراضيهم لترميم ماانصدع من البناء فرمموه ووسعوه حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعا وارتفاعه ٣٥ ذراعا (ثم ذكر ماانفق فيه من الحجارة والاطعمة للعملة والحيوانات للعمل) ، واستغرق العمل في ذلك ٥٨ يوما و ١١ شهرا ، وكان الفراغ منه في شهر ذو معان سنة ٦٥٨ " ، وهذه السنة في حساب الحميريين تعدل عام ٥٤٣ للميلاد ، لانهم كانوا يبدأون تاريخهم سنة ١١٥ قبل الميلاد " ،

اما متى تفجر سد مأرب للمرة الاخيرة ، وهي الحادثة التي ذكرها القرآن الكريم ، فلا يعلم زمانها بدقة وان كان جمهور العلماء يرى ان تلك الحادثة لا بد وان تكون قد تمت بعد منتصف القرن السادس الميلادي ، اي بعد عام ٥٥٠ ميلادية ، وذلك قبل ميلاد الرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، بسنوات قليلة ،

٣ ــ بنـاء السـد ن :

اتخذ مكارية سبأ من صرواح عاصمة لهم في بادئ الامر ، وظلت قرونا طويلة عاصمة لهم ، وعنى الكثير من حكام سبأ بتشييد المعابد فيها ٠ وتقـــع مدينة صرواح في وادى صرواح الذى يكاد يكون مستديرا ، وتحيط به المياه من كل ناحية ، وكان له سد لتخزين مياه الامطار ٠وتوجد المناطق الاثرية فـــي صرواح في ثلاثة مناطق متقاربة واحدة منها هي منطقة السد وتعرف باســـم " البنا " ، والثانية هي المنطقة المسماة " القصر" ، والمنطقة الثالثة وتعـــرف باسم " الخريبة " وتوجد فيها بقايا المعابد ، ومن اشهرها المعبد الكبيـــر الخاص بالاله " المقه " والذى سبقت الاشارة اليه ٠

سياسة سبأ الخارجية في عهد المكاربة :

تشير العديد من النقوش السبئية الى الاهتمام بمدينة نشق وتحصينها وهي مدينة معينية في الاصل، كانت مهمة بالنسبة لهم ، فقرروا اصلاح ماتخرب منها ، واستصلاح ارضها لاسكان السبئيين فيها ، ووسعوا في حدودها ، واصلحوا نظم الري فيها ، ووزعوا اراضيها الزراعية على اتباعهم السبئيين ، وحولوها بذلك الى مدينة سبئية . ومن هذه النقوش التي تشير الى اهتمام مكاربة سبأ بمدينة نشق ، نقش خاص بالمكرب "كرب ايل بين " ويشير فيه الى انه وسع حدود مدينة (نشق) وحصن المدينة ، واشار ابنه المكرب "ذمرعل وتر" الى انه امر بتوسيع مدينة (نشق) واصلاح الارض المحيطة بها ، وبتحسين نظم الري فيها ، وذلك فيما وراء الحد الذي وضعه ابوه لهذه المدينة ، وانه قد جعل ذلك وقفا على شعب سبأ .

ويشير الى توسيع السبئيين ايضا نقش يرجع الى عهد المكرب " يثع امر بين " وفيه يذكر انه سوّر وحصن قلعة (حريب) وهما من مدن قتبان ، ويشير ذلك الى توسع السبئيين في عهد المكاربة والى اتخاذهم هذه الحصون مواقع هجومية تذهب منها جيوشهم على جيرانهم الذين اصابت حكوماتهم الضعف .

ولقد ورد في نقش خاص بالملك سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) انه تسلم هدايا من عدد من الملوك ، من بينهم " يثع امر " السبئي ، وذهب بعض الباحثين الى الاعتقاد بأن " يثع امر " هذا كان احد الملوك السبئيين الحاكمين في شمال جزيرة العرب على مقربة من البادية في اعالي الحجاز ، او نجد مثلا ، او في الارض الواقعة في المناطق الجنوبية من الاردن ، بينما يرى

آخرون انه هو المكرب السبئي الذى حكم في الجنوب ، وهو مايتجه اليه معظم الباحثين ، وفي هذه الحالة ، فان هذه الهدايا لا تشير الى خضوع سبأ للاشوريين ، اذ انه من المستبعد بلوغ نفوذ الاشوريين في ذلك الوقت الى اليمن ، وعلى ذلك فان هذه الهدايا تكون مجرد تعبير عن الصداقة التي كانت تربط بين أشور وسبأ ، خاصة وان بين اليمن والعراق تجارة مستمرة قديمة ، ومواصلات متصلة ، فلتوطيد الصداقة بين الحكومتين وتسهيل التبادل التجارى بين العراق واليمن ارسل حكام سبأ تلك الهدايا لكسب ودهم وتسهيل امور تجارتهم في أسواق العراق.

٢ـ عصر ملوك سبأ

يبدأ عصر ملوك سبأ بالملك "كرب ايل وتر" الذى كان "مكربا" تسم لقب "ملك" كما تشير الى ذلك النقوش التي ترجع الى عهده ، ومن اهمها نقش صرواح المنقوش على وجسه جدار مشيد من المرمر في بهو المعبد الرئيسي في صرواح ، وقد افتتح هذا النقش بجملة : "هذا ماامر بكتابته كرب ايل وتر بن ذمرعلى مكرب سبأ عندما صار ملكا" . ويشير استخدام حكام سبأ لهذا اللقب الى زيادة صفتهم السياسية عن صفتهم الدينية . وقد انتقلت الحكومة من صرواح العاصمة الاولى القديمة الى مأرب العاصمة الجديدة ، حيث استقر الملوك فيها متخذين من قصر سلحين مستقرا لهم .

وفيما يتصل بالتحديد الزمني لعصر ملوك سبأ ، فهناك من المؤرخين من يجعل بداية هذا العصر حوالي عام ٦٥٠ ق.م، بينما يرجعه آخرون الى حوالي عام ٤٥٠ ق.م ، الا ان الرأى الاول هو الارجح. اما عن تحديد نهايته ، فيتجه غالبية العلماء الى تحديده بحوالي عام ١١٥ ق.م او ١٠٩ ق.م .

وقد اختلف المؤرخون في عدد ملوك سبأ ، فذكر "هومل" في قائمته تسعة عشر ملكا ، وذكر "كليمان هوار" اثنا عشر ملكا ، وأورد "فلبي" اسماء خمس وعشرين ملكا ، ومن هؤلاء الملوك :

- سمه على ذريح
- الشرح بن سمه على ذريح

— كرب ايل وتر بن سمه علي ذريح
— يدع ايل بين بن كرب ايل وتر
— يكرب ملك وتر
— يثع امر بين
— كرب ايل وتر
— سمه علي ينف
— الشرح بن سمه علي ينف
— ذمر علي بين بن سمه علي ينف
— يدع ايل وتر
— ذمر علي بين بن يدع ايل وتر
— كرب ايل وتر بن ذمر علي بين
— نشأ كرب يهنعم
— ناصر يهنعم
— وهب آل يحز
— كرب ايل وتر يهنعم .

سياسة سبأ الداخلية في عصر الملوك

١ ـ الاهتمام بالنواحي الاقتصادية :

اهتم ملوك سبأ باقامة السدود وحصر السيول وشق القنوات لاستصلاح الاراضي الصالحة للزراعة وتنظيم وسائل الري . وفي ذلك يشير اول ملوك سبأ وهو "كرب ايل وتر" في نقش النصر الى شكره لالهته وثنائه عليها لمباركتها ارضه وارض شعبه ، ووهبت ارض سبأ مطرا سال في الاودية فأخذت الارض زخرفها بالنباتات ، واذ مكنته من انشاء السدود وحصر السيول حتى صار في الامكان اسقاء الاراضي المرتفعة ، واحياء الاماكن التي حرمت من الماء . وكذلك احياء اراضي واسعة بانشاء سد لحصر مياه الامطار يتصل بقناة روت اراض لم تكن المياه تصل اليها ، فوصلت اليها بامتلاء حوض السد بالماء ، وبانشائه مسايل أوصلت المياه الى أراض اخرى ، كما نظم الري ، حتى صارت المياه تسقي كل أرض . كما اشار في نقش آخر يعرف باسم Glaser 1000B الى اقامته لخزان ماء في وادي أذنة ، وأقام مسايل للماء فوصلها الى (يسران) وانه شيد وحصن وقوى جدار ماء (يلط) ومايتفرع منه من مساق ومسايل . ويشير في هذا النقش كذلك الى تعميره لاراض زراعية ، في ارض (يسران) وغرسه لنباتات فيها .

وورد نقش من عهد الملك "كرب ايل وتر" سجله احد كبراء القبائل بمناسبة قيامه بأعمال زراعية وبأمور تتعلق بري الارض مثل حفر الانهار وبناء السدود . وقد ورد في هذا النقش اسماء الاماكن التي أجريت فيها هذه الاعمال ، وهي (أثين) و (مطرن) و (مأتم) و (ذو فنوتم) و(سمطانهان)

وهي من مزارع الملك ، وغوطة (ذو ضأم) في (سرو أمان) .

وقد ذكر اسم الملك "كرب ايل وتر يهنعم" في النص المعروف ب Jamme 563 وقد دونه أناس من (بني عثكلان) حمدا وشكرا للالــه المقه الذي انعم عليهم وحباهم بنعمه ، واعطاهم حصادا جيدا وغلة وافرة ، وليزيد في توفيقه لهم ونعمه عليهم ، وليبعد أذى الحساد وشر الشانئين . ويوضح ذلك مدى الاهتمام بزيادة المحاصيل الزراعية .

كما جاء اسم هذا الملك في نص آخر دونه قيل من أقيال (غيمان) معروف ب Jamme 464 دونه عند تقديمه تمثالا للاله المقه حمدا لـه وشكرا على انعامه عليه وعلى جيش واقيال الملك كرب ايل وتر يهنعم ، ولانه منّ عليه وأعطاه حاصلا طيبا وغلة وافرة وأثمارا كثيرة ، وليمنّ عليه وعلى قومه في المستقبل أيضا ، وذلك بحق المقه وبحق الالهة عشتر ... ثم يعدد النقش العديد من الآلهة السبئية .

٢ـ النواحي المعمارية :

العمارة الدينية : اهتم ملوك سبأ باقامة معابد الآلهة وترميمها وتقديم القرابين اليها ، ومن بين النقوش التي وصلتنا وتشير الى اهتمام الملوك بترميم المعابد وزيادتها ، نقش يعرف ب CIH 374 وورد فيه "ان الشرح بن سمه على ذريح " قد اقام جدار معبد المقه من موضع الكتابة الى اعلاها ، ورمم ابراج هذا المعبد ، وحفر الخنادق ، ووفى بجميع نذره الذي نذره لالهة المقه على الوفاء به بعد ان اجاب دعاءه ، وقد استجاب إلهه لسؤاله ، فيسر أمره وأعطاه كل ما أراد ، فشكرا له على نعمه ،

وشكرا لبقية آلهة سبأ، وهي : عشتر وهبس وذات حميم ، وذات بعدن وتمجيدا لاسم والده " سمه على ذريح " ان أمر بتدوين هذه الكتابة ليطلع عليها الناس".

العمارة المدنية : اشار اول ملوك سبأ "كرب ايل وتر" في نقش النصر الذى يرجع الى عهده الى بعض ماقام به من اعمال عمرانية ، فذكر أنه أتم بناء الطابق الاعلى من قصر سلحين ابتداء من الاعمدة ، والطابق الاسفل الى اعلى القصر.

وفيما يتصل بعاصمة سبأ في عهد الملوك فكانت مأرب ، وكان يحيط بها سور قوى حصين له ابراج ، وشيد السور بحجر البلق ، كما ورد في النقش المعروف بـ Glaser 418,419 ، وأقيم السور على اساس قوى من الحجر ، وكان يوجد بالسور بابين. ومن اعظم ابنية مأرب واشهرها قصر ملوكها وهو المعروف بقصر سلحين ، ومعبدها الكبير الخاص بالاله المقه. وفي الناحية الشمالية والغربية من المدينة وفي خارج اسوارها توجد بقايا مقبرة جاهلية ، يبدو أنها كانت مقبرة مأرب قبل الاسلام.

٢ـ النظم السياسية :

توجد بعض الاشارات التي يمكن الاستدلال منها على بعض نواحي التنظيم السياسي في عصر ملوك سبأ. ومن هذه الاشارات ماورد في عهد الملك "يكرب ملك وتر" وهو النقش المعروف بـ Halevy 51 ، وقد سجل عليه تأييد هذا الملك لقانون كان قد صدر في ايام حكم أبيه لشعب سبأ ، وقبيلة "يهبلح" ، وهو يتصل بحقوق الارض وكيفية استغلالها واستثمارها في

مقابل ضرائب معينة تدفع الى الدولة ، وفي الواجبات المترتبة على سبأ وعلى (يهبلح) في موضوع الخدمات العسكرية ، وتقديم الجنود لخدمة الدولة في السلم والحرب · وقد شهد على صحة هذا القانون وأيد صدق صدوره من الملك ووافق عليه جماعة من الاشراف وسادات القبائل المتضامنة مع سبأ · وقد ذكرت اسماؤهم بعد جملة " شهد على صحة هذا البيان ، وأيده ، ووافق على ماجاء فيه " ·

ويتضح من هذا النقش اهمية القبائل السياسية في اتخاذ قرارات القوانين والموافقة عليها ، وانه كان يوجد — وذلك فيما يذكر استاذنا الاستاذ الدكتور مصطفى العبادى — مايمكن ان يطلق عليه مجلس قبائل سبأ ، وان هذا المجلس يتكون من ممثلين لاشراف كل قبيلة ويرأسه الملك ، ويبدو انه لا بد من موافقة هذا المجلس على مايصدره الملك من قرارات ، وبعبارة اخرى كان هذا المجلس هو الذى يصنع سياسة الدولة بما يتفق ومصالح القبائل الممثلة فيه ·

ويؤيد ذلك نقش آخر يرجع الى عهد الملك "كرب ايل وتر" ويعرف ب Glaser 1571 وهو يتضمن أمرا ملكيا يتصل بجباية الضرائب ، وقد شهد عليه ووقعه ممثلون عن القبائل : قبيلة ذى يفعان ، قبيلة نزحتن (نزحتان) ، وقبيلة اربعنهان ، وقبيلة فيشان ، وكبير صرواح ·

السياسة الخارجية :

استمر "كرب ايل وتر" اول ملوك سبأ في سياسة المكارية الخارجية ، وذلك فيما يتصل بسياسة التوسع والقضاء على الحكومات العربية الجنوبية

الاخرى ، او اخضاعها لحكم سبأ ، وقد سجل في نقشه المعروف باسم نقش النصر ماقام به من اعمال حربية ونتائج هذه الحروب ، ونستطيع من دراستنا للاعمال العسكرية في هذا النص معرفة الاتساع الذى بلغته سبأ في عهده وماغنمه في هذه الحروب وماأوقعه بأعدائه او المتحالفين معه . ولقد اطال في ذكر البلاد التي فتحها ودمرها ، ويذكر انه في حربه ضد أوزان قتل ١٦٠٠٠ من اعدائه وأسر ٤٠٠٠٠ ، ويقول انه استمر في فتوحاته حتى وصل الى البحر ودانت أوزان وملكها " مارتو " لسلطانه . وبعد ان تم له اخضاع الجنوب ، اتجه ببصره نحو مدن المعينيين فأخضعها واحدة بعد اخرى ، وقبل ملوكها دفع الجزية له ، وان يكونوا من أتباعه . ويشير في آخر النقش الى حملته على نجران . ولقد كانت حروب هذا الملك فاتحة عهد جديد في تاريخ اليمن القديم ، واصبح ملك سبأ ، ملكا على اليمن بأكملها بما في ذلك حضرموت ونجران ، ومايسمى الآن بالمحميات ، واستمر ذلك الملك الواسع الكبير لسبأ لمدة عدة قرون .

ومنذ عهد الملك " يثع امر بين " دخلت سبأ في صراع مع قتبان ، ومما يشير الى ذلك نقش سجله كاهن الآلهة ذات غضران بمناسبة اقامته هو وافراد اسرته جدارا في معبد الاله المقه وشكرهم لآلهة سبأ لانها انعمت عليه اذ كان قائدا عسكريا بالتوفيق في عقد صلح بين حكومة سبأ وحكومة قتبان وذلك بعد حرب ضارية استمرت لمدة خمس سنوات ، كانت قتبان هي التي اشعلت نارها بهجومها على أرض سبأ ، وقد عهد الى هذا الكاهن والقائد بمحاربة القتبانيين والدفاع عن المملكة ، فاستطاع وقف الهجوم القتباني واجلائهم وانتهى الامر بعقد صلح معهم . تمكن السبئيون من استعادة اراضيهم التي احتلها القتبانيون .

ولم تنته جولات الحروب بين سبأ وقتبان عند ذلك ، فهناك العديد من الاشارات الى وقوع حروب بينهم بعد ذلك ، استمر بعضها سنين طويلة استغرقت عهد العديد من الملوك ، وكان لقتبان الغلبة في بعضها حيث استولت على بعض املاك القبائل السبئية وسجلتها باسمها .

ويستدل من النص المعروف ب Glaser 1228 ان "وهب ايل يحز" قد دخل في صراع حربي مع الريدانيين ، وقد ساعد السبئيين في هذه الحرب بعض القبائل ومنها مخطران ، وسخيم ، وزو خولان ، وبنوتبع بينما انضم الى جانب الريدانيين سعد شمس ، ومرثد .

ويشير نص آخر الى هذه الحروب مع الريدانيين ، وهو يعرف ب Jamme 561 BIS وقد سجله بعض اقيال همدان وذلك عند تقديمهم تمثالا الى الاله المقه لانه منّ عليهم وعلى قبيلتهم ، وأغدق عليهم نعماء ، واعطاهم غنائم كثيرة في الحرب التي وقعت بين ملوك سبأ وبين ذي ريدان واشتركوا فيها ، اذ ترأسوا بعض القوات وكذلك في غاراتهم على ارض العرب المجاورين لقبيلتهم والنازلين على حدودها ، اولئك العرب الذين أخطأوا تجاه امرائهم وساداتهم ملوك سبأ ، وتجاه بعض قبائل ملك سبأ ، ولأن الاله المقه أنعم عليهم بأن جعل الملك "وهب ايل يحز" ملك سبأ راضيا عنهم ، مقربا لهم .

ويتبين من هذا النقش ان هؤلاء الاقيال من قبيلة همدان كانوا في خدمة ملك سبأ ، وانهم قد اشتركوا مع ملك سبأ "وهب ايل يحز" في تكبيد بني ذي ريدان خسائر فادحة في الحرب التي نشبت بينهم وبين هذا الملك كما يتبين من هذا النقش كذلك ان أرض همدان قد تعرضت لغارات

الاعراب ، وقد نجحوا في تأديبهم ٠

وقد وردت اولى الاشارات عن الاعراب وغاراتهم على السبئيين وقوافلهم من عهد الملك " نشأ كرب يهنعم " ، وقد دون هذا النص بعض الافراد من قبيلة بني آل الجميل العرج وهم من كبراء قبيلة يدع ، وذلك حمدا للاله المقه الذى أجاب نداءهم وأغاثهم ومنّ عليهم وعلى بيتهم سلحين في الجميل وحماهم من الغارة التي أمر بها الملك " نشأ كرب يهنعم "على (أرض عربن) ، اى ارض الاعراب لانقاذ اصدقائهم واهليهم في مأرب ، وكذلك الجنود والحيوانات التي كانت معهم واعادتهم الى مأرب ٠

ويتضح من هذا النص ان اعراب البادية كانوا قد أغاروا على جماعة من السبئيين ، او انهم هاجموا أرض سبأ ، فأرسل الملك السبئي " نشأ كرب يهنعم " قوة من الجيش ومن الاهالي للاغارة عليهم في مضاربهم (ارض العرب) ولاسترجاع ماأخذوه من غنائم وأسلاب واسرى ، وقد رجعت الحملة سالمة ٠ ومن الواضح ان (ارض عربن) تشير هنا الى اعراب البادية المتنقلون الرحل والذين لم يكن لهم موطنا محددا ولا اسما معينا ، وذلك بعكس القبائل المستقرة في اليمن والتي كانت تذكر بأسماء قبائلها ومواطنها ٠

٣ ــ دولة سبأ وذى ريدان

اتخذ ملوك سبأ في هذا العهد لقب جديد وهو " ملوك سبأ وذى ريدان " وذلك اشارة الى ضم ذى ريدان الى مملكة سبأ ٠ الا انه لا يمكن الجزم بذلك ، فقد ظل للريدانيين كيانهم الى جانب دولة سبأ ، مما قد يرجع فيما يرى الاستاذ الدكتور مصطفى العبادى ان ذلك يعني تحالفا بين سبأ وقبائلها وكيان ذى ريدان وحمير ٠

وقد اختلف المؤرخون حول بداية هذا العهد ، فيتجه اغلب العلماء الى ان ذلك كان في حوالي عام ١١٨ أو ١١٥ أو ١٠٩ ق٠م ، الا ان البعض يتجه الى الاعتقاد بأن ذلك اللقب لم يظهر الا في اواخر القرن الاول قبل الميلاد ٠

وتتميز هذه المرحلة من الناحية الداخلية بالاضطراب وعدم الاستقرار وكثرة الحروب الداخلية ، وأدى ذلك الى تهدم المدن وتخريب القرى وعدم الاهتمام بوسائل الرى مما حول الكثير من الاراضي الزراعية الى صحارى مجدبة ٠ وتوجد من هذا العصر الكثير من النصوص التي يتوسل فيها الاهالي الى الآلهة بأن تمنّ عليهم بنعمة الطمأنينة والهدوء والاستقرار ، وكان من نتائج هذه الحروب انتشار الاوبئة والامراض التي كانت تفتك بالناس بالجملة ٠

واول ملوك هذا العصر هو " الشرح يحضب " ، وتشير النقوش المتبقية من عهده ، أنه كان مقاتلا خاض العديد من الحروب حتى قبل ان يصبح

ملكا ، استمرت الحروب للتنافس على العرش بينه وبين " شمر " وهو من حمير ، ولقد تدخل الاحباش في هذا الصراع الداخلي ، ولم تكن لهم سياسة ثابتة ، فقد كانوا يغيرون سياستهم تبعا للاحوال المتغيرة ، فنراهم مرة مع الحميريين وتارة عليهم ، وكان ذلك نتيجة للاحوال القلقة المضطربة التي كانت تتحكم في العربية الجنوبية آنذاك ، ولمصالح الحبش الذين كانوا يريدون تثبيت اقدامهم في السواحل العربية المقابلة وتوسيع رقعة مايملكونه باستمرار .

وينسب الى الشرح يحضب تشييد قصر غمدان في صنعاء ، وقد ذكر هذا القصر في نصوصه مع قصر سلحين ، وقد يشير ذلك الى اقامته في القصرين وحكم منهما . وقد لمع اسم (صنعو) اي (صنعاء) في ايام الشرح يحضب ، وهي لا بد ان تكون قد بنيت قبل عهده ، وكان لتشييده قصره فيها أثره في زيادة مكانتها ، حتى صارت عاصمة اليمن ومقر الحكام .

ومن الناحية الخارجية ، فلقد تعرضت سبأ خلال هذا العهد للحملة الرومانية التي قام بها اليوس جالوس حاكم مصر الرومانية عام ٢٤ ق.م، وذلك بهدف الاستيلاء على اليمن للسيطرة على طرق التجارة التي كان يحتكرها السبئيون ، فقد تمكنت بحكم موقعها من التحكم في نقل السلع الآتية من الهند وافريقيا الشرقية الى الشمال، وذلك بالاضافة الى تصدير ماتنتجه بلاد الجنوب العربي من محاصيل الى الشمال ، ومثلت هذه التجارة والطرق التجارية مصدر ثروة اليمن .

واعتمد اليوس جالوس في حملته على مساعدة الانباط له ، الا ان الحملة فشلت فشلا ذريعا ، ولم تحقق أغراضها ، اذ تعرضت للامراض

والاوبئة والجوع والعطش ووعورة الطرق ، ولقد وصف سترابو الذى يبدو انه قد رافق الحملة ، ماتعرضت له الحملة وصفا دقيقا ، الا انه ألقى بتبعة فشل الحملة على كاهل الوزير النبطي "صالح" الذى رافق الحملة وعمل دليلا لها .

وكان لفشل الحملة اثره في عزوف الرومان عن السيطرة على بلاد العرب بطريق القوة ، واقتصروا على محاولة السيطرة على التجارة البرية ، وتدعيم مصالحهم التجارية عن طريق تحسين علاقاتهم السياسية بالدول العربية والامارات في الجنوب العربي .

دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت :

يبدأ هذا العهد من حوالي عام ٣٠٠ ويستمر حتى عام ٥٢٥ م ويشير اتخاذ الملوك لهذا الاسم على ان دولة سبأ وذى ريدان اصبحت تضم اليها حضرموت وكذلك يمنت ، وهي في رأى غالبية العلماء تشمل المنطقة الجنوبية الغربية من بلاد العرب ، من باب المندب وحتى حضرموت .

وأول ملوك هذه الدولة هو "شمر يهرعش" ولقد نسب اليه القيام بالكثير من الفتوحات في العديد من البلدان ، حتى قيل انه وصل حتى الصين وأخضع فارس وخراسان والشام ومصر ، ومن الواضح ان ذلك نوعا من المبالغة ، اذ لا تثبت الادلة النصية والاثرية في منطقة الشرق الادنى القديم حدوث مثل هذا العمل ، ولكن يبدو ان هذه المبالغة ترجع الى قيامه بالعديد من الفتوح في جنوب بلاد العرب ، مما دعا الاخباريين العرب الى المبالغة في أمر فتوحاته .

وبعد وفاته تمكن الاحباش من احتلال اليمن في سنة ٣٤٠ م، واخذ نجاش الحبشة لقب "ملك أكسوم وحمير وذو ريدان والحبشة وسبأ وصلح وتهامة والبجاء وكسو"، وربما كان هذا الاحتلال الحبشي لليمن راجعا في المقام الاول للعوامل الاقتصادية، وذلك لحماية التجارة الحبشية كرد فعل للغزو الذى قام به ملوك حمير للسواحل الشرقية للحبشة.

ونظرا لحدوث بعض الثورات في المناطق الافريقية لملك الحبشة وانشغال الاحباش بالقضاء على هذه الثورات، فلقد انتهز اليمنيون الفرصة وطردوا الاحباش من اليمن وذلك فيما بين عامي ٣٧٠، ٣٧٨ م.

وكان لاعتناق آخر ملوك سبأ "ذو نواس" الدين اليهودى ومحاولته فرضه بالقوة على شعبه، واضطهاده للمسيحيين، أثره في تشجيع الاثيوبيين على غزو اليمن واحتلالها عام ٥٢٥ م وذلك بتشجيع من الدولة البيزنطية.

وأدت هذه الاحوال المضطربة الى توقف التجارة العالمية التي اشتهر بها عرب الجنوب وكان مصدر ثرائهم وازدهارهم ورخائهم، ويضاف الى ذلك تصدع سد مأرب مما أدى الى ضعف هذه المنطقة ضعفا شديدا، وفي عام ٥٧٥ م تمكن الفرس من احتلال اليمن، وظل اليمن خاضعا لهم حتى ظهور الفتوحات الاسلامية الكبرى في القرن السابع الميلادى التي أنهت دولتهم.

مكـــة المكرمـــة

تعتبر مكة المكرمة من اهم مواضع الحضر في الحجاز على الاطـــــلاق• ويتسم مناخها بقسوته ، اذ تشرف عليها جبال جرد ، وليس بها ماء ، غير مـــاء زمزم • لذلك لم تصلح ارض مكة لأن تكون ارضا ذات نخيل وزرع وحب ، ونتيجة لذلك فقد اعتمد سكانها على التعيش مما يكسبونه من الحجاج ، بالاضافة الـى العمل بالتجارة • وتتميز مكة بموقعها الجغرافي ، اذ تتجمع بها القوافل التي ترد من العربية الجنوبية تريد بلاد الشام ، او القادمة من بلاد الشام تريـــد العربية الجنوبية ، ثم مالبث اهلها ان اقتبسوا من رجال القوافل السفـــــر وفائدته ، فعملوا بالتجارة ، ثم احتكروا التجارة في العربية الغربية وسيطروا على حركة النقل في الطرق المهمة التي تربط اليمن ببلاد الشام والعراق وذلك فـي القرن السادس م •

هذا ولم يرد اسم مكة في الكتابات الجاهلية ، اما الموارد التاريخيـــة المكتوبة باللغات الاعجمية ، فقد جاء في كتاب (جغرافيا) لبطليموس الـذى عاش في القرن الثاني الميلادى ، اسم مدينة دعيت بـ (مكربة) (مكربا) ، وقـد ذهب الباحثون الى ان المدينة المذكورة هي (مكة) • واذا كان هذا الـــرأى صحيحا يكون (بطليموس) اول من اشار اليها من المؤلفين وأقدمهم • كذلـك ذهب بعض الباحثين الى ان المعبد الشهير الذى ذكره (ديودور الصقلي) في ارض قبيلة عربية دعاها (Bizomeni) وقال انه مكان مقدس لـــه حرمة وشهرة بين جميع العرب ، هو مكة ، وان كان هناك من يعارض هذا الرأى استنادا الى ان الموضع الذى يقع المعبد فيه ، هو موضع بعيد عن مكة بعدا

كبيرا ٠ اما الاخباريون فانهم لم يشيروا الى هذا الاسم الذى ذكره (بطليموس) ، ولا الى اسم آخر قريب منه ، وانما اشاروا الى اسم آخر هو (بكة) ٠ وقد ذكر هذا الاسم في القرآن ٠ قالوا انه اسم مكة أبدلت فيه الميم باء ٠ وقد اتجه بعض الاخباريين الى القول ان المقصود ب (بكة) بطن مكة ، وذهب آخرون ان بكة موضع البيت ، ومكة ماوراءه ، وقال فريق ثالث ان البيت هو مكة وماوالاه بكة ٠ وقد عرفت مكة عند الاخباريين ايضا بأسماء اخرى منها : صلاح ، لأمنها ، ومنها أم رحم ، وذكرت في القرآن الكريم ب (أم القرى) ٠

ويختلف المؤرخون في اشتقاق كلمة (مكة) ، فذهب فريق منهم الى انها انما سميت كذلك لانها تمسك الجبارين ، اى تذهب نخوتهم ، وذهب فريق ثان الى انها انما تقع بين جبلين مرتفعين عليها ، وهي في هبطة بمنزلة المكوك ، وذهب فريق ثالث الى ان الكلمة مشتقة من (أمتك) من قولهم : أمتك الفصيل ضرع أمه ، اذا مصه مصا شديدا ، ولما كانت مكة مكانا مقدسا للعبادة ، فقد امتكت ، اى جذبتهم من جميع الاطراف ٠ وهناك من يرجح ان الاسم انما أخذ من لغة الجنوب ، مستندا الى البيت الحرام ، فمكة او (مكرب) في رأى هذا الفريق — كلمة يمنية مكونة من "مك" و "رب" ومك بمعنى بيت ، فتكون مكرب بمعنى "بيت الرب" او "بيت الاله" ومن هذه الكلمة اخذت مكة ، او بكة — بقلب الميم باء على عادة اهل الجنوب ٠ وفيما يتصل بتاريخ مكة فقد ذهب بعض الاخباريين الى ان (العماليق) كانوا قد انتشروا في البلاد فسكنوا مكة والمدينة والحجاز ، وعتوا عتوا كبيرا ، فبعث اليهم موسى جندا فقتلوهم بالحجاز ٠ وجاء اليهود فاستوطنوا الحجاز بعد العماليق ثم جاءت (جرهم) فنزلت على (قطورا) اسفل مكة — وكان عليها يومئذ (السميدع بن هوثر) ، ثم لحق بجرهم بقية من قومهم باليمن وعليهم (مضاض

ابن عمر) فنزلوا بـ " قعيقعان " بأعلى مكة ، ثم حدث تنافس بين الزعيمين فاقتتلا ، فتغلب (المضاض) وغلب (السميدع) . وجرهم قوم من اليمن قحطانيون ، جدهم هو ابن (يقطن بن عامر) وهم بنو عم (يعرب) وكانوا باليمن وتكلموا بالعربية ثم غادروها فجاءوا مكة . ومن جرهم تزوج سيدنا (اسماعيل بن ابراهيم) وكانت هاجر قد جاءت به الى مكة ، فلما شب وكبر وتعلم لغة جرهم وتكلم بها ، تزوج امرأة اولى قالوا ان اسمها (جرا) ثم طلقها وتزوج بامرأة اخرى هي السيدة بنت (الحارث بن مضاض) . وعاش نسله في جرهم ، والامر على البيت لجرهم الى ان تغلبت عليهم (بنو حارثة بن ثعلبة) وهم خزاعة ، فانتزعت منها الملك وزحزحتها ، وأقامت عمرو بن لحي – وهو منها – ملكا عليها ، وظلت خزاعة صاحبة مكة ، الى ان كانت ايام عمرو بن الحارث وهو (ابو غبشان) فانتزع قصي منه الملك واخذه من خزاعة لقريش . وكان (عمرو بن لحي) اول من نصب الاوثان وادخل عبادة الاصنام الى العرب ، بعد ان كان اسماعيل بن النبي ابراهيم – عليه السلام – يدعو الناس في مكة ومجاوراتها الى عبادة الله .

ويعد (عمرو بن لحي) اول رجل يصل الينا خبره من الرجال الذين كان لهم أثر في تكوين مكة وفي انشاء معبدها وتوسيع عبادته بين القبائل المجاورة لها . حتى صار لهذه المدينة شأن عند القبائل المجاورة وذلك لاتيانه بأصنام نحتت نحتا جيدا بأيد فنية قديرة ، وعلى رأسها الصنم (هبل) ووضعها في البيت ، فجلب بذلك انظار اهل مكة وانظار القبائل المجاورة نحوها ، فصارت تقبل عليها ، وبذلك كوّن للبيت شهرة بين الاعراب ، فصاروا يقدمون عليه للتقرب الى (هبل) والى بقية الاصنام التي جاء بها من الخارج فوضعها حوله وفي جوفه .

والجدير بالذكر ان تاريخ مكة حتى ظهور قصي بن كلاب غامض غموضا شديدا ولا سيما في عصوره الجاهلية القديمة وذلك لعدم وجود نصوص أثرية تعين الباحث على استنباط تاريخ قائم على اسس علمية ، ولذا فان تاريخ مكة يعتمد في هذه الفترة على روايات الاخباريين المتناقضة المتضاربة و(قصي ابن كلاب) هذا من قريش ، وقريش كلها من نسل رجل اسمه فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فهي من القبائل العدنانية ، اى من مجموعة العرب المستعربة في اصطلاح علماء النسب ، و(قصي) كان زعيم قريش ومكة بأسرها ثم اورثت الى اولاده من بعده ، فصارت قريش بذلك صاحبة مكة . وقد اشتهرت قريش بالتجارة ، وبها عرفت وذاع صيتها بين القبائل ، وتمكن رجالها من الاتصال بالدول الكبرى في ذلك العهد : الفرس والروم والحبشة ، وحكومة الحيرة والغساسنة وسادات القبائل وتكوين علاقات طيبة معها ، كما تمكنوا من عقد احلاف مع سادات القبائل ضمنت لهم السير طوال ايام السنة بهدوء وطمأنينة في كل انحاء الجزيرة فنشروا تجارتهم في جميع ربوعها . وقد علمت الاسفار سادة قريش امورا كثيرة من امور الحضارة والثقافة ، فقد جعلتهم يشاهدون بلادا غريبة ذات تقدم وحضارة ، وجعلتهم يحتكون بعرب العراق وبعرب بلاد الشام ، فتعلموا من الحيرة اصول كتابتهم ، وهذبوا لسانهم ، ودونوا به امورهم . وقد علمت الطبيعة اهل مكة انهم لا يتمكنون من كسب المال ومن تأمين رزقهم في هذا الوادى الجاف ، الا اذا عاشوا هادئين مسالمين ، يدفعون الاساءة بالحسنة ، فصار التاجر والبائع والمشترى يفد على سوق مكة ، يبيع ويشترى بكل حرية ، لانه في بلد آمن ، اخذ سادته على انفسهم عهدا بألا يتعدى احد منهم على غريب — لأن الاضرار به يبعد الغرباء عنهم — وبذلك تحرم مكة من التجارة التي هي اساس حياتها . وقد اصطلحت قريش على ان تأخذ ممن ينزل عليها في الجاهلية حقا ، دعته (حق قريش) ، وفي جملة ماكانوا يأخذونه من الغريب

القادم اليهم بعض ثيابه او بعض بدنته التي ينحر ·

وقد تمكنت قريش في نهاية القرن السادس وبفضل نشاطها التجاري ان تصبح من أهم المراكز المرموقة في العربية الغربية في التجارة ، وفي اقراض المال للمحتاج اليه ، كما تمكنت من تنظيم أمورها الداخلية ومن تحسين شؤون المدينة ·

اما عن (قصي بن كلاب) فقد قام بعدة اصلاحات في مكة ، فبعد ان جمع القرشيين المبعثرين في نواحي متعددة الى وادي مكة ، جعل لكل بطن حيا خاصا به على مقربة من الكعبة ، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام ، فيتعهدونه بالصيانة ، ويدفعون عنه الخطر ، ومن ثم فانه لم يترك بين الكعبة والبيوت التي بنتها بطون قريش ، الا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف ، وان كان اهم اعماله انما هو انشاؤه (دار الندوة) حيث كان يدار فيها تحت رئاسته كل أمر قريش — ما أرادوه من حرب او تجارة او مشورة او نكاح ، فما كان لرجل ولا لامرأة ان يتزوج الا فيها ، وما كان لفتاة من قريش ان تدرع الا فيها ، ومن ثم فقد كان على صاحب الدار ان يشق درعها بيده ، وكان القوم يفعلون ذلك ببناتهم اذا بلغن الحلم ، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش — ذكورا كانوا أم اناثا — وأما اعضاء دار الندوة ، هؤلاء ، فكانوا جميعا من ولد قصي ، وبعضا من غيرهم ، على شريطة ان يكون الواحد منهم قد بلغ الاربعين من عمره ، او كان من ذوي القدرات الخاصة · وهكذا كانت دار الندوة بمثابة دار مشورة ودار حكومة في آن واحد ، يديرها الملأ من القوم — الذين كانوا يشبهون الى حد ما اعضاء مجلس الشيوخ الاثينيي ، ويتكونون من رؤساء العشائر واصحاب الرأي والحكمة فيهم للنظر فيما يعترض القوم من صعاب ·

وكان قصي شديد العناية بعمارة البيت الحرام ، الذى يزعم البعض انه أعاد بناءه ، ومن ثم فهو اول من جدد بناء الكعبة من قريش ، ثم سقفها بخشب الدوم وجريد النخل ، كما كان اول من اظهر الحجر الاسود بعد ان دفنته (اياد) في جبال مكة ، ثم أوكل امره من بعده الى جماعة من قريش ، حتى اعاد القوم بناء الكعبة عام ٦٠٦م (٣٥ ق.هـ) فوضعوه في ركن البيت بازاء باب الكعبة في آخر الركن الشرقي .

ولعل من اهم اعمال قصي انه جعل وظيفة (سدانة الكعبة) ـ وهي خدمة البيت الحرام ـ من اهم الوظائف في عهده ، والامر كذلك بالنسبة الى وظيفة " السقاية " بخاصة في بلد شحت مياهه في وقت كان يستقبل فيه اكثر مما يطيق من الحجيج ، ومن ثم فقد كان على صاحب السقاية توفير المياه لزوار البيت الحرام ، حتى ييسر لهم مهمة الحج ، ويجعل الاقبال عليه كبيرا ، ومن ثم يذهب الاخباريون الى ان قصيا قد حفر بئرا اسماها " العجول " ، وكانت (الرفادة) ـ وهي خرج تدفعه قريش من اموالها الى قصي ليصنع منه طعاما للحجاج ممن لم يكونوا على ميسرة ـ من الوظائف الهامة التي ظهرت في مكة على ايام قصي . وتروى المصادر العربية ان قصيا قال لقومه : " انكم جيران الله واهل بيته واهل الحرم ، وان الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا ايام الحج حتى يصدوا عنكم " ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون من اموالهم فيصنع به الطعام ايام " منى " ، فجرى الامر على ذلك في الجاهلية والاسلام ، واخيرا كان من اعمال قصي " اللواء " وهي رئاسة الجيش في الحروب ـ ويسند لمن بيده ، اللواء ، يسلمونه اليه عند قيام الحرب . وتجمع المصادر الاسلامية على ان مولانا وسيدنا رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد ألغى جميع هذه المناصب يوم فتح مكة ، الا سقاية

الحاج وسدانة الكعبة . ويجمع المؤرخون على ان قصيا انما ظل يمسك بهذه الوظائف جميعا حتى وفاته ، كما ظل كذلك الرجل الوقور المطاع في قومه ، لا يخالف ، ولا يرد عليه شيء أقره ، ولعله في جمعه لرياسة الندوة وعقد اللواء وجمعه الرفادة ، يقابل في اصطلاحاتنا الحديثة ، رياسة السلطات التشريعية والحربية والمالية — ان جاز هذا التعبير .

ولعل هذا هو الذي دفع " الاب هنرى لامانس " الى القول ، بأن مكة انما كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية ، وقد يكون لشخصية (قصي) الفذة تأثير في ذلك ، الا ان تنظيمات قريش لم تكن في واقع الامر ، الا تنظيما قبليا في جوهره وان بدا في ظاهره تنظيما جمهوريا ، لأن الزعيم لم يكن يحمل لقبا معينا ، فضلا عن أن هنالك من الادلة مايشير الى ان العشيرة انما كانت تتمتع بحرية كاملة ، ولا تخضع لسلطان غيرها في كثير من الاحايين ، بل ان كثيرا من الافراد انما كانوا يخرجون على رأى العشيرة نفسها ، ومن النوع الاول عدم مشاركة بني زهرة لقريش في موقعة بدر رغم موافقتها على القتال وخروجها اليه ، بل ان بني عدى لم يخرجوا للقتال اصلا ، ومن النوع الثاني خروج ابو لهب على رأى بني هاشم ، وانضمامه الى بقية بطون قريش في مقاطعتها لبني هاشم ، وبقاء العباس على علاقاته الودية ببطون قريش ، رغم تضامنه مع بني هاشم ، هذا الى جانب ان العشيرة انما كانت تخرج احيانا على رأى مجلس القبيلة ، ومثال ذلك اجتماع بني هاشم والمطلب على حماية المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ومواجهة قريش . ويرى الدكتور طه حسين ، انه من العسير ان نحدد لمكة نظاما من نظم الحكم التي يعرفها الناس ، فلم يكن لها ملك ، ولم تكن جمهورية ارستقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة ، ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة ايضا ، ولم

يكن لها طاغية يدير امورها على رغمها ، وانما كانت قبيلة عربية احتفظت بكثير من خصائص قبائل البادية ، فهي منقسمة الى احياء وبطون وفصائل . والتنافس بين هذه جميعا قد يشتد حينا ويلين حينا آخره ولكنه لا يصل الى الخصومات الدامية ، كما هو الحال في البادية،وامور الحكم ، تجرى كما تجرى في البادية ، وكل ماوصلت اليه قريش من التطور في شئون الحكم هو انها لم يكن سيد او شيخ يرجع اليه فيما يشكل من الامره وانما كان لها سادة او شيوخ يتكون منهم مجلس يجتمع في المسجد الحرام او في دار الندوة .

اما قانون اهل مكة ودستورهم فهو : (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) . فهم محافظون حريصون على كل ماوصل اليهم ، لا يريدون له تغييرا ولا تبديلا ، مهما بدا لهم في الجديد من منطق وحق ، فملأ مكة اناس محافظون لا يقبلون تجديدا ولا تطويرا ، سنتهم التعلق بالماضي وكره الثورة والخروج عن العرف والعادة مهما كانت . فالعرف جرى الناس عليه ، فلا خروج على العادة والعرف . اما المستهين بالعرف المخالف لسنة الآباء والاجداد ، فيعاقب حتى يعود الى رشده وصوابه . وهم باستماتتهم في التمسك بالماضي كيف كان ، وبتطرفهم في المحافظة على العرف ، انما يراعون بذلك حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية ، فالعرف جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد المحافظة على مصالحها ، استنادا الى العادات . هم يحكمون بهذا القانون الموروث غير المسجل ، وعلى الناس الطاعة والانقياد .

ومن الناحية المعمارية فقد طرأ تغيير في نظام بيوت مكة في هذا العهد ، فقد اصبحت بيوت اثريائها وساداتها مقامة بالحجره وبها عدد من الغرف ، ولها بابان متقابلان ، باب يدخل منه الداخل ، وباب يقابله يخرج

منه الخارج ، ولعلها بنيت على هذا الوضع لتتمكن النساء من الخروج من الباب الآخر عند وجود ضيوف في رحبة الدار عند الباب المقابل ، وكان لبعض الدور (حجر) عند باب البيت يجلس تحته ليستظل به من اشعة الشمس . هذا ولم تعمر بطن مكة ولم تبن البيوت المستقرة فيه الا منذ ايام (قصي) اما قبل ذلك فقد كان الناس يسكنون (الظواهر) : ظواهر مكة ، اى اطرافها وهي مواضع مرتفعة تكون سفوح الجبال والمرتفعات المحيطة بالمدينة ، اما باطن مكة وهو الوادى الذى فيه البيت ، فقد كان حرما آمنا لا بيوت فيه ، او ان بيوته كانت قليلة حصرت بسدنة البيت وبمن كانت له علاقة بخدمته لذلك بنيت فيه الشجر حتى غطت سطح الوادى ، من السيول التي كانت تسيل اليه من الجبال .

ولما مات (قصي) دفن (بالحجون) وقد كان القوم يزورون قبره ويعظمونه ، والحجون جبل بأعلى مكة ، كان اهل مكة يدفنون موتاهم فيه ، فعليه مقبرة جاهلية من مقابر مكة القديمة ، وقد ذكر في شعر جاهلي .

هذا وقد أنجب (قصي) ثلاثة ابناء — عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى — ورغم ان عبد الدار كان اكبر اخوته ، الا ان عبد مناف كان اكثر شهرة ، وأرفع شأنا واعظم مهابة ، ومن ثم فقد رأى قصي ان يعوض عبد الدار عما فقده من مقومات الزعامة ، فأسند اليه كثيرا من الوظائف ليقاوم شخصية اخيه القوية . ومن هذه الوظائف انه جعل له دار الندوة والحجابة (اى حجابة الكعبة واللواء ، فكان يعقد لقريش ألويتهم ، وسقاية الحجيج والرفادة . وما ان تمضي الايام ويرث الابناء الآباء ، حتى يقوم النزاع بينهم ، وينتهي ذلك بأن يتولى عبد المناف السقاية والرفادة ، اما الحجابة واللواء ورياسة دار الندوة فقد ظلت في بنو عبد الدار . وتولى هاشم بن عبد المناف السقاية

والرفادة ، وقد ذكرت رواية الاخباريين ان اسمه (عمرو) وهو أكبر ابناء عبد مناف ، وقد قيل له هاشم ، لانه اول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه . وذكر ان قومه من قريش كانت قد اصابتهم لزبة وقحط ، فرحل الى فلسطين فاشترى منها الدقيق ، وقدم به الى مكة ، وبذل طعامه لكل نازل بالبلد المقدس او وارد عليه . كذلك يذكر الاخباريون انه هو اول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف ، وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات انه كان يحمي تلك الرحلات وينظمها ، فنسب اليه انه اول من سنها . وقد قام (هاشم بن عبد المناف) بحفر بئرا عرفت ب (بذر) ، وبئرا آخر يقال لها بئر (جبير بن مطعم) فيسر بذلك لمكة الماء ، وساعد على اكثاره عندهم ، واخذ (هاشم) عهدا على نفسه بأن يسقي الحجاج ويكفيهم بالماء ، قربة الى رب البيت مادام حيا .

ومن اعظم المآثر التي تنسب (لهاشم بن عبد المناف) انه عقد بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع امير غسان ، معاهدة حسن جوار ومودة ، وحصل من الامبراطور الروماني على الاذن لقريش بأن تجوب الشام في أمن وطمأنينة ، وقد ذكر ان تجارته قد وصلت الى (غزة) وربما توغل نحو الشمال ، حتى زعم اهل الاخبار انه ربما بلغ (أنقرة) .

وينسب كذلك الى (هاشم بن عبد المناف) ايلاف قريش والمقصود بالايلاف عهود ومواثيق مع سادات القبائل في مقابل اسهامهم بأموالهم وبحمايتهم لقوافل قريش في مقابل ضرائب معينة تدفع لهم ، وسهاما من الارباح تؤدى لهم ، مع اعطائهم رؤوس اموالهم وماربحته في الاسواق ، وبذلك كسبت قريش حياد هذه القبائل ودفاعها عن المصالح . كذلك فقد عقد نوفل والمطلب حلفا مع فارس ، ومعاهدة تجارية مع الحميريين في اليمن . ويذهب الاخباريون الى ان هاشما وعبد شمس توأمان ، وان احدهما ولد قبل الآخر

واصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه ، فنحيت فسال الدم ، فقيل يكون بينهما دم ، ومن ثم فانهم يرون ان أمية بن عبد شمس قد حسد هاشما على رياسته واطعامه فتكلف ان يصنع مثله ، ولكنه قد عجز ، ومن ثم فقد شمت به ناس من قريش وتنافر هو وهاشم ، وانتهى الامر بجلاء أمية عن مكة عشر سنين ، فكان ذلك اول خلاف بين بني هاشم وبني أمية ، وفي الواقع كما يقول الاستاذ العقاد ، فلقد كان بنو هاشم اصحاب عقيدة وأريحية ووسامة ، وكان بنو أمية اصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء ، وينعقد الاجماع — او مايشبه الاجماع — على اخبار الجاهلية التي تنم على هذه الخصال في الأسرتين ، وبقي الكثير منها الى مابعد قيام الدولة الأموية فلم يفندوه .

وورث عبد المطلب زعامة ابيه هاشم، واسم عبد المطلب هو (شيبة) وقد عرف بين الناس بعبد المطلب ، لأن عمه (المطلب) لما حمله من يثرب الى مكة ، كان يقول للناس ، هذا عبدى ، او عبد لي ، فسمي من ثم بعبد المطلب ، وشاعت بين قومه من اهل مكة حتى طغت على اسمه ، وقيل انه عرف بين اهل مكة ب (شيبة الحمد) لكثرة حمد الناس له ، وكان يقال له (الفياض) لجوده ، و (مطعم طير السماء) لانه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش على رؤوس الجبال . هذا وقد تولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب فأقامها للناس ، واقام لقومه ماكان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرف في قومه شرفا لم يبلغه احد من آبائه ، وأحبه قومه ، وعظم أمره فيهم . وفي الواقع ان عبد المطلب لم يكن عظيما عند قريش فحسب ، وانما كان عظيما كذلك في جميع انحاء شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم فان المؤرخين يرون انه قد ذهب الى اليمن مهنئا بالملك ، عندما تولى "معد يكرب" (سيف بن ذى يزن) عرش اليمن ، بعد ان نجح بمساعدة الفرس في طرد الاحباش من اليمن ، مما يدل على ان الرجل كان ذو مكانة عند ملوك العرب ، تعطيه الحق في الاتصال بهم ،

ثم تهنئتهم بعروشهم ، كما يدل في الوقت نفسه على مكانته عند قريش ، حتى انه كان رئيسا لوفدها في هذه المهمات العظيمة ، والتي ربما كان من نتائجها ان يأخذ ايلافا لقومه من ملوك اليمن ، ومن ثم فقد اصبحت قريش تنظم عيرا الى اليمن في كل عام .

هذا وتذهب المصادر العربية الى ان عبد المطلب قد لقي الكثير من المتاعب في توفير المياه للحجيج عندما تولى أمر السقاية والرفادة ، وذلك بسبب دفن زمزم ، ربما منذ ايام جرهم ، وزاد الامر صعوبة ان مكة كانت آنذاك تمر بفترة قاسية ندرت فيها الامطار وجفت مياه الآبار — او كادت — في وقت كان موسم الحج قد بدت طلائعه ، وهنا رأى عبد المطلب — فيما يرى النائم — انه يؤمر بحفر طيبة ، وحين يسأل عنها لا يتلقى جوابا . غير ان الرواية تتكرر اياما ثلاثة ، يؤمر فيها عبد المطلب بحفر "برة" ثم (المضنونة) ثم (زمزم) ، وحين يسأل عبد المطلب عن (زمزم) يجيبه "الهاتف" تراث من ابيك الاعظم ، لا تنزف ابدا ولا تذم ، تسقي الحجيج الاعظم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الاعظم عند قرية النمل " ، وينجح عبد المطلب في حفر زمزم ، غير ان قريشا سرعان ماتطالب بحقها في زمزم ، على اساس انها بئر ابيهم اسماعيل ، وان انتهت الامور الى جانب عبد المطلب .

هذا وقد تميز عبد المطلب — جد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم — بأريحة لا نستطيع ان نسميها الا بالمطلبية ، أريحة فريدة في نوعها ، لا تدل الا عليه ولا تصدر الا منه ، وكانت كلها مزيجا من الأنفة والكرم والرصانة والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر واناة ، وذكر عنه انه كان يأمر اولاده بترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الاخلاق ، وينهاهم عن دنيات الامور ، وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه ، وان وراء هذه الدار

دارا آخرى يجزى فيها المحسن باحسانه ، ويعاقب المسيء باساءته ، ويقال انه رفض في آخر عمره عبادة الاصنام ووحد الله ، وروى انه وضع سننا وردت فيما بعد في القرآن الكريم وأقرتها سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – منها الوفاء بالنذر وتحريم الخمر والزنا ، وان لا يطوف بالبيت عريان ، وذكر انه كان اول من سن دية النفس مئة من الابل ، وكانت الدية قبل ذلك عشرا من الابل ، فجرت في قريش والعرب مئة من الابل ، وأقرها رسول الله على ماكانت عليه . والجدير بالذكر ان عبد المطلب لم يكن أغنى رجل في قريش ، ولم يكن سيد مكة الوحيد المطاع كما كان قصي ، اذ كان في مكة رجال كانوا اكثر منه مالا وسلطانا ، انما كان وجيه قومه ، لانه كان يتولى السقاية والرفادة وبئر زمزم ، فهي وجاهة ذات صلة بالبيت . ويروى اهل الاخبار ان عبد المطلب كان قد نذر: لئن اكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم ان يذبح احدهم . فلما تكاملوا عشرة ، هم بذبح احدهم ، فضرب بالقداح فخرج القداح على عبد الله ، ولكن القوم منعوه ، ثم اشاروا عليه بأن يرضي الله بنحر ابل فدية عنه ، وكان كلما ضرب القداح يخرج على عبد الله حتى بلغ العدد مئة فخرج على الابل ، فنحرها بين الصفا والمروة ، وتركها في الفضاء لكل من يريد لحمها من انسي او وحش او طير .

وتعد حملة (ابرهة الحبشي) من اهم الاحداث التي وقعت في حياة عبد المطلب ، وقد أرخت قريش بوقوعها ، وصارت الحملة مبدأ التاريخ ، لاهميتها بالنسبة لمكة ، وقد تركت اثرا كبيرا في نفوس قريش ، بدليل تذكير القرآن الكريم لهم بما حل ب (اصحاب الفيل) . وقد اشار عبد المطلب على قومه بالتحرز بشعاب الجبل ، ويترك البيت وشأنه لأن للبيت ربا يحميه ، وبعدم التحرش بالحبش وتركهم وشأنهم ، والظاهر انه وجد ان عدد الاحباش كان كبيرا وان من غير الممكن مقاومتهم والدفاع عن مكة في الوادي ، ثم انها حرم

آمن لا يجوز القتال فيه ، وليس فيها حصون وآطام يتحصن بها ، لهـــذا رأى ضرورة الرحيل عن الوادى والاحتماء برؤوس الجبال والاشراف منها علـــى الدروب والطرق ، فذلك أنفع وأحمى للمال والنفس ، ثم انه من الممكن مباغتـة الحبش منها ومهاجمتهم وانزال الخسائر بهم حين يشاؤون ويقررون ، وقـــد نجحت فكرة عبد المطلب ، ولم يصب اهل مكة بسوء . اما البيت الحرام فقـــد حماه الله من اصحاب الفيل وهلكوا جميعا .

ومات عبد المطلب بعد ان جاوز الثمانين وكان ذلك في حوالي عـام ٥٧٨ م ، وقد دفن بالحجون وذكر انه لم يقم بمكة سوق أياما كثيرة لوفـــــاة عبد المطلب ، ومن ولد عبد المطلب : عبد الله وهو والد الرسول ، وابو طالب والزبير ، وعبد الكعبة ، وعاتكة وبرة وأميمة .

ولم يكن ولد عبد المطلب من رجال مكة الاثرياء ، وكل ماكان عندهـم ثراء روحي ، استمدوه من اسم (قصي) وهاشم . فكانوا من وجهاء القوم من هذه الناحية ، اما من ناحية المادة والمال فلم يكونوا من السباقين فيه ، لقد كانـــوا وسطا ، وكانوا تجارا يخرجون بتجارتهم على عادة فيهم الى بلاد الشام، او الى اليمن ، فيبيعون ويشترون ، وقد توفي (عبد الله) وهو في طريقه من غزة الـــى مكة .

وتعد (ايام الفجار) من الحوادث المؤثرة في تاريخ مكة ، وقد سميت بذلك لانها كانت في الاشهر الحرم ، ويعد (فجار البراض) الذى وقع بعـد عشرين سنة من عام الفيل هو اعظم ايام الفجار ، وقد اطلق عليه ايضا (يـــوم نخلة) ، وكان البراض قد قدم باللطيمة الى مكة ، فأكلها وهي لطيمة (النعمان بن المنذر) ، التي وضع النعمان زمامها بيد (عروة بن عتبة الرحال) وكـــان سمي بالرحال لرحلته الى الملوك ، فكان ذلك مما أهاج الحرب ، وقـــد رأس

قريش حرب بن أمية ، وكان موضعه في القلب ، وعبد الله ابن جدعان فـي الميمنة ، وهشام بن المغيرة في الميسرة ، والتقوا بـ "نخلة" فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم ، وجن عليهم الليل ، فكان اليوم لهوازن . ثم رأس (الزبير بن عبد المطلب) بني هاشم ، وكان في جملة من شهد (حلف الفضول) فـي دار (عبد الله بن جدعان) ، وحلف الفضول من الاحداث الهامة التي يذكرها اهل السير والاخبار في تاريخ مكة ، واذا صح مايذكرونه من انه عقد بعد الفجار بشهور ، وفي السنة التي وقع فيها الفجار الذى حضره الرسول (فجار البراض) ومن ان الرسول حضره وهو ابن عشرين سنة ، فيجب ان يكون عقد هذا الحلف قد تم في حوالي السنة ٥٩٠ م ، ويذكر ان الذى دعا اليه هو الزبير بن عبد المطلب . وقد شهد حلف الفضول بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم ، وذكر انهم تعاهدوا على ان يكونوا مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه . وفي التآسي في المعاش ، كذلك تحالفوا الا يظلم احد بمكة الا قاموا معه حتى ترد ظلامته ، اما عن سبب تسمية هذا الحلف (بحلف الفضول) فقد ذكر البعض انه سمي بذلك لانهم تحالفوا ان يتركوا عند احد فضلا يظلمه احدا الا اخذوه له منه ، وذهب آخرون الى انه سمي بذلك الاسم تشبيها بحلف كان قديما بمكة ايام جرهم على التناصف والاخذ للضعيف من القوى والغريب من القاطن ، وسمي حلف الفضول ، لانه قام به رجال من جرهم كلهم يسمى الفضل ، فقيل حلف الفضول جميعا لاسماء هؤلاء ، وذكر انه سمي حلف الفضول ، لأن قريشا قالت هذا فضول من الحلف ، فسمي حلف الفضول . وقد ذكر الاخباريون ان هدف هذا الحلف انصاف المظلومين من اهل مكة ، من الضعفاء والمساكين ومن لا يجد له عونا يحميه ويدافع عن حقوقه ، وانصاف الغرباء الوافدين على مكة من حجاج او تجار ، ممن يعتدى عليهم فيأخذ اموالهم ويأكلها ولا يدفع لاصحابها عنها شيئا ، ويعتقد ان هذا الحلف استمر قائما الى وقت ما في الاسلام ، ثم فقد بعد ذلك قيمته ، فمات . فورد

انه كان بين (الحسين بن علي بن ابي طالب) وبين (الوليد بن عتبة بن ابي سفيان) منازعة في مال متعلق بالحسين ، فماطله الوليد . (فقال الحسين للوليد : احلف بالله لتنصفني من حقي او لآخذن سيفي ثم لأقومن بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون لحلف الفضول ، فلما بلغ ذاك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه) . وتدخل مكة بعد ذلك في طور جديد ببداية دعوة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم الى عبادة الاله الواحد الاحد ونبذ عبادة الاصنام .

المدينــة المنـــورة

كانت تعرف المدينة المنورة قبل هجرة النبي سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام باسم "يثرب". وتعددت الاشارات التي ظهر فيها هذا الاسم، وأقدم اشارة لدينا وردت في النصوص البابلية التي ترجع الى القرن السادس ق.م، وقد ورد فيها قيام الملك البابلي نبونيت (٥٥٥ - ٥٣٩ ق.م) بحملة الى بلاد العرب احتل فيها بعض المدن ومنها "اتريبو" وهي "يثرب".

وقد ورد اسم "يثرب" في جغرافية بطليموس تحت اسم "يثربه"، وعرفها الاخباريون باسم "أثرب" و "يثرب" ورأوا أنه نسبة الى "يثرب بن قانيه من ولد سام بن نوح"، بينما رأى آخرون أنها نسبة الى "يثرب" ابن قائد بن عبيل".

ولقد ورد اسمها في القرآن الكريم "المدينة" وفي ذلك قوله جل من علا في سورة التوبة (الآية ١٢٠) "ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه". ويتجه البعض الى القول بأن هذا الاسم مأخوذ من الكلمة الآرامية "مدينتا".

ولقد كثرت أسماء المدينة في العصر الاسلامي، ومن أهم هذه الاسماء التي عرفت بها "المدينة" و "يثرب" و "طيبه" و "العاصمة" و "المباركة" و "المختارة" و "المقدسة" و "قرية الأنصار" و "سيدة البلدان" و "دار الهجرة" و "بيت الرسول" و "مدينة الرسول".

وفيما يتصل بالتتبع التاريخي لتأريخ" المدينة" فان اعتمادنا بالدرجة الاولى يقع على روايات الاخباريين ، وذلك نظرا لعدم وجود أدلة أثرية أو نصية ترجع الى تاريخها القديم ، وذلك نظرا لعدم القيام بحفريات علمية في هذه المنطقة ، وعلى ذلك فانه تجدر الاشارة الى طبيعة المعلومات المستقاة من روايات الاخباريين وضرورة توخي الحذر فيما تقدمه من معلومات. وقد عثر في بعض الأماكن القريبة من "يثرب" على كتابات جاهلية لم تعرف طبيعتها ، وذلك نظرا لعدم دراستها دراسة علمية حتى الآن.

وتشبه "يثرب" "مكة" في كونها محرومة من الحماية الطبيعية ، فلم يكن يحيط بها سور أو حائط أو خندق يدفع المغيرين عليها ، ومن ثم فقد كان أهلها يدافعون عن أنفسهم بالتحصن في بيوتهم وبسد منافذ الطرق أثناء الخطر. أما الأغنياء الموسرون فكانوا يعتمدون على آطامهم وحصونهم وقصورهم ، يلجأون اليها عند الشدة ، ويرمون أعداءهم من فوق السطوح بالسهام والحجارة ، وقد تحارب الأوس والخزرج على الآطام ، وأرخوا بتلك الحرب ، فعرفت باسم "عام الآطام".

ويلاحظ أن جو يثرب ألطف من جو مكة ، ولم يعاني أهلها ماعانى أهل مكة من قحط في الماء ، فالماء متوافر بعض الشيء في المدينة ، وهو غير بعيد عن سطح الأرض ، ومن الممكن الحصول عليه بحفر الآبار ، ولهذا صار في امكان أهلها زرع النخيل واقامة البساتين والحدائق.

وحسب المعلومات المتاحة لنا فانه يمكن القاء الضوء على عناصر السكان الذين سكنوا المدينة وذلك حسبما ورد في روايات الاخباريين الذين يذكرون أنه تتابع على سكن المدينة العماليق ثم اليهود ثم العرب.

وفيما يتصل بالعماليق فيرجعون بنسبهم الى "عملاق بن أرفخشد بن سام" وينسبون لهم أنهم أول من زرع النخيل بالمدينة وأول من شيدوا فيهما المباني واتخذوا الضياع ·

أما عن اليهود فتعددت رواياتهم وتباينت تباينا كبيرا، فترى بعض الروايات أن وجودهم يرجع الى أيام سيدنا موسى عليه السلام الذى بعث جيشه الى سكان هذه المدينة من العماليق وأمرهم بقتل جميع سكانها، وأنه لأمر ما بقي هذا الجيش في المدينة ، وكانوا أول من سكنها من اليهود، الا أن هذا الرأى لا يحالفه التوفيق الى حد بعيد · وتذهب رواية ثانية الى أن موسى عليه السلام قد حج الى بيت الله الحرام ومعه بعض من بني اسرائيل، وعند عودتهم وجدوا في موضع المدينة أوصاف بلد النبي المذكور عندهم في التوراة بأنه خاتم النبيين ، وعلى ذلك فقد أقاموا في مكان سوق بني قينقاع ، وكانوا هم أول من سكن المدينة وهو أمر عار من الحقيقة كذلك ·

وتتجه بعض الآراء الى أن اليهود قد قدموا الى المدينة في عهد "داود عليه السلام" (١٠٠٠ ــ ٩٦٠ ق·م) وذلك نتيجة الانقسام الذى حدث بين داود وابنه أبشالوم ، وهذه الرواية تحريف لما جاء في التوراة عن الاحداث التي ذكرتها عن أخريات أيام داود ·

وهناك من يجعل هذا الوجود في القرن الثامن قبل الميلاد بعد سقوط السامرة في أيدى الاشوريين وذلك اعتمادا على ما قام به الأشوريون من تهجير عناصر السكان الى أماكن متفرقة من بلاد الشام والعراق وفارس، الا أنه يقف في وجه هذا الرأى عدم وجود اشارة في التوراة أو في النصوص الأشورية الى تهجير اليهود من السامرة الى يثرب ·

ويرى البعض أن هجرة اليهود قد تمت في القرن السادس قبل الميلاد بعد سقوط اليهودية وتدمير الهيكل على يد " نبوخذ نصر " وإبعاد كثير من اليهود الى بابل وهو ماعرف " بالسبي البابلي " ، ففي تلك الأثناء فر كثير من اليهود الى مصر بعد مقتل نائب " نبوخذ نصر " في أورشليم ، وترى هذه الروايات أن بعضهم قد فر الى يثرب ولكن لا توجد أى اشارة الى ذلك .

وترجح الأدلة التاريخية أن وجود اليهود في يثرب انما يرجع الى القرنين الاول والثاني بعد الميلاد ، ومما يؤيد هذا الاتجاه المناخ السياسي الموجود في تلك الفترة ، وذلك بعد نجاح الرومان في السيطرة على الشام ومصر في القرنين الاول والثاني الميلاديين ، ففر الكثير من اليهود الى بلاد العرب ، وكانت أكبر الهجرات اليهودية بعد عام ٧٠ م وذلك في أعقاب الثورة اليهودية ضد الرومان وقيام الرومان بالقضاء عليها بعنف شديد ، فدمروا المدينة المقدسة وتم احراق المعبد اليهودى ، وكان من نتيجة ذلك فرار مجموعات كبيرة من السكان الى بلاد العرب ، حيث وصل بعضهم الى يثرب ، وتتابعت الهجرات اليهودية في النصف الاول من القرن الثاني الميلادى نتيجة ثورة اليهود على أيام هادريان ، وكان من نتيجتها القضاء تماما على اليهود ككيان سياسي في فلسطين ، فهاجر كثير منهم الى بلاد العرب حيث وصل بعضهم الى يثرب . وهم الذين كونوا الجالية اليهودية في شمال الحجاز وفي يثرب بصفة خاصة ، وزاد عددهم بمرور الزمن حتى كان معظم السكان من اليهود عند ظهور الاسلام ، وتركز اليهود في ثلاث قبائل رئيسية هي بنو قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، وذلك بجانب بطون وعشائر يهودية أخرى .

ويتجه معظم المؤرخين الى القول بأن يهود بلاد العرب انما هم من يهود فلسطين ،على أنه يجب ألا يفهم من ذلك أن جميعهم من أصل يهودى ، فهناك الكثير من العرب المتهودين ، ويشير الى ذلك أسماءهما العربية الاصيلة ومنها بعض من الأوس والخزرج وبني الحارث وقوم من غسان .

ويرى الاخباريون أن القبائل العربية من الأوس والخزرج اخوان ، فهما أبناء " حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء ابن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد " الذى ينتهي نسبه الى يعرب بن قحطان . ويرى بعض الباحثين أن كلمة (الأوس) هي اختصار لجملة (أوس مناة) ، والأوس هو جد الأوس ، أما (مناة) فهو صنم من أصنام الجاهلية ، وينقسم الأوس الى عدة بطون ، منها : عوف ، والنبيت ، وجشم ، ومرة ، وامرؤ القيس . أما الخزرج ، فهم اخوة الأوس — كما سبق القول — وهم ينقسمون أيضا الى عدة بطون ، من أشهرها : بنو النجار ، والحارث ، وجشم ، وعوف ، وكعب ، ويلاحظ أن جشما وعوفا هما اسما بطنين من بطون الأوس .

وترى هذه المصادر أنهم قد هاجروا من اليمن الى يثرب بعد تعرض سد مأرب لسيل العرم ، ولا يمكن تحديد زمن هذه الهجرة على وجه التحديد نظرا لتعرض سد مأرب للتهدم عدة مرات . وان كانت الروايات العربية تشير الى أن هذه الهجرة قد حدثت في القرن الرابع قبل الهجرة .

وكانت هناك أسباب أخرى بجانب تهدم سد مأرب أدت الى هجرة هذه القبائل الى شمال الجزيرة العربية ومنها ضعف الحكومة في اليمن

وظهور المشاحنات الدينية بين القبائل والتدخلات الخارجية في شئون اليمن الداخلية ، وأدى كل ذلك الى اضطراب الأمن في البلاد ، وزاد الأمر سوءا تحول الطرق التجارية ، ولم تعد اليمن صاحبة السيادة عليها ، كما لم تعد الوسيط الوحيد في نقل التجارة الى المناطق الشمالية ، وأدى ذلك الى كساد الأحوال الاقتصادية ، وهكذا كان للاحوال الاقتصادية والسياسية أثرها الكبير في دفع العديد من القبائل العربية الى الهجرة الى شمال الجزيرة العربية .

ولقد أقام الأوس والخزرج في المدينة بجانب اليهود الذين سمحوا لهم بالاقامة بجوارهم للاستفادة من خبراتهم في مجال الزراعة والتجارة ، وعاش الأوس والخزرج في ضيق من العيش ، في أول الأمر ، لعدم قدرتهم على مجابهة اليهود ، الا أنهم بمرور الزمن أخذوا يتطلعون الى وضع اقتصادى أفضل ، وكانت وسيلتهم في ذلك اما مشاركة اليهود في تملك الاراضي الخصبة أو الاستيلاء عليها منهم .

ويذهب بعض الباحثين الى الاعتقاد بأن تطلع الأوس والخزرج الى مشاركة اليهود والتغلب عليهم انما يرتبط بالأحداث الدولية حينئذ ، ويرون أن الدولة البيزنطية كانت هي المحركة لهذه الاحداث ضد اليهود ، فهي التي قضت على اليهودية في اليمن بعد حملة أبرهة ، ثم دفعت بالغساسنة الى التدخل في شئون يثرب ، ومناصرة الأوس والخزرج ضد اليهود .

ومن جهة أخرى ، فان هناك من الباحثين من يعارض هذا الاتجاه ، ويرى أن النزاع كان محليا بين العرب واليهود ، وأن مرجعه الى الظروف

الاقتصادية واعتماد السكان على استثمار الاراضي الزراعية ، ويعتمدون في ذلك على بعض الحجج التي لعل من أهمها هو استمرار الصراع بين الأوس والخزرج أنفسهم بعد تغلبهم على اليهود ، واشتراك كل طوائف المدينة فيه تبعا لمصلحتها الاقتصادية ، وهو ماسنشير اليه .

وانتهى الصراع مابين الأوس والخزرج واليهود بغلبة الأوس والخزرج وأصبح لهم كيان سياسي بارز في يثرب يفوق ماكان لليهود ، وكان لذلك أثره في قيام التنافس والصراع بين الأوس والخزرج .

فقد كان للتنافس على الزعامة في يثرب أثره في وجود مشاحنات بينهما ، وزاد من هذه المشاحنات رغبة كل من الفريقين في الاستيلاء على ماعند اليهود ، وزاد النيران اشتعالا موقف اليهود الذين أخذوا في الايقاع بينهما ، واثارة الأحقاد والضغائن بينهم ، واشتعلت نيران الحروب بينهما لأقل الأسباب ، وكان معظمها غير ذي بال .

وأول حرب وقعت بين الأوس والخزرج — حسب رواية الاخباريين — هي حرب " سمير " وحسب هذه الرواية ، فان سميرا وهو من الأوس ، شتم رجلا اسمه كعب بن العجلان ، كان ضيفا على مالك بن العجلان رئيس الخزرج ، ثم مالبث سمير أن قتل كعب ، ونشبت الحرب بين الأوس والخزرج لاختلافهما حول دية كعب ، وانتهى الأمر الى احتكامهم الى " المنذر بن حرام " الخزرجي ، وهو جد حسان بن ثابت ، الذي قضى بينهما ، وانتهت الحرب بينهما ، الا أنها تركت ندوبا في النفوس قلما تندمل ، فتمكنت العداوة منهما وتعددت الحروب .

ومن هذه الحروب التي دارت لأسباب لا قيمة لها، وما كانت لتقع لولا هذه العصبية الضيقة التي يثيرها في الغالب أفراد لا منازل كبيرة لهم في المجتمع، فاذا وقع على أحدهم اعتداء، نادى قومه للأخذ بثأره، فتثور الحرب، حرب يوم السرارة، وحرب بني وائل بن زيد الأوسيين، وبني مازن ابن النجار الخزرجيين، وحرب حاطب، ويوم الربيع، وحرب الفجار الأولى.

وكان آخر الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج هي الحرب المعروفة باسم "يوم بعاث" وقد حدثت قبل الهجرة بخمسة أعوام. وفي هذه الحرب حاولت كل من الأوس والخزرج استمالة البطون اليهودية اليها، فتحالفت الأوس مع بنو قريظة والنضير وبني مزينة، أما الخزرج فقد تحالفوا مع بني أشجع وبني جهينة.

ونشبت الحرب بين الفريقين عند حصن يدعى "بعاث" وانهزم الأوس في اليوم الأول، غير أن موازين الحرب تغيرت نتيجة لمقتل قائد الخزرج، فانتهز الأوس الفرصة، وهزموا الخزرج شر هزيمة، فأخذوا يقتلون رجالهم ويحرقون منازلهم وبساتينهم، ولم ينقذ الخزرج من الكارثة سوى خشية الأوس من استعادة اليهود لمكانتهم السابقة، بعد أن وضحت نياتهم في اذلال الخزرج ونهب أموالهم، ومن ثم فقد اكتفى الأوس بالقضاء على روح التسلط في الخزرج.

وقد أضعفت هذه الحرب بطون يثرب كلها، وأضعفت فيهم روح العداوة والحقد في النفوس، وان ظلت البذور موجودة، حتى شرفت المدينة بقدوم سيد الخلق سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، فأمرهما بالكف عن العداء، ووجههما وجهة أخرى أنستهما الخصومة العنيفة التي

كانت فيما بينهما • ونظرا لمساعدة أهل يثرب للرسول عليه الصلاة والسلام ومناصرتهم له وللمهاجرين ، فقد عرف الأوس والخزرج في الاسلام بـ (الأنصار) ، وصاروا يفتخرون بهذه التسمية ، حتى غلبت عليهم ، وصارت في منزلة النسب •

الأنبــــــاط

تعد دولة الأنباط التي قامت على الأطراف الخارجية لمنطقـــة فلسطين في حوالي القرن السادس قبل الميلاد من أهم الدويلات التـــي قامت على طول حدود الصحراء من ساحل البحر الاحمر الى أطراف سوريـــا وفلسطين والعراق ، وقد اتخذت من البتراء عاصمة لها ٠

وقد بلغت دولة الانباط أقصى اتساعها الجغرافي أيام ملكهـــا " حارثة الرابع " في أواخر القرن الاول قبل الميلاد والنصف الاول من القـرن الاول الميلادى ، اذ ضمت منطقة واسعة الى جنوب البتراء بلغت حتـــى حدود العلا ، وكان وجودها واضحا في منطقة النقب ، ومن الشمال وصلــت أقصاها بضم دمشق ، وهذا الاتساع في معظمه سياسي وتجارى ٠ فمـــن الناحية السياسية كان التوسع ناحية الشمال أسهل لأنهم لم يجدوا مقاومـــة تصدهم عنها ، ومن الناحية التجارية كان يمثل المكان الذى تتجه اليه السلـع الآتية من الجنوب ، فهو الاتجاه الطبيعي الذى لا بد من تأمينه ، وربما يكون ذلك السبب وراء عدم اتجاههم في بداية تاريخهم للسيطرة على المناطـــق الجنوبية ، لأن الامتداد نحو الجنوب لم يكن يمثل أهمية لهم في هـــذه المرحلة أو ربما كان راجعا الى وجود قبائل قوية رأوا من مصلحتهم حينئـــذ أن لا يستثيروا عداوتها ٠ وتعويضا عن ذلك قاموا بتوسيع رقعتهم في المنطقة الساحلية عند العقبة ، أما الامتداد جنوبا فلم يتجاوز الحوراء على الساحـــل وتيماء والحجر في الداخل ٠

وبعد تأمينهم للمنطقة الساحلية استولوا على المنطقة المعروفـــة

اليوم باسم شرق الأردن حتى بلغوا حدود ماديا الى الشمال ، وان كانوا قد اتجهوا الى ماوراءها بعد ذلك. وحين اتسعت تجارة القوافل النبطية كان من الضروري لهم تأمين الطرق التجارية التي تذهب من البتراء مخترقة النقب الى غزة أو العريش . ومن ثم عملوا على الاستيلاء على النقب كله لتأمين طرقهم التجارية من ناحية واستغلاله في الزراعة من ناحية أخرى .

وعلى ذلك فان المناطق التي شملها الامتداد النبطي كانت ثلاث مناطق رئيسية أنشأوا لهم فيها مراكز ومواقع استيطانية تعد بالمئات ، وهذه المناطق هي :

١ــ منطقة النقب وكانت أهم مراكزهم فيها عبده ، وكرنب ونصتان وخلصه .

٢ــ منطقة جنوبي سوريا وكانت أهم المراكز فيها ــ بالاضافة الى بصرى ــ هي سيعا، والسويداء .

٣ــ المنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن وتمتد جنوبا لتشمل جانبا من شمال الحجاز ، وبالاضافة الى البتراء أهم مركز نبطي في هذه المنطقة فانها تحتوى على أكبر نسبة من المراكز النبطية ومنها موقع ذبيان ووادى روم وهو يقع عند نهاية شرق الأردن وبداية الجزيرة العربية ، ومن أهم المنشآت النبطية في هذه المنطقة معبد لا يزال في حالة جيدة نسبيا .

وفيما يتصل بالتسمية ، فهناك من الباحثين من يربط بين كلمة "نبط" ولفظة "نبايوت" التي وردت في العهد القديم كاسم للابن البكر

لاسماعيل ، ومن الباحثين من قرنها بلفظة "النبياتيين" و"النبأيتى" التي وردت في نصوص الملك العراقي تجلات بلاسر الثالث، ثم في نصوص أسرحدون ، ومن بعد ذلك في نصوص الملك أشوربانيبال .

وفيما يتصل بالمصادر التي نعتمد عليها في دراسة التطور السياسي والحضارى لدولة الأنباط ، فمن أهمها المصادر الأثرية وكتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان ، وما سجله المؤرخ اليهودى "يوسفوس فلافيوس ٣٧-١م" ، وسنتناول هذه المصادر بشيء من التفصيل فيما يلي :

أولا المصادر الأثرية :

بدأت الجهود الأثرية الجادة تأخذ طريقها في المواقع النبطية من عام ١٩٢٩ ، حينما قامت بعثة برئاسة جورج هورسفيلد بالعمل في موقع البتراء ، وتتابعت بعد ذلك البعثات ، فتمكن البرايت من الكشف عن "معلاة كونواى" عام ١٩٢٤ وعن خزنة فرعون وقبر الجرة وقبر الجندى الروماني عام ١٩٣٦ . ومنذ عام ١٩٥٤ بدأت دائرة الآثار الاردنية بالقيام بأعمال حفظ وصيانة الآثار النبطية وكذلك عمليات الكشف المستمرة في هذه المواقع مما كان له الأثر الكبير في الكشف عن الكثير من الأدلة الأثرية التي أماطت اللثام عن تاريخ وحضارة الأنباط .

ومن أهم هذه المكتشفات الأثرية ماكشف عنه من نقوش استدل منها على نوع كتابتهم ولغتهم وأسماء الاعلام الشائعة بينهم ، وأسماء الآلهة التي عبدوها ، وأسماء عدد من ملوكهم وملكاتهم ، وبعض شعائرهم الدينية وغير ذلك من الأمور .

ويمكن أن نميز في نقوشهم النماذج التالية :

١ــ نقوش تذكارية قصيرة كالتي وجدت في البتراء والحجر وسيناء .

٢ــ نقوش مدونة على نصب المقابر .

٣ــ نقوش معمارية يذكر فيها اسم المبنى والذى قام بتشييده وتاريخ البناء ، وفي بعض الأحيان كان لا يكتب اسم المبنى اذا كان بناء شهيرا .

٤ــ نقوش وقفية يذكر فيها اسم واهب الوقف والشيء الموقوف واسم المعبود الذى قدم اليه الوقف .

٥ــ نقوش تمثل توقيعات البنائين أو توقيعات تدل على الملكية .

٦ــ نقوش تكريميه وهي نادرة عند الأنباط .

ومن الواضح أن هذه النقوش على كثرتها لا تتحدث عن أحداث تاريخية ، ومن ثم تنحصر الاستفادة منها في معرفة أسماء الأعلام والآلهة والمباني ، وعلى ذلك يستعين المؤرخ بالمصادر الأثرية الأخرى كالمسكوكات وبقايا المقابر والتماثيل والرسوم والمصنوعات المختلفة .

ثانيا : المصادر اليونانية والرومانية :

من أهم المؤرخين اليونان والرومان الذين كتبوا عن الأنباط نذكر كلا من ديودور الصقلي واسترابو ، ولقد اعتمد ديودور الصقلي فيما كتبه عن الأنباط على مصدر معاصر للانباط في القرن الرابع قبل الميلاد وهو " هيرونيموس القارديائي Hieronymus of Cardia " ، ويرجع الفضل

لهذا المؤرخ في اماطة اللثام عن تاريخ الأنباط في هذه الفترة المبكرة .

وأما استرابو فقد اعتمد في كتابته عن الأنباط على بعض المصادر والتي من أهمها ماكتبه صديقين له أحدهما هو " أثنودور الطرسوسي Athenodorus of Tarsus " المتفلسف الرواقي الذى ولد وعاش في البتراء وخبر حياة أهلها وعاداتهم ومعتقداتهم . أما الآخر فهو ايليوس جالوس الذى قاد حملة الى اليمن أيام أوكتفيان ورافقه فيها استرابو .

ثالثا : المصادر اليهودية :

أشار يوسفوس فلافيوس في كتابيه حروب اليهود ، وآثار اليهود الى الكثير من المعلومات الخاصة بالأنباط وذلك من خلال علاقاتهم بالدولة المكابية سلما كانت تلك العلاقة أم حربا . وهو متعصب كثيرا للمكابيين ، ولهذا فقد يكون حديثه عن الأنباط في لحظات صراعهم مع الدولة اليهودية مشمولا بالهوى ، وثمة جانب غير مأمون فيما يقصه من أخبار وأحداث ، وذلك أنه ينصب من نفسه مفسرا للوقائع ، فيحجب بتفسيره حقيقة الرواية التي قد تتحمل ــ لو رويت على وجهها ــ تفسيرا آخر أو تفسيرات أخرى ، هذا الى أنه كثيرا مايقع في الخطأ والتضارب والتشويه ، ويخلط الشائعة بالحقيقة التاريخية .

وقد اختلف المؤرخون في الموطن الأصلي للأنباط ، فذهب فريق منهم الى أنهم من أهل العراق ، وأنهم قد هاجروا من العراق الى (ادوم) ، وذهب فريق آخر الى انهم عراقيون أتى بهم " نبوخذ نصر " في القرن السادس قبل الميلاد عندما اكتسح فلسطين ، فأنزلهم " البتراء " ومجاوراتها ،

وذهب فريق ثالث الى أنهم من جبل شمر في أواسط بلاد العرب ، ثم سرعان ما نزحوا الى العراق وظلوا بها ، حتى دهمهم الأشوريون فأخرجوهم من هناك ٠

والثابت أن الأنباط الأوائل هم من سكان العراق ، اذ ورد ذكرهم في آثار أشور منذ القرن السابع قبل الميلاد على أيام اشوربانيبال ٠ وهذا يفسر كيف أن العرب عندما عرفوا الأنباط لأول مرة كان ذلك في بطائح العراق حيث يكثر الماء حتى قالوا : "وسمي نبط السواد نبطا ، لاستنباطهم المياه وسقيهم الأنهار" ٠ هذا وقد دخل الأنباط في نطاق العرب عن طريق اتخاذهم للثقافة الأرامية واصطناعهم لكتابة ولغة الأراميين ، ويرجع ذلك الى أنها كانت اللغة الشائعة في ذلك العصر ، بل انها أصبحت لغة المراسلات الدولية في الشرق الأدنى القديم منذ حوالي عام ٥٠٠ ق٠م، كما أصبحت اللغة التي يستعملها سكان منطقة الهلال الخصيب — وكذا الانباط — كما أنها سوف تصبح لغة المسيح وشعبه فيما بعد ٠

فعندما بدأ الانباط يعملون بالتجارة ، ولم يعودوا نقلة لمتاجر غيرهم مقابل أجر معلوم اكتشفوا حاجتهم الماسة الى الكتابة ، وكانت اللغة السائدة في كل أنواع المعاملات والسفارات في بلاد الشرق الأدنى حينئذ هي الأرامية ، فكتبوا بها ، وظلوا يستعملون لغتهم العربية في حياتهم اليومية فيما بينهم ٠ وقد كان اختيارهم للأرامية ضرورة حضارية ووسيلة عملية للتفاهم مع من حولهم ممن يستعملونها في مكاتباتهم ، وظلت هي لغة الكتابة بعد أن سقطت دولتهم لمدة مائتي سنة ٠

ويتبين من أقدم الاخبار الواردة في كتابات المؤرخين اليونان

والرومان أن النبط كانوا في بادىء أمرهم اعرابا ورعاة ماشية ، وفي ذلك يقول ديودور الصقلي :

" لقد آلوا على أنفسهم ألا يبذروا حباً ولا يغرسوا شجرا يؤتي ثمرا ، ولا يعاقروا خمرا ، ولا يشيدوا بيتا ، ومن فعل ذلك كان عقابه الموت ، وهم يلتزمون بهذه المبادىء لأنهم يعتقدون أن من تملك شيئا استمرأ ماملك وعز عليه التخلي عنه واضطر من أجل ذلك أن ينصاع لما يفرضه عليه ذوو القوة والجبروت " .

ومع ذلك فانهم - فيما يبدو - لم يقنعوا بتربية الابل والماشية ولم يقتصروا على حياة الرعي ، بل كانوا قد تميزوا عن كثير من البدو ، بالاقبال على حياة التجارة شراء وبيعا ، وعلى القيام بدور الوسطاء في دنيا البيع والشراء حتى عرفوا بالثراء ، وهذا مايؤكده قول ديودور الصقلي :

" ثمة قبائل عربية كثيرة تتخذ الصحراء مراعي لقطعانها ، ولكن الأنباط يفوقون الجميع بثرائهم " .

أما أقدم ماوصلنا من أخبار عن الأنباط فهو ماذكره (ديودور الصقلي) من أن " انتيجونوس " الذى خلف الاسكندر في سورية قد جرد حملة على النبط قوامها أربعة آلاف جندى من المشاة ليجبرهم على التحالف معه وتأييد مصالحه ، وكان ذلك في عام ٣١٢ ق.م ، وسار قائد هؤلاء الجنود وباغت الصخرة (أم البيارة) في منتصف الليل ، فقتل من حاول المقاومة وأسر خلقا منهم ، وترك الجرحى ، واستولى على ماوقعت عليه يده من البخور والتوابل والفضة ، ثم أمر قواته بالاسراع بالرجوع ، فلما قطعت مسافة ، أضناها التعب ، واضطرت الى الاستراحة في معسكر اقامته ، وفيما كان

الجنود ينعمون بنومهم ، هاجمهم النبط وأعملوا فيهم السيوف ، فلم ينسج من رجال الحملة الا خمسون فارسا هربوا بسلام . وبعد هذا الانتقام من جانب النبط عادوا الى الصخرة ونظموا أمورهم ، ثم كتبوا الى الملك "انتيجونوس" كتابا بالسريانية يلومون فيه قائد الحملة التي بعثها الملك على مافعل بهم ، ويعتذرون فيه عما بدر منهم ، وقد أجابهم الملك بأن ماحدث انما كان بغير علم منه ، وأن قائده قد تصرف برأيه ، ثم يختم رسالته باعلان صداقته لهم ، بينما كان في واقع الامر ، انما يعد لجولة جديدة قد يهيئ لها من الاسباب مايكفل لها النجاح . وهكذا ما أن يمضي وقت طويل حتى يرسل اليهم ولده "ديمتريوس" على رأس حملة قوامها أربعة آلاف من الفرسان ومثلهم من المشاة . ويبدو أن الأنباط انما كانوا يتوقعون الخيانة من "انتيجونوس" ، ومن ثم فقد كانوا في حيطة من أمرهم ، فأمنوا أموالهم في مواضع حصينة لا تصل اليها أيدى الطغاة الطامعين ، ثم تفرقوا في الصحراء ، وهكذا ما أن وصل "ديمتريوس" الى الصخرة (أم البيارة) حتى هاجمها بعنف وشراسة ، الا أن محاولته هذه ، لم يكتب لها نصيب من النجاح ، ومن ثم فقد عاد بخفي حنين ، قانعا بما قدمه اليه الأنباط من هدايا .

ومن المعروف أن البطالمة قد طمعوا في دولة الأنباط بسبب موقعها كمحطة تجارية هامة ، وبسبب خيراتها الوفيرة ، ومن ثم فقد اهتموا بالسيطرة على البحر الأحمر من أجل تأمين تجارتهم في بونت والهند . فلقد كانت سفن الهند تفرغ بضائعها في بلاد اليمن ومن هناك كانت تنقل شمالا بطريق البحر الاحمر أو بالطريق البرى الى أيلة ثم الى بترا . وفي عهد بطليموس الثاني (٢٨٣ - ٢٤٦ ق.م) ونتيجة لتحرش الأنباط بسفن البطالمة ومهاجمة سفنهم المتجهة الى مصر وأخذ مافيها - قام بانشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية ، وقد ألحقت هذه القوة خسائر فادحة

بأسطول النبط ، وأدت سياسة بطليموس الرامية الى السيطرة على البحر الاحمر ، واعادة فتح القناة القديمة التي كانت تصل النيل بالبحر الاحمر — الى الحاق خسائر فادحة بالنسبة للأنباط الذين كانوا يحصلون على أرباح باهظة من تجارة القوافل التي كانت تمر ببلادهم ، فأخذوا يشنون الغارة تلو الغارة على السفن الذاهبة أو الآتية من مصر .

وفيما يتصل بملوك الانباط ، فيختلف المؤرخون حول ترتيبهم ، ويزيد من صعوبة هذا الامر وجود العديد من الفجوات التي لا يوجد مايملأها ، ومن أهم هؤلاء الملوك :

الحارث الأول :

هو أول ملوك الأنباط ،عرف اسمه ، وهو اسم كثير الشيوع في أسماء الاعلام ، ولما كان هو أول من عرف اسمه دعي " الأول " تمييزا له عن كل من جاء بعده ممن اسمه " الحارث " . ولكنه ليس من الضروري أن يكون أول ملك نبطي .

وكان الحارث الاول معاصرا لمؤسسي الأسرة المكابية (أسرة حاكمة يهودية) ، فلقد ورد ذكره في سفر المكابيين الذى أطلق عليه " اريتاس " وذلك عندما حدث نزاع بين اليهود عام ١٦٩ ق.م حول من يتولى الكهانة العليا ، وفر أحد المتنازعين الى الحارثة . ولكنه طرده ، ربما لوجود اتفاق مابين الحارث والأسرة المكابية .

ولم يصلنا أى شيء آخر بخصوص الحارث الاول ، وان كان هناك من الباحثين من يرى أن النقش الذى عثر عليه في الخلصه يخصه ، وقد جاء

في هذا النقش " هذا هو الموضع الذى أقامه عبد نثيرو لحياة حارثة ملك النبط (نبطو) "، ويتجه أصحاب هذا الرأى أن هذا النقش لا يتجاوز في تاريخه عام ١٥٠ ق.م.

الحارث الثاني :

وجاء بعد الحارث الأول الملك زيدال وذلك في حوالي عام ١٤٦ ق.م ، ثم تلاه على العرش الملك الحارث الثاني الذى حكم حوالي عام ١١٠ ق.م ، ودام حكمه حتى حوالي عام ٩٦ ق.م ، وقد نعته المؤرخ يوسفوس بلقب "ملك" مما يدل على أن هذا اللقب صار لقبا رسميا لحكام النبط في ذلك العهد.

وفيما يتصل بالأحوال التاريخية خلال هذه المرحلة يذكر المؤرخ يوسفوس في كتابه "آثار اليهود" عن بداية تضارب المصالح بين الأسرة المكابية والأنباط ، وكانت الدولة السلوقية حينئذ قد أخذت تدخل مرحلة ضعف وتقهقر مما أغرى ملك المكابيين بانتهاز الفرصة للتوسع وجعل هدفه مدينة غزة التي استغاث أهلها بالملك الحارث الثاني المجاور لهم ، الا أنه خيب آمالهم فلم يقدم يد العون لهم رغم وعده لهم بذلك مما مكن المكابيين من الاستيلاء على غزة ، ولم يتركوها الا لوجود حرب أهلية عندهم.

وأشار يوسفوس أيضا الى أن الملك الحارث الثاني قد انتهز فرصة ضعف الأوضاع في مصر وبلاد الشام ، فهاجم بجنوده بعض هذه الأراضي ، وغنم منها غنائم كثيرة ، فكوّن بذلك لنفسه وللعرب صيتا بعيدا.

وفي زمن الحارث الثاني ، صدرت نقود نبطية ، ولعله أول ملك

نبطي يفعل ذلك ، اذ لم تصلنا نقود لملك قبله . وتحمل النقود المنسوبة اليه حرف " A " وهو الحرف الاول من اسمه " Arethas " ، وقد وجدت حديثا كمية غير قليلة من العملة البرونزية وفيها نماذج تحمل حرف (ح) بالآرامية اشارة الى حارثة .

ولقد انتهى حكم الحارث الثاني عام ٩٥ ق.م ، وخلفه على العرش النبطي ابنه عبادة الأول .

عبادة الأول :

ورد نقش سجله رجل يدعى أصلح بن أصلح من أهل البتراء على غرفة للعبادة في الصخر في الممر الضيق المؤدي الى البتراء وجاء فيه: " هذه هي القاعة التي أقامها أصلح بن أصلح لذى الشرى اله منبتو لحياة عبادة ملك النبط في أول سنة من سني حكمه " . وقد أرخ هذا النقش بعام ٩٥ ق.م . وفي هذا اشارة أكيدة لتاريخ اعتلائه العرش .

ولقد استمر في عهده النزاع بين الأنباط والمكابيين في عهد ملكهم اسكندر جينوس ، لأن اطماع جينوس التوسعية امتدت الى جلعاد ومؤاب ، واستطاع التغلب على عرب هاتين المنطقتين ، ولذلك تصدى له عبادة في معركة عند جدارة (أم قيس) الى الشرق من بحيرة طبرية ، واضطرته " هجانة " الأنباط الى الوقوع في واد عميق ، وكاد يفقد حياته ، واضطر جينوس الى التخلي عن طموحه والتفرغ لضغوط أخرى بزغت في مكان آخر ، فرد الى ملك العرب ماكان استولى عليه من مؤاب وجلعاد وما فيهما من معاقل في مقابل أن يمتنع عبادة عن مساعدة خصومه .

رب إيل الأول :

هو ابن الحارث الثاني وأخو عبادة الأول ، حكم في الفترة من ٨٨ ـ ٨٧ ق.م ، لم يذكره يوسفوس بالاسم ، ولذلك اضطربت المصادر بشأنه ، ونسبت الأحداث التي تمت في عهده الى عهد أخيه عبادة ، غير أن المؤرخ أسطفانس البيزنطي ذكره لدى حديثه عن الحملة الثانية التي قام بها انطيوخس الثاني عشر ضد العرب ، وكانت هذه المعركة في أواخر عام ٨٨ ق.م ، أو أوائل التي بعدها . وقد أحرز الأنباط في هذه المعركة نصراً مؤزراً ، وقتل انطيوخس وفر جيشه وهلك معظمه جوعاً .

الحارث الثالث :

هو ابن حارثة الثاني أيضاً وأخو عبادة الأول ورب إيل الأول ، وهو يعد من أشهر الملوك المتقدمين من النبط . ويرى بعض الباحثين أنه حكم من عام ٨٧ حتى عام ٦٢ ق.م ، وقد قطف ثمار الانتصار الذي حققه سلفه ضد انطيوخس ، اذ خلا جواره المباشر من تدخل السلوقيين مؤقتاً واستطاع أن يمضي قدماً في السياسة النبطية التوسعية . وقد اقترن عهده بفتوحات واسعة بدأت باستيلائه على دمشق ، وعلى سهل البقاع ، في حوالي عام ٨٥ ق.م ، وذلك بناء على دعوة تلقاها من سكان المدينة العريقة ـ وكانت عاصمة السلوقيين وقتذاك ـ لانقاذهم من هجوم " الايتوريين " الذين كانوا يطمعون في الاستيلاء عليها ، وأدخلها في جملة أملاكه ، ولقبه أهلها (محب اليونان وحاميهم) لأنه أنقذهم من غزو الاعراب لهم .

وهكذا أصبح (للحارث الثالث) مملكة واسعة الاطراف ، عمل على تدعيمها ببناء جيش قوي ، فبعد أن كان جيش النبط في بادىء الأمر مجرد

جماعات غزو غير منظمة تهاجم عدوها وتباغته على طريقة الاعراب ثم تتراجع ، حاول الحارث ادخال الكثير من الاصلاحات عليه ، واستعان بعدد كبير من اليونان في تدريب جيشه ، وتكوين وحدات نظامية مدربة ، استعان بها في تقوية مركزه حتى صار من أقوى ملوك النبط الذين حكموا حتى أيامه . ومن ثم فقد بدأ الحارث يتدخل في شئون مملكة يهوذا المتداعية ، فغزا أرض يهوذا ، وفي معركة واحدة وقعت عند موضع (اويدا) انهار الجيش اليهودى وتشتت شمله ولم يبق أمام ملكهم الا طلب الصلح ، وعاد النبط منتصرين الى ديارهم . كذلك عمل (الحارث الثالث) على مجابهة الرومان ولكنهم تغلبوا عليه ، ويرجع ذلك الى حيازة الرومان لجيوش منظمة مدربة .

ودعت الظروف السياسية الحارث مرة أخرى للتدخل في شئون مملكة يهوذا ، ابان الخلاف الذى دب بين ولدى "اسكندر جينوس" (ارسطوبولس وهركانوس) ، وانقسام اليهود الى فريقين ، الصدقيون ويؤيدون "أرسطوبولس" والفريسيون ويؤيدون "هركانوس" الذى فر الى البتراء ، لعله يجد الحمى عند الحارث ، فضلا عن اعادة التاج اليه وتثبيت ملكه ، على أن يعيد للحارث في مقابل ذلك ، المدن الاثنى عشر التي كان قد أخذها أبوه من العرب ، ويقبل الحارث آملا في أن يوسع أملاكه على حساب يهوذا ، ان لم يقدر له أن يوجه اليها الضربة القاضية . وهكذا يوجه الحارث جيشا قوامه خمسون ألف رجل لمهاجمة "ارسطوبولس" الذى سرعان مايفر الى القدس بعد هزيمة منكرة ، فيتابعه الحارث الى المدينة المقدسة ، ويكاد يستولى عليها ، لولا قيام الرومان بالهجوم على دمشق ، ثم ارسال حملة عسكرية الى القدس نفسها للتدخل في النزاع القائم بها وقتذاك ، ولمنع الأنباط من الاستيلاء عليها . وأدرك الحارث أن جيشه لا يستطيع الوقوف أمام جيوش الرومان المدربة ، المنظمة والمسلحة تسليحا جيدا حديثا بالنسبة الى أسلحة

النبط ، ففك الحصار وتراجع ، الا أن "ارسطوبولس" الذى نجح في اكتساب ثقة قائد الحملة الرومانية سرعان ماتعقب الأنباط وهم في طريق عودتهم ، فانتصر على الحارث وقتل ستة آلاف من أتباعه ·

وتعقدت الامور مرة ثانية بين الرومان والأنباط ، فهدد الرومان النبط بالزحف عليهم وتخريب بلادهم ، ووجد الحارث أنه من المستحيل عليه الثبات أمامهم ، وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن يدفع الحارث جزية للرومان · واعتبر "بومبي" حاكم الرومان أن ذلك انما هو خضوع من الأنباط للرومان ، ومن ثم فقد وضع صورة الحارث في موكب نصره ، كما أمر القائد الروماني أن تضرب النقود وعليها صورة الحارث راكعا على ركبتيه الى جانب جمل وهو يقدم غصنا في خضوع الى القائد الروماني ، تعبيرا عن استسلامه · أما الأنباط فلعلهم وجدوا أن دفع بعض الأموال لا يخدش وجه سيادتهم واستقلالهم الذاتي ، خصوصا وأن استيلاء الرومان على كل سورية قد وضح لهم مدى قدرتهم على المبادرة بالتحدى · وكانت هذه الاحداث هي خاتمة حياة الحارث الثالث الذى وافته المنية في عام ٦٢ ق·م ·

الملك عبادة الثاني :

وحكم بعد (الحارث الثالث) ابنه الملك (عبادة الثاني) الذى حكم في الفترة من ٦٢ــ ٤٧ ق·م على رأى ، وفي الفترة من ٦٢ ــ ٦٠ ق·م على رأى آخر· ولدينا من عهده نقد من الفضة ضرب بأمره في السنة الثانية أو الثالثة من حكمه وهو من فئة الـ (دراخما) وقد صور عليه وجه الملك حليقا ، وشعر رأسه قصيرا ·

مالك الأول :

حكم الملك (مالك الأول) بعد (عبادة الثاني) وفي عهده شارك النبط يوليوس قيصر في حصاره لمدينة الاسكندرية عام ٤٧ ق٠م ، فأمدوه بقوة من جيوشهم ٠ ثم حدث بعد ذلك أن تدهورت العلاقات بين الرومان والنبط ، وربما يرجع ذلك الى امتناع الأنباط عن دفع الجزية للرومان ، أو لأن النبط قد وقفوا الى جانب الفرس عندما أرادوا الاستيلاء على فلسطين ٠ وأيا كان السبب ، فان الروم وبعد انتصارهم على الفرس ، بدأوا يتجهون نحو النبط وأجبروهم على دفع جزية كبيرة ، ثم زاد الموقف تعقيدا عندما منح (مارك أنطونيو) وهو الذى عهد اليه الرومان بتولي أمور الشرق)، جزءًا كبيرا من فينيقيا وسوريا ، فضلا عن بلاد الأنباط ، الى "كليوباترا" ملكة مصر ٠ وهكذا أصبحت (كليوباترا) صاحبة الحق في جزية الرومان من الأنباط ، غير أن النبط قد امتنعوا عن دفع الجزية لملكة مصر ، ومن ثم فقد طلبت كليوباترا من مارك انطونيو الاسراع في تأديب الأنباط ٠ وفي نفس الوقت دفعت كليوباترا بملك اليهود (هيرودوس) لمحاربة الأنباط ، وكانت تهدف من وراء ذلك اضعاف مركز كل من ملك اليهود والأنباط حتى تتمكن منهما ، وتصبح سيدة بلاد العرب ٠ وبادر هيرودس بمحاربة النبط ، فالتقى بهم عند (اللد) وانتصر عليهم ، ثم التحم بهم في (قنا) في البقاع ، وكاد يتغلب عليهم ، الا أن موازين النصر سرعان ماتغيرت الى جانب النبط ، فقتلوا عددا كبيرا منهم وأسروا آخرين ، وفر "هيرودوس" الى القدس ٠

وفي القدس أخذ (هيرودوس) يحرض قومه على الانتقام من العرب ، والأخذ بالثأر ، ولا سيما أن الأنباط أخذوا في الهجوم على مدنه ، فنشبت سلسلة من الحروب بين الطرفين ، كلفت كل منهما خسائر كبيرة ٠

ويدعي المؤرخ (يوسفوس) أن النصر كان في الخاتمة في جانب اليهود ، واضطر النبط بعد ذلك الى دفع الجزية الى (هيرودوس) وعقدوا صلحا معه ، لم يخالفه الأنباط بعد ذلك . وليس هناك شك في أن قوة هيرودوس لم تكن هي في الحقيقة التي جعلت الأنباط يقبلون بمصالحة اليهود أو دفع الجزية لهم ، انما كانت قوة الرومان وراء تلك الانتصارات التي حققها هيرودوس نتيجة ماتقدمه له من مساعدات عسكرية فعالة .

عبادة الثاني : (٣٠ — ٩ ق.م)

يصفه كل من يوسفوس واسترابو بالكسل وتراخي الهمة ، وبأنه لم يكن يعير الشئون العامة ، فضلا عن الشئون العسكرية أي اهتمام . وفي نفس الوقت فقد أسهبوا في مقارنته بوزيره الشاب النشط " صالح " أو " سليوس " Syllaeus ، وبذلك تضاءلت شخصية عبادة الثاني بجوار وزيره صالح ، وتصدرت الاحداث شخصية الوزير صالح الذي كان يلقب في النقوش " أخا الملك " أي اليد اليمنى للملك .

وعلى الرغم من ضآلة الدور الذي ينسب الى عبادة فهناك نقشا يستشف منه أنه قد أله في عهد خليفته ، وليس لهذا التأليه من سبب الا اذا كان خليفته الذي قام بهذا العمل كان يهدف من وراء ذلك الى جعل هذا التأليه سنة متبعة ، وبذلك يضفي في نفوس أهل المملكة هيبة جديدة لملك الأنباط ليكتسب لنفسه تلك المكانة بعد موته أيضا ، وقد يكون من أسباب ذلك أيضا اضفاء نوع من التقديس والاحترام على شخص عبادة بسبب قوة وزيره صالح الذي كان أشبه بالوصي عليه .

ومن أهم الاحداث التي حدثت في عهد هذا الملك الحملة

الرومانيـــة على بلاد العرب الجنوبية عام ٢٥ ـ ٢٤ ق٠م ، وكانت تهـدف الى الافادة من مصادر الثروة السبأية ، ونظرا لمرور هذه الحملة في آراضـــي تحت سيطرة الأنباط أو موالية لهم ، وأن دليل الحملة كان الوزير صالح ، فقد ارتبطت هذه الحملة بالأنباط ٠ وقد فشلت الحملة في تحقيق أهدافها فشلا ذريعا ، وحاول استرابو أن يضع كل مسئولية الفشل على عاتق الوزير صالـح واتهمه بالمكر والخداع وأنه قد غرر بالجيش ، الا أنه قد بالغ كثيرا في القاء التهم على الوزير صالح في محاولاته المستميتة في تبرير فشل الحملة ٠

ومن الناحية الداخلية ، فقد أصدر عبادة الثاني نوعين من النقـد أولهما صدر في أوائل حكمه ويسمى النقد البطلمي ، وقد صور على أحـــد وجهيه رأس عبادة وعلى الثاني رسم صقر ، وثانيهما يسمى النقد اليونانـــي وقد صدر بين السنة العاشرة والعشرين من حكمه ، وقد صور على أحـــد وجهيه رأس الملك وعلى الوجه الثاني صورة رأس الملك والملكة ، وكتب علـــى جميع النقود عبارة "عبادة الملك ، ملك الأنباط " ٠

الحارث الرابع (٩ ق٠م ـ ٤٠م) :

ورد اسمه في عدد من الكتابات النبطية ، وقد حمل لقب " رحم عم " أى المحب لأمته ، وقد قام هذا الملك بتزويد القائد الروماني (واروس) بقوة من المشاة والفرسان حين زحف على يهوذا ، وقد فعل ذلك انتقاما مـــن اليهود وتقربا الى الرومان ٠ ثم حدث بعد ذلك أن اصطدم النبـــط باليهود وذلك نتيجة قيام هيرودوس بطلاق ابنة الحارث الرابع ، وكان قـــد تزوجها منذ حين ، وبسبب اختلافهما ايضا على حدود المنطقة ٠

وانتهت الحروب بين الطرفين بانتصار الحارث على خصمه انتصارا

كبيرا في جلعاد وتشتيت شمل جيوشه ، فاستنجد هيرودوس بسيده ، وحاميه قيصر الروم ، الذى غضب وكتب الى عامله في سورية يحثه على السير لمحاربة الحارث والقبض عليه حيا وارساله مكبلا بالسلاسل الى روما ، أو يبعث برأسه اليه ان قتله . وبينما كان العامل يهم بالزحف على مملكة النبط جاءته الاخبار بوفاة القيصر فتوقف عن الحرب ، وساء موقف هيرودوس ونحاه الرومان عن عرشه .

ويستدل من رسالة بولس الثانية الى أهل كورنثة أن دمشق كانت تتبع الحارث ملك الأنباط ، وقد كان بولس في دمشق حوالي عام ٤٠ م وهي آخر سنة في حكم حارثة . وفي ذلك يقول : "كان الحاكم بدمشق تحت اسرة ارتاس (الحارث) الملك " ، ويدل ذلك على عودة دمشق الى الدولة النبطية وربما كان ذلك حوالي عام ٣٧ م ابان الحرب التي استعر أوارها بين الحارث وهيرودوس ، وربما بقيت تحت سيادة الأنباط في مقابل مبلغ يدفعونه للرومان .

ويتميز عهد الحارث الرابع بحركة عمرانية واسعة تركزت حول القسم الجنوبي من المملكة ، فتحولت المنشأة النبطية في مدائن صالح (الحجر) الى مدينة كبيرة ، وظهر ذلك أيضا في المقابر المنحوتة في الصخر والتي تضاهي في فخامتها المقابر المنحوتة في الصخور في البتراء نفسها ، ويحمل أكثرها نقوشا تشير الى أنها قد شيدت في النصف الاول من القرن الاول الميلادى ، ويحمل أقدمها نقشا يشير الى السنة الاولى بعد الميلاد . ومن الجدير بالملاحظة أن معظم هذه المقابر كان خاصا بالضباط العسكريين من ذوى الرتب المختلفة ، وربما يشير ذلك الى أن هذه المنطقة (مدائن صالح) قد جعلها الحارث منطقة عسكرية لحصانتها ، وأن تكون كدرع أمان

للدولة النبطية في المستقبل من أطماع الرومان ·

ويضاف الى ذلك ، أن الأنباط كانوا قد خسروا كثيرا من توسعهم التجارى بعد أن أصبح البحر الاحمر مجالا لنشاط السفن الرومانية ، ومعنى ذلك أنهم لم يخسروا التجارة البحرية وحسب ، بل تضاءلت حصتهم من التجارة البرية ، وأخذ طريق البتراء ـ غزة تكاد تصبح مهجورة وعلى ذلك ، فقد كان هذا الاتجاه نحو الجنوب كمحاولة لانعاش الوضع التجارى وتعويض الخسائر · ودلت النقوش التي اكتشفت في الجوف عند الطرف الجنوبي لهذا الوادى على كثرة الرتب العسكرية ، ويدل هذا أيضا على أن الحارث كان يحاول تقوية هذه المنطقة ليتم لتجارته الوصول من خلالها الى بصرى ، دون حاجة الى المرور بالمنطقة الواقعة شرق الأردن التي قد تفكر روما ذات يوم في ضمها الى الولاية السورية ·

ولعل التخوف من المنافسة الخارجية في النشاط التجارى هو الذى دفع الحارث الى الاهتمام بالزراعة ، ويتضح ذلك في زيادة حركة الاعمار في مدن النقب مثل عبدة وكرنب ونصتان · وكان الرى هو العامل الرئيسي والضرورى لهذا الاعمار ، ولقد كشف عن بعض الآثار التي تشير الى وجود نظام متقدم لحفظ مياه المطر وتسييرها الى الاراضي الصالحة للزراعة ، ولم يقتصر الاهتمام بالاعمار على المناطق الجنوبية ، بل امتد كذلك الى المناطق الشمالية ، فرأينا آثاره في بصرى شمالا وهي تسيطر على الطرق الداخلية من وادى سرحان ، ابتداء من الجوف وباتجاه دمشق ·

وحظيت البتراء بنصيب كبير من العمران في عهد الحارث ، فقد شيد في عهده أكبر أثرين من آثار تلك المدينة وهو المسرح المحفور في الصخر ،

والمعبد القائم في وسط المدينة والذى يعرف اليوم باسم قصر البنت ٠

ولقد خلد الحارث أيام حكمه بتوالي الاصدارات النقدية ، حتى لا تكاد سنة من سنوات حكمه تمضي دون اصدار نقد جديد ، ولقد سجل على بعض القطع النقدية بعض الاحداث التي تمت في عهده ومنها تخليد للحركة المعمارية التي أجراها في مدائن صالح ، ومنها كذلك اصداره في العام العشرين من حكمه نقدا تذكاريا لزواجه من شقيلة التي أصبحت ملكة بعد وفاة زوجة سابقة له ٠ كما حملت بعض النقود أسماء بعض أبنائه وبناته ٠ ويلاحظ أن معظم النقود التي أصدرها قد كتب عليها " الحارث ملك النبط ، محب أمته "٠

ومن ناحية أخرى ، فلقد عثر على العديد من النقوش التذكارية التي أقامها أفراد من الشعب النبطي لملكهم الحارث ، وقد أرخت هذه النقوش بسنوات حكمه ، وكتب فيها "محب أمته " ويشير انتشار هذه النقوش في أماكن متعددة حتى وصل بعضها الى ايطاليا الى اتساع الآفاق التي كان يؤمها الأنباط وعلى امتداد تأثيرهم التجارى والحضارى الى مناطق بعيدة ٠

ومن هذه النقوش التذكارية نقشا يتميز بقيمته التاريخية وقد عثر عليه في موقع مادبا وجاء فيه " هذا هو القبر ومعه الهرمان المبنيان فوقه الذى أقامه عبد عبودت من أجل اتايبل الستريج (حاكم المقاطعة) والده ، ومن أجل أتايبل رئيس معسكرى لحيطو وعبرتا في مقر حكمهما الذى شغله فترتين أى ستة وثلاثين عاما في مجموعهما ، في أيام الحارث ملك الأنباط ، محب أمته " ٠ ولقد تم انشاء ذلك الضريح في السنة

السادسة والاربعين من حكم الحارث أى عام ٣٧ م • ويلاحظ أن لحيطو هي لهيت التي ذكرت في سفر إشعيا ، وأما عبرتا فتعني المخاضة أو المعبر ولعلها هي المخاضة الموجودة على نهر عرنون في الطريق الى الكرك •

مالك الثاني (٤٠ـ ٧٠ م) :

هو ابن الحارث الرابع ، ويلاحظ أن البقايا الأثرية والتاريخية المتبقية من عهده قليلة وان كان مرجحا أنه قد تابع سياسة أبيه في الاهتمام باعمار المناطق الجنوبية من الدولة ، ولقد توقف اصدار النقد في السنوات الست الاخيرة من أيامه ، وفي الوقت نفسه استأنفت دمشق اصدار نقدها مما دعى الباحثين الى الاعتقاد بأن الأنباط قد فقدوا دمشق في عهده ، ولقد جاء بعده على العرش النبطي ابنه رب إيل الثاني •

رب إيل الثاني (٧٠ـ ١٠١م) :

كان صغيرا حين تولى العرش ولهذا عينت أمه وصية عليه ، وهي تظهر على النقود التي أصدرت في سنوات حكمه الاولى ، وبعد أن تزوج أصبحت زوجته "جميلة" هي التي تصور على مايصدره من نقود •

وكانت فترة حكم رب إيل قليلة الاحداث ولهذا لم تثر انتباه مؤرخي الدولة الرومانية • وهناك مجموعة من المخربشات تشير الى قيام ثورة في بداية حكمه ، ومما يلفت النظر أن رب إيل كان يقضي أكثر وقته في بصرى وتلك كانت بداية غروب مجد البتراء السياسية وان بقيت بمجدها التجارى •

ولقد اتخذ رب إيل لقبا لافتا للنظر وقد ألحقه باسمه حيثما ذكر وهو " واهب الحياة والخلاص لأمته ".

مالك الثالث (١٠١ ـ ١٠٦م) :

آخر ملك نعرفه من ملوك الأنباط هو مالك الثالث ، وفي عهده قضى تراجان قيصر الروم على استقلال مملكة الأنباط وجعلها تحت حكم حاكم سوريا ، وذلك في عام ١٠٦ م وأطلق عليها اسم (المقاطعة العربية) ونقل مقر الحكم من البتراء الى بصرى ، فتضاءل بذلك شأن العاصمة القديمة وصارت مجرد موضع قليل الشأن . وكانت بصرى حتى ذلك الوقت موقعا غير ذى أهمية ، فأمر الامبراطور تراجان باعادة تأسيسها ، ويشهد بذلك لقبها الرسمي المنقوش على عملتها وهو " بصرى الجديدة التراجانية " . وحين أصبحت بصرى العاصمة بدأ بذلك تقويم جديد اسمه تقويم الولاية ، وأصبحت بصرى قاعدة الفيلق الروماني الثالث ووضعت الحاميات الرومانية على طول الطرق الرئيسية التي تكون مايسمى بالحد الغربي ، وكانت الطريق الجديدة التي بناها تراجان تصل بين سوريا والبحر الاحمر .

النشاط الاقتصادى :

من أهم أوجه النشاط الاقتصادى عند الأنباط النشاط التجارى ، وقد أوضحنا فيما سبق الجهود التي بذلها ملوك الأنباط في سبيل توسيع رقعة نشاطهم التجارى ، ولقد كان النشاط التجارى من الاسباب التي أدت الى بروز مظاهر كثيرة في الحياة النبطية وفي مقدمتها العناية بتربية الجمال وتوفير المؤونة بها والتزود بكل الأدوات التي تساعد

على تجهيز البضائع وترتيبها وتصنيفها وبناء السفن والتدريب على ركوب البحر وتهيأت كل ماتطلبه الموانى من معدات ، وتخصيص أماكن للتفريغ والتخزين . وأدى النشاط التجارى كذلك الى حركة صناعية وتعدينية وزراعية ورعوية ، فلم يكتف الأنباط باستقبال السلع الخارجية وتسويقها .

ويصف استرابو بعض جوانب من ثروتهم الحيوانية وسلعهم المحلية والمستوردة فيقول :

" والضأن لديهم ذات صوف أبيض ، والثيران كبيرة ، ولكن بلادهم لا تنتج خيولا ، وتقوم الجمال بتلبية خدماتهم مقام الخيل .. . وبعض الحاجيات مستوردة من بلاد أخرى . الا أن حاجيات أخرى ليست كذلك وخاصة ماكان منها نتاجا محليا كالذهب والفضة ومعظم العطور ، فأما النحاس والحديد والثياب الارجوانية والميعة والزعفران ، والأدوات المزينة بالنقوش الفاخرة والرسوم والمصنوعات المقولبة فلا تصنع في بلادهم " .

ومن المواد الهامة التي كانوا يتاجرون بها القار ، وكانوا يستخرجونه من البحر الميت ، وللقار فوائد متعددة منها استخدامه في تقوية المواد والأدوات ، أو أن يتخذ كعنصر في التغرية ، كما استخدمه المصريون في تلوين المعادن وكذلك في التحنيط .

وكانت التجارة الخارجية هي عماد ثروة الأنباط وكانت تعتمد على السلع القادمة من جنوب بلاد العرب ، اذ كانت تلك السلع تباع بأثمان عالية وفي مقدمتها البخور الذى كان يمثل مادة ضرورية في حياة الناس وعباداتهم ، كما كان هو والمر يستعملان في تركيب العقاقير ، وكان المر وحده يستخدم في صناعة مواد التجميل والعطور وفي شئون الدفن .

ولا ينازع هاتين السلعتين من السلع المحلية سوى البلسم والقار ولقد تحدثنا عن أهمية القار ، أما البلسم فكان يستخدم في الأمور الطبية ، ولقد أشار اليه ديودور فقال : " في أحد الوديان ينمو النبات المسمى بالبلسم وهو يعطي دخل كبير ، اذ لا يوجد في أى مكان آخر من العالم المعمور ، واستعماله كعقار مهم جدا لدى الاطباء " . وبجانبهما يرجح كذلك أن صناعة الخزف كانت تدخل في نطاق التجارة الخارجية .

وقد مارس الأنباط النشاط الصناعي ومنه سك العملة من البرونز والفضة ، كما صنعوا بعض التماثيل الصغيرة والحلى والاسلحة وكذلك الأواني المعدنية المستخدمة في الأدوات المنزلية ، كما ظهرت صناعات أخرى مثل النسج وصناعة الاحذية والأدوات الموسيقية .

وقامت الزراعة بدور كبير في نشاط الأنباط الاقتصادى ، وتدل السدود التي أقاموها والقنوات والمجارى التي شقوها وخزانات المياه التي شيدوها على اهتمامهم بالنشاط الزراعي . ويرجح أنهم مارسوا زراعة شتى أنواع الحبوب وأشجار الفواكه وبخاصة العنب ، وتشير رسومهم الى أهمية العنب والرمان كعنصر زخرفي . وهكذا بلغ الأنباط مستوى اقتصادى رفيع بالتضافر بين أنواع النشاط الاقتصادى المتعددة من تجارة وصناعة وزراعة .

نظام الحكم :

أما عن تنظيم الدولة وكيفيتها عند النبط ، فمن الواضح أن الملك كان بالطبع رئيس الدولة ، وكان الحكم متوارثا بداخل الأسرة الملكية ، وحسب المعلومات المتاحة لنا حاليا فان الحكم الملكي لم يخرج عن أسرة واحدة .

وهناك مايستشف منه أن الاسرة المالكة كانت حسنة التماسك ، ولم تكتفـ بذلك بل أصبغت على ملكها صفة الألوهية لتبعد عنها كل مدعي طامـع ، وأحاطت الحاكم من تلك الاسرة بروابط الأخوة ، وفي ذلك بالاضافة الى معنى المشاركة في المشورة وبعض المسئولية رغبة في اضفاء نوع من وحدة الحكم ، فزوجة الملك أخت له وصورتها تظهر مع صورته على النقود ، ووزير الملك أخ له وكليهما بهذه الأخوة يشاركه المسئولية أو جانبا منها ، ولم تكن هذه أخوة بالدم ولكنها اشارة الى عمق المشاركة .

ويبدو مرجحا أن الوزير كان مسئولا عن السفارات في الخارج ، واجراء المفاوضات وعقد الاتفاقيات وماشابه ذلك .

وكانت البلاد مقسمة الى ولايات لكل ولاية حاكم يسمى في النقوش ستريج ، وتدرجت الوظائف الادارية في الدولة سواء كانت سياسية أو دينية أو قضائية .

الحيـاة الاجتماعية :

كانت العائلة هي الوحدة المهمة في المجتمع النبطي ، وكانت شديدة التماسك وتقوم على روابط قوية بين أفرادها والتزاوج فيما بينهم ، ويرى الباحثون أن المرأة النبطية كانت تتمتع بمنزلة مرموقة في المجتمع ، وانها كانت تعامل باحترام وأنها كانت مصونة الحقوق ، ويستدلون على ذلك بمكانة ربة الخصب السامية بين الأرباب ، وأنها كانت تتفوق على قرينها زيوس ، وكذلك بوجود صورة الملكة الى جانب صورة الملك على العملة النبطية ومعها لقبها ، كما كان للمرأة النبطية الحق في الوراثة والتملك والتصرف في أملاكها .

الفكر الديني :

كان لانتقال الأنباط من حياة بدوية أو شبه بدوية الى حياة مستقرة العامل الأول في تطور فكرهم الديني ، فقد كان الاستقرار يعني خلق أوضاع جديدة لا بد أن تؤثر في كثير من المفاهيم الدينية التي صاحبت حياة البداوة . اذ كان أول مايعنيه الاستقرار ظهور الحاجة الى وجود معبد بما يتضمنه من تطور معماري ، كما أثرت الحياة الزراعية المستقرة على تطور فكرهم الديني كذلك .

ومن النواحي المؤثرة في هذا التطور اتصال الأنباط بالحضارات الاخرى المجاورة لهم أو التي كانت لهم بها صلات سياسية أو تجارية .

ومن المرجح أن الأنباط قد حملوا معهم من مواطنهم الأولى أربابا معينة هي اللات والعزى ومناة وذو الشرى وهذه المعبودات تتناسب وعيشة البداوة .

وكانت اللات وهي تمثل في الأرجح الشمس ، وهي عندهم أما للأرباب ، وقد أقيمت لها معابد كثيرة في المواقع النبطية ، ولكن يلاحظ أن اسمها قليل الورود في نقوش البتراء حيث كانت ربة بصرى وصلخد حيث كان عبادها المخلصون من بني روحو .

ولا تحتل العزى ومناة دورا بارزا بين الأرباب النبطية وخاصة بالنسبة لذى الشرى الرب الاكبر الذى حمل طبيعة بعض الآلهة السامية في دور مبكر فأصبح يناظر كل من بعل وهدد ، ثم أصبح فيما بعد صنوا لزيوس ، وكان في البدء يعبد على شكل حجر مربع أو مستطيل ، وكانت مكانته كبيرة في

البتراء ، ونظرا لكونه إلها شمسيا فقد كانت أنصابه ورموزه موجهة نحو المشرق ·

وكان تقديم القرابين من أهم الشعائر لدى الانباط مثلهم في ذلك مثل الشعوب السامية ، وكان ذلك بالضحايا الحيوانية التي يسفح دمها على مذبح أو على رأس النصب ، وليس لدى الانباط مايشير الى وجود التضحية البشرية · وتجدر الاشارة ان القرابين المقدمة في المعابد لم تكن تحرق كلها بل كان معظمها يأكله موظفي المعبد والعباد في غرفة خاصة بالولائم المقدمة حيث يجتمع الكهان والحجاج الى المعبد في المواسم والاعياد الدينية حيث يجلسون في هذه الغرف ويأكلون هذه الوجبة التي يطلق عليها " الوجبة التعبدية " وكانت لها أهميتها في العبادات لدى الانباط ، لأنها تعني المشاركة بين الاله وعباده ·

وقد تم الكشف عن معابد نبطية أهمها معبد خربة التنور ومعبد وادى رم ومعبد ذيبان ، وتشترك جميع المعابد في عناصر رئيسية هي المذبح ووجود تماثيل للأرباب أو صور لهم ، وأنها تتجه نحو الشرق ·

وكان هناك جهاز ديني يقوم بالاشراف على العبادة في المعابد وتنظيم الأعياد المرتبطة بالفصول واعداد الجنائز وطقوس الدفن ، وكان على رأس هذا الجهاز الكاهن ·

الفن النبطي :

تميز الفن المعمارى النبطي بقدرته على التأثر بالفنون المعمارية للحضارات المجاورة له ، ففيه المظاهر المصرية والايرانية واليونانية ، ولكن في صورته العامة يأخذ الطابع النبطي ، ويتجلى بشكل واضح في القبور المحفورة

في الصخر وفي المعابد ٠

وفيما يتصل بالمقابر فكان الصانع يبدأ بنحتها في أعلى الهضبة فيجعل سطحها أملس ثم ينحت الواجهة ثم يتم العمل في الاجزاء الداخلية لها ، وكانت الاعمدة في الغالب عارية من الزخرفة في تيجانها ، وان كانت في بعض الاحيان تزين برؤوس بشرية ، وكانت الرموز المصاحبة لهذه الأضرحة تكاد لا تتغير فهي الصقر والقناع الآدمي ، أما في داخل غرفة الدفن فتكاد تكون الزخرفة معدومة ٠

ويختلف الفن المعماري في المعابد عنه في القبور من حيث أن المعابد لا تنحت أحيانا في الصخر بل تبنى بالحجارة ٠

وفيما يتصل بالعمارة المدنية فمن أهمها المعبد الرئيسي في البتراء وقد تمثلت فيه قدرة المعمارة النبطي على اتقان النحت والبناء بالحجر ٠

وبرع الفنان النبطي في نحت التماثيل ومنها التماثيل الآدمية الصغيرة المفردة والتماثيل الآدمية النصفية وتماثيل الحيوانات كالجمال والقرود وغيرها ٠

وبالاضافة الى صناعة التماثيل فقد وجدت العديد من الرسوم سواء كانت رسوم جدارية أو رسوم على الخزف ٠

تدمر

تقع مدينة تدمر على مبعدة ١٠٠ كيلومترا من حمص ، ١٥٠ كيلومترا الى الشمال الشرقي من دمشق ، في منتصف المسافة تقريبا بين دمشق والفرات ، ومن ثم فقد كانت موقعا هاما على الطريق التجارى بين العراق والشام ، بل كانت نقطة التقاء التجارة القادمة من أسواق العراق ، وما يتصل بها من اسواق في ايران والهند والخليج والعربية الشرقية ، وبين تلك التي على البحر المتوسط ، وبخاصة في الشام ومصر ، فضلا عن اتصالها بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال افريقية ، والعربية الجنوبية والهند. وهكذا اصبحت (تدمر) ملتقى جميع القوافل ، وبخاصة فيما بين القرن الاول قبل الميلاد ، وعام ٢٧٣م ، ومن ثم فقد وجد في نقوشها عبارة (زعيم القافلة) و (زعيم السوق) باعتبار ان المشار اليه من زعماء المواطنين .

والاسم اليوناني للمدينة هو (بالميرا Palmyra) وهو مشتق من لفظة Palma اللاتينية ومعناها (نخل) ، ويرى بعض الباحثين ان الاسكندر الاكبر لما تغلب عليها اطلق عليها Palmyra اى مدينة النخل ، وذلك لما يكتنفها من غابات النخل العظيمة ، فعرفت عند اليونان واللاتين منذ ذلك الحين بهذا الاسم . بينما ذهب فريق آخر الى ان Palmyra هي ترجمة لكلمة (تمار) (تامار) (تمر) Tamar العبرانية ومعناها (نخلة) ، وهي في الاصل اسم موضع في الجنوب الشرقي من يهوذا ورد ذكره في (سفر حزقيال) . ويرى علماء التوراة انه الموضع الذى بناه سليمان والمذكور في (اخبار الايام الاول) ، ويرى البعض ان الرأى السابق خاطئا ، لأن اسم المدينة يرجع ظهوره للمرة الاولى الى ايام الملك الاشورى " تجلات بلاسر " الاول (١١١٦ — ١٠٩٠ ق.م) اى قبل مولد سليمان نفسه ،

وبفترة تسبق مادوّن في التوراة بشأنها ، بأكثر من سبعة قرون • وربما تكـون الشهرة التي اكتسبتها مدينة تدمر في ايام كتبة اسفار (اخبار الايام) هي التي حملتهم على اضافتها الى اعمال سليمان كدليل على شهرته ومدى بلوغ ملكـه في ايامه •

وذهب المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) الى ان النبي سليمان قد شيد مدينة تدمر• ويعد المؤرخ (بلينوس) اول كاتب كلاسيكي تعـرض لمدينة تدمر، فذكر انها مدينة شهيرة ولها موقع ممتاز ، وارضها خصبة وبهـا ينابيع وعيون ، وقد عزلتها الطبيعة عن العالم ببادية واسعة الاطراف •

واهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في دراسة تاريخ هـذه المدينة مجموعات الكتابات التدمرية التي درسها المستشرقون وترجموها الـى لغاتهم ، وهي الارامية واليونانية ثم اللاتينية والعبرانية ، ونشرت في كتـب خاصة ، كذلك هناك مؤلفات المؤرخين اليونان والرومان ومن بينهم بلينيـوس ، ثم هناك كتابات اخرى ذات قيمة ثانوية ذكرت تدمر عرضا لوجود مناسبة دعـت الى ذلك مثل سجلات المجامع الكنيسية والتلمود •

واهل تدمر كانوا عربا — شأنهم في ذلك شأن الانباط في البتـراء — بدليل وجود بعض المصطلحات والكلمات العربية الاصيلة في كتاباتهم • كما ان اسماء الاصنام عندهم عربية ، والامر كذلك بالنسبة الى اسماء الاعلام ، ومن ثـم فقد رأى بعض العلماء انهم من القبائل العربية التي اخذت تستولي علـى المناطق الخصبة في شرق الاردن ، عقب انهيار الدولة البابلية الحديثـة ، وسقوط بابل تحت السيادة الفارسية في عام ٥٣٩ ق•م ، ثم اخذت تستعمـل الارامية — وهي لغة الكتابة والثقافة في غرب الفرات وقتذاك — لغة لها • أمـا الثقافة التدمرية ، فكانت مزيجا من الثقافات العربية والارامية واليونانيـة

واللاتينية ، ذلك لأن تدمر قد نمت في ظل حضارة الاراميين واتخذت لغتهم ، فضلا عن المبادئ الاساسية في تفكيرهم الثقافي والديني ، هذا في الوقت الذى اخذت فيه كثيرا عن دنيا اليونان والرومان ٠

وكان اهل تدمر خليطا من تجار ومزارعين ، اما اطرافها فكانوا اعرابا ورعاة ٠ وكان في تدمر جاليات يونانية ورومانية ، اقامت فيها وفضلت السكنى بها ، كما كانت هناك جاليات يهودية نزحت اليها ربما قبل سقوط القدس في ايدى الرومان ، ثم عمل هؤلاء اليهود بالتجارة وربما نشطوا في تهويد بعض السكان ٠

هذا وقد بدأت تدمر في الازدهار والقوة منذ النصف الاول من القرن الاول قبل الميلاد ، وذلك بسبب الاهمية التجارية والدبلوماسية لموقعها بين امبراطوريتي الفرس والروم المتنافستين ، وقد حاول "مارك انطونيو" عام ٤١ ق٠م الاستيلاء على خزائن المدينة ففشل ، وان اصابها منه ضرر كبير ، غير ان مدينة مهمة كتدمر لها ثروة ومال وليس لها جيش قوى ضخم ولا مجال لتكوين هذا الجيش فيها ، لا يمكن ان تبقى في مأمن ومنجاة من مطامع الطامعين ، ولو كانت في بقعة منعزلة وفي بادية بعيدة ٠ ومن ثم فقد طمع فيها اهل العراق ، وطمع فيها الفرس ، وطمع فيها اليونان والرومان والبيزنطيون ٠ وكان اول طامع فيها وصل خبره الينا من الفاتحين الاقوياء هو الملك (تجلات بلاسر الاول) تلاه جملة غزاة ورثوا الحكم والملك في الشرق الادنى ٠ وقد صارت تدمر في جملة الاراضي التي اخضعها الاسكندر الاكبر لحكمه ، ولما انقسمت دولته بعد وفاته صارت تدمر من نصيب السلوقيين على ما يظهر ٠ وقد حاولت تدمر ان تقف موقف الحياد بين الفرس والروم ، وتمكنت من ذلك أمدا ، اذ كان من مصلحة الدولتين المتنافستين وجود محل منعزل محايد ، لكي يتمكن تجار الدولتين من الاتجار والتسوق فيه ٠

وقد قام احد القادة السلوقيين ببناء حصن ليضم اليه الجنود المقدونيين في مدينة (تدمر) ، وكان ذلك في عام ٢٨٠ ق.م ، ولعل هذا الحصن هو واحد من سلسلة حصون أقامها السلوقيون في المواضع الهامة ذات المكانة الخطيرة من الوجهة السياسية والعسكرية والتجارية لحماية مصالحهم فيها . هذا وقد اعترفت تدمر بنوع من السيادة عليها للرومان ، منذ اوائل العصور المسيحية ، ودليلنا على ذلك المراسيم الامبراطورية التي ترجع الى عهد (تيبيروس) ١٤ - ٣٧م ، والتي تتعلق بالرسوم الجمركية ، وقد عثر في تدمر على قوائم ترجع الى عام ١٧ م وتبين بعض الرسوم على البضائع وأثمانها باليونانية والتدمرية . هذا ويبدو ان تدمر قد اصبحت على ايام "فسباسيان" تحت الاشراف الروماني ، وان كان هذا لا يعني الخضوع لروما ، او ان الاشراف على الشئون المدنية بالمدينة كان بأيدى الرومان ، وانما كان هناك اشراف روماني عام على المدينة ، بدليل ان الروم قد سمحوا للمدينة بحق الاحتفاظ بحامياتها في خارج تدمر.

هذا وقد قام الامبراطور (هدريانوس) (١١٧ - ١٣٨م) بزيارة تدمر ، وبذل عناية كبيرة بها ، حتى قيل فيه انه مؤسس المدينة الثاني ، فاعتنى بها عناية خاصة بحماية الطرق البرية ، التي تصلها بنهر (الفرات) الذى كان شريانا مهما من شرايين التجارة العالمية في ذلك العهد ، وسعى الى تحسين صلاته بالفرس والمحافظة على الأمن في البادية ، لتتمكن القوافل من المرور منها بأمن وسلام .

وهناك من الآراء مايذهب الى ان تدمر قد منحت درجة مستعمرة رومانية عليا ، فاكتسبت بذلك حق الامتلاك التام والاعفاء من الخراج ، والحرية الكاملة في ادارة سياسة المدينة . وان هذه المنحة كانت في عهد الامبراطور هدريانوس ، بينما يرى آخرون انها كانت في عهد (سبتمتوس سيفيروس)

(١٩٣ـ ٢١١م) ٠ وقد أفادت تدمر من سياسة هدريانوس التي كانت تميل الى السلم وتجنب الحرب ، فوسعت تجارتها وزادت في عدد قوافلها ، وحصلت على ثروة طائلة ، وتعد الفترة من عام ١٣٠ وحتى ٢٧٠م هي أزهى سنوات المدينة ، فالى هذه الايام ترجع معظم النصب والآثار العظيمة التي مازالت آثارها قائمة حتى ذلك اليوم ٠ وقد تأثرت تدمر بأصول اليونان والرومان في ادارة الحكم ، فكان للمدينة مجلس شيوخ له سلطة سن القوانين والتشريع ، وله رئيس وكاتب واعضاء ، ويشرف على السلطة التنفيذية شيخان وديوان يتألف من عشرة حكام ، اما السلطة القضائية فينظر فيها بعض الوكلاء وغيرهم من العمال ٠

أســرة أذينــة :

كان لتجدد الحروب بين الفرس والروم بعد تأسيس دولة الساسانيين في فارس عام ٢٢٦م أثره في ارتفاع شأن أسرة عريقة في تدمر وزعيمها الـذي يدعى أذينة ، فقد استفادت هذه الاسرة من هذه الحروب وتمكنت من الحصول على مركز عال لدى الرومان ، وزعيم هذه الاسرة هو (أذينة) وجده الكبير كان يدعى (ناصر) (نصرو) والد "وهب اللات" (وهبلات) وان هذا الاخير انما هو والد "خيران" "أبو" "أذينة" ، وقد تولى رجال هذه الاسرة رئاسة تدمر وزعامتها ، واستطاعت بفضل تأييدها للرومان وتقربها اليهم ان تكتسب ود القياصرة وعطفهم عليها والانعام على افرادها بالالقاب والاوسمة وبالمال في بعض الاحيان ، وبالقوة والمعونة في احيان اخرى ٠ ولم يتعرض الرومان لحكم افرادها بل تركوهم يديرون شئونها وفق السياسة الرومانية ٠

ويعد (نصور) اقدم اسم وصل الينا من اسماء هذه الاسرة التـي حكمت تدمر ، وان كنا لا نعرف عنه شيئا ما ٠ أما (أذينة) فقد ورد اسمه فـي كتابة يرجع الباحثون زمان كتابتها الى حوالي سنة ٢٣٥ م ، وقد لقب فيهـا

بلقب (سقلطيـق) ، وكان يحمل لقب عضو في مجلس الشيوخ الروماني ، ثـم لقب بلقب ملك في حوالي عام ٢٥٠م وجمع الناس عليـه ، فأدرك الرومان ما وراء هذه الدعوة من خطر على مصالحهم ، فأوعز القيصر الى قائده " روفينـــوس " باغتياله ، فقتل وتخلص الرومان منه • وتولى بعده حكم تدمر ولده " خيران) وفي عهده اخذت تدمر دورها في القضايا الدولية ، وما ان قامت الدولـــة الساسانية في عام ٢٢٦م ، تحت زعامة " أردشير بن بابك بن ساسان " (٢٢٦ــ ٢٤١م) حتى بدأ الشرق يضطرب بالصراع بين الروم والفرس • وكان علـــى التدمريين ان يختاروا الانضمام الى احدى القوتين الكبيرتين ، فآثروا الانضمام الى الروم • وتولى بعد (خيران) هذا الملك أذينة ، وكان له ثأر عنـــد الرومان منذ ان قتل قائدهم " روفينوس " أباه (أذينة الاول) وعدم موافقـــة الامبراطور فاليران على ان يأخذ بثأر ابيه من (روفينوس) ، ومن ثم فانه ما ان علم بهزيمة الروم في عام ٢٦٠ على ايدى الساسانيين ، حتى اسرع بالاتصـال بالفرس ، مقدما لهم الهدايا ، وعارضا عليهم صداقته ، الا ان الامبراطـــور الفارسي ، الذى كان يحس في ذلك الوقت انه ملك الشرق والغرب جميعـا ، احتقر العرض التدمرى ، وأمر بالقاء الهدايا في النهر ، وتوعد (اذينة) بسوء المصير جزاء وفاقا على جرأته في مخاطبة ملك الملوك ، وهو لا يعدو ان يكـون شيخا لمدينة صغيرة في بيداء قاحلة ، لا اهمية لها ولا نفع منها •

وعندما علم (اذينة) بموقف الملك الفارسي منه ، قرر الاخذ بثأره من هذا الملك المتغطرس ، فجمع القبائل بظاهر تدمر وجعلها تحت امرة ابنـــه (هروديس) ، وضم اليها فرسان تدمر بقيادة (زبدا) كبير قواده ، والقواســة ورماة السهام تحت قيادة " زباى " ، وحشد معهم بعض الكتائب الرومانيـــة ، وسار على رأس هذا الجيش قاصدا المدائن للانتقام من الملك الفارسي ولانقاذ (فاليريان) الامبراطور الروماني الذى كان قد وقع في الاسر على اثر الهزيمـــة

المخجلة التي لحقت بالروم على ايدى الفرس . وفي اثناء زحف أذ ينة على المدائن وصلته انباء تغلب القائد الروماني (كاليستوس) على الفرس وتشتت شملهم وهربهم، فغير اتجاهه واسرع اليهم لملاقاتهم ، وقد ادركهم قبل تمكنهم من عبور نهر الفرات ، فالتحم بهم وتغلب عليهم، وولى (سابور) مع فلول جيشه مذعورا تاركا امواله وحرمه غنيمة في ايدى التدمريين ، وكتب (اذ ينة) بعد ذلك الى الامبراطور الروماني يخبره بهزيمة الفرس وباخلاصه للامبراطورية ، فأنعم عليه القيصر الرومي بدرجة قائد عام على جميع عساكر الشرق . وتمكن (اذ ينة) بعد ذلك من فتح نصيبين وحران واستقبل هو وجنوده استقبالا عظيما، ثم سار هو وجنوده الى طيسفون عام ٢٦٤م ، فخاف (سابور) وأمر بجمع كل ماعنده من قوات للدفاع عن عاصمته ، وأحكم (اذ ينة) الحصار حولها ، وكاد الامبراطور الفارسي ان يستسلم، لولا ان المؤامرات الرومية قد لعبت دورا خطيرا في افساد نجاح اذ ينة . ذلك ان القائد الروماني "مكريانوس" ــ الذى كان سببا في هزيمة الروم ووقوع فالريان في الاسر ــ قد اعلن الثورة على "جالينو" ونصب نفسه امبراطورا على القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية (آسيا الصغرى والشام ومصر) ، ومن فقد اضطر (اذ ينة) الى رفع الحصار عن الفرس ، وان يعود لاخماد هذه الفتنة الجديدة ، الا انه ماأن بدأ يعد العدة لمواجهة "مكريانوس" حتى علم بقتله ، ثم اتجه الى حمص للقضاء على ولده "كياثوس" ، وبعد ان شدد الحصار على المدينة ، قتل (كاليستوس) سيده (كياثوس) ، ورمى برأسه من فوق السور تحت قدمي (اذ ينة) وفتح الابواب والتمس الامان منه . وبذا انتهت ثورة القائد "مكريانوس" ، غير ان (كاليستوس) سرعان ماعاد الى الثورة من جديد ، ومن ثم فقد أمر (اذ ينة) بعضا من رجاله باغتيال (كاليستوس) ، وعاد الهدوء الى هذه المنطقة الهامة من الامبراطورية بفضل جهود (اذ ينة) ، ومن ثم فقد أغدق عليه القيصر الرومي بلقب "امبراطور على جميع انحاء الشرق" ، اى على الشام والجزيرة وآسيا

الصغرى عدا اجزاء صغيرة منها ، وضربت نقود باسمه صور عليها (اذ ينـــة) ووراءه بعض اسرى الفرس ، واصبح تحت امرته جميع القوات الرومانية المعسكرة في الشرق . واختار (اذ ينة) لنفسه لقبا آخر حبيبا الى نفوذ الشرقيين هــو لقب (ملك الملوك) .

وقام (اذ ينة) باصلاحات اثبتت انه لم يكن قائدا قديرا فقط ، بـــل كان الى جانب ذلك رجل ادارة وسياسة وتسامح ايضا ، فمنع تعصب الوثنييــن على النصارى واضطهادهم لهم ، ومنح كل طائفة حريتها في ممارسة شعائرهـــا الدينية ، واعطى النصارى الحق في بناء الكنائس ، وتعقب اللصوص وقطـــاع الطرق من الجنود الهاربين الذين قاموا بالاعتداء على الآمنين ومهاجمـــة القوافل والمدن والقرى .

وفي عام ٢٦٥م ، اتجه (اذ ينة) الى محاربة الفرس من جديد ، فاتجه الى (طيسفون) وضرب الحصار عليها ، واضطر (سابور) الى ان يظهـــر استعداده لعقد محالفة مع (اذ ينة) ، الا ان الاخير طلب فك أسر " فاليران " وهو شرط في نظر الفرس جد عظيم ، ومن ثم فقد أوقفت المفاوضات بين الطرفين ولكن لسوء حظ (اذ ينة) تغير الموقف لمصلحة الفرس ، اذ عبر " القوط " البحر الاسود ، منتهزين فرصة غياب اذ ينة وابتعاده عن آسيا الصغرى وبلاد الشـــام ونزلوا بميناء هرقلية ، واتجهوا نحو " قبادوقيا " ، ومن ثم فان (اذ ينة) اضطـر الى رفع الحصار عن مدينة الفرس ، والعودة لقتال الغزاة الجدد ، الا ان القوط سرعان ماعلموا بعودة (اذ ينة) ، فعادوا الى ميناء هرقلية ، ثم ابحروا منهـــا عائدين الى بلادهم . فقرر (اذ ينة) الرجوع الى العراق لفتح (طيسفـــون) وبينما كان في حمص لاراحة جنوده ، انتهز (معنى) ابن اخيه (خيران) هذه الفرصة ، فقتل هو وعصابته عمه (اذ ينة) وابن عمه (هيرودس) لاغتصاب عمه منه ملكه الذي ورثه عن ابيه ، ونادى بنفسه ملكا على المملكة التي كونها (اذ ينـــة)

ولكنه ماكاد يتربع على العرش حتى انتقمت منه سيوف حمص عام (٢٦٦ – ٢٦٧م) ٠

انتقل الملك بعد مقتل (اذ ينة) و (معن) الى (وهبلت) او (هبلات) ابن (اذ ينة) من زوجته (الزباء) ويعرف في اليونانية ب (اتينودورس) ، وكان قاصرا ، لذ لك تولت الوصاية عليه أمه (الزباء) فعلمته اللاتينية والفروسية وهيأته ليكون ملكا كقياصرة الرومان او اكاسرة الفرس ، ومنذ ان تولت الملك بدأت تعمل على تكوين دولة عربية قوية تحت زعامتها ، وبخاصة انها أدركت بفطنتها السياسية ان اعداء تدمر ، انما هم الرومان ، والذ ين لا يفكرون الا في مصلحة روما فحسب ٠ ومن ثم فقد بدأت تتقرب الى العناصر العربية المستوطنة في المدن ، فضلا عن الاعراب الذ ين كانت ترى انهم عماد ها في القتال وسند ها في الحروب. وكان بداية النزاع بين الزباء والرومان ، يوم ارسل "جالينو" بجيش لاحتلال تدمر والقضاء على الزباء قبل ان يستفحل خطرها ، متظاهر بأنه يريد محاربة الفرس ٠ الا ان الملكة العربية سرعان ماأكتشفت السر ، ومن ثم فقد دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس ، كتب النصر فيها للزباء ، وحاقت الهزيمة بالروم ، وفي نفس الوقت ، خافت الملكة ان يستغل الفرس الفرصة فيوجهوا اليها ضربة قد تكون غير مستعدة لها ، ومن ثم فقد انشأت حصنا على الفرات ، دعته (زنوبيا) نسبة اليها ٠

ووجهت (الزباء) نظرها بعد ذ لك نحو مصر ، ووضعت الخطط للاستيلاء عليها ، بعد ان مهدت لنفسها الدعوة فيها باعلانها انها مصرية ، وانها من نسل الملكة (كليوباترا) ، فلها اذ ن فيها مايسمح لها بالتد خل في شئونها ٠ واخذت تترقب الفرص وتتحين الاسباب ، فلما قتل القيصر (غاليانس) عام ٢٦٨م ، وانتقل الحكم الى (اوريليوس فلوديوس) ٢٦٨ – ٢٧٠م ، وفي نفس الوقت كان الالمان والقوط قد بدأوا يهاجمون القسم الغربي من

الامبراطورية الرومانية ، مما دفع (بروبوس) الحاكم الروماني في مصر ، الى ان يخرج بأسطول الاسكندرية لمطاردة القوط ، وهنا بدأ الزعماء المصريون وعلى رأسهم تيماجنيس وفرموس — يحرضون الزباء على فتح مصر ، بل ويقدمون لها العون المادي للمساعدة على هذا الفتح ، وأمرت الملكة قائدها (زبدا) بالاتجاه الى مصر، وكان على رأس جيش قوامه سبعون الف رجل ، وهناك دارت معركة رهيبة بين الفريقين انتهت بانتصار (زبدا) قائد تدمر الذي قرر العودة الى تدمر تاركا في مصر حامية صغيرة من خمسة آلاف رجل بزعامة (تيما جينيس) الذي عين نائبا عن الملكة على مصر ، فلما سمع (بروبوس) بهجوم التدمريين وتغلبهم على الرومان ، اسرع عائدا الى مصر، فألف جيشا من المصريين الموالين للرومان وزحف على الاسكندرية ، واخذ يتعقب التدمريين ، واعمل فيهم السيف ، فلما سمعت الزباء بذلك ، أمرت قائدها بالعودة ثانية الى مصر ، فجرت معارك بين الطرفين انتهت بانتصار التدمريين على (بروبوس) عند (بابلون) اي (الفسطاط) وكتب النصر لجيش الملكة في مصر. وانتهى الامر باتفاق بين الزباء والرومان على ان يكون حكم مصر مشتركا بينهما ، فوافقت روما على بقاء جيوش تدمر في مصر، مع اعتراف تدمر بسيادة الرومان عليها . وقد عثر على عملات تدمرية نقشت في الاسكندرية في عامي ٢٧٠، ٢٧١م وعلى وجهها صورة القيصر (اورليان) بجانب صورة "وهب اللات" (ابن الزباء) مما يدل على الحكم المزدوج بينهما .

ولم يدم هذا الاتفاق بين الرومان والملكة طويلا ، فقد ضغط سادات روما على الامبراطور بأن ينقذ الامبراطورية مما حاق بها من تصدع في اوروبا والشرق ، ولا سيما ان فتح الزباء لمصر والاستيلاء على الاسكندرية — اهم مدن الامبراطورية الرومانية قاطبة بعد روما — كان ضربة اصابت الروم في الصميم . وعندما علمت الملكة بعزم الامبراطور الروماني على القضاء عليها ، قررت القيام

بعمل سريع قبل مباغتة القيصر لها ، فألغت الاتفاق المعقود مع الرومان ومحو صورة القيصر الروماني من النقود لتبرهن على قطع علاقتها بالقيصر وعدم اعترافها بالسيادة الاسمية الرومانية على مصر ، وأمرت كذلك بضرب صورة (وهبلات) وحده مع اللقب الامبراطوري المخصص لقياصرة روما ، وفي ذلك تحدى صريح واعلان العداء لروما · وهناك رواية تذهب الى ان (الزباء) قد تفاوضت مع الملكة (فيكتوريا) عاهلة اقليم الغال ، لتوحيد الخطط في مهاجمة القيصرية الرومانية واقتسامها ، وبدأت جيوشها تتوغل في آسيا الصغرى ، واقامت الحاميات باتجاه الشمال الغربي حتى (انقره) وظلت جيوشها تتقدم دونما اذنى مقاومة ، حتى (خلقدونية) مقابل بيزنطة · وهكذا استطاعت ملكة البادية ان تكون لنفسها ولابنها امبراطورية انتزعتها من بين مخالب النسر الروماني وهو في أوج قوته ، غير ان تنفيذ هذه الخطة ، دعا الزباء الى ان تسحب كثيرا من قواتها من مصر ، وانتهز اورليان الفرصة ، ونجح قائده في ان يلحق بالتدمريين في عام ٢٧١م ، هزيمة كانت نتيجتها خروج مصر من امبراطورية الزباء ، وكان من اخطر النتائج التي تمخضت عن فقد مصر ، ان الزباء بدأت تفقد الثقة بنفسها وبجيشها ، كما شجعت اهل (خلقدونية) بآسيا الصغرى على صد هجوم التدمريين ، املا في نجدة قريبة تأتي من القيصر الروماني ، وهذا ما حدث بالفعل ، اذ سرعان ماقدمت الجيوش الرومانية بقيادة القيصر نفسه ، فعبرت البسفور ، وطردت التدمريين من " بثينية " ثم اتجهت الى (غلاطيه) ف (قبادوقيا) حتى بلغت (انقره) · وهكذا استطاع اورليان في عام ٢٧٢م ، ان يخضع الحاميات التدمرية في آسيا الصغرى ، وان يتابع مسيرته حتى سوريه · وحاولت جيوش الزباء ان توقف تقدم جيوش الرومان ، في الوقت الذي أشاع فيه الرومان بين الناس بأن هناك تنبوءات الهية بسقوط تدمر ، لاقناعهم انه من العبث مقاومة القيصر وجنوده ، وانه من الخير ترك المقاومة والاستسلام · وقد أثرت هذه الشائعات في عقول الكثيرين ، فقضت على معنويات التدمريين

الوثنيين الذين يدينون بهذه الخرافات ويؤمنون بها ، ومع ذلك فقد استعدت الملكة لملاقاة (اورليانوس) عند مدينة (انطاكية) وكانت هي على رأس الجيش ، اما القيادة فكانت لقائدها (زبدا) ، وتحقق النصر للملكة (الزباء) وجيوشها في بادئ الامر وشتتوا شمل الجيش الروماني الا ان القيصر قد أمر جنوده بالرجوع الى مسافات بعيدة ، ليوهم التدمريين انه قد فر ، فاذا ساروا في اثرهم وابتعدوا عن قواعدهم باغتهم بالهجوم ، فلا يتمكن فرسان تدمر من هزيمتهم لثقل اسلحة الفرسان ومعداتهم وبطء خيلهم بالقياس الى خيل الرومان . وهذا ماحدث ، فقد خدع التدمريون وظنوا رجوعهم هزيمة ، فتعقبوهم الى مسافات بعيدة ، وفجأة انقلبت الكتائب الرومانية على التدمريين ، واطبقوا عليهم وأعملوا فيهم السيوف ، وانهزموا هزيمة منكرة الى مدينة (انطاكية) . وقررت الملكة سرعة الارتحال عن انطاكية لاسباب عديدة ، منها ان القوم هناك كانوا يميلون الى جانب الرومان بعواطفهم ، فهناك جاليات يونانية ذات نفوذ في المدينة تفضل حكم الرومان على حكم الشرقيين ، وهناك كره النصارى للزباء بسبب موقفها من الاسقف (بولس السميساطي) الذى عزله مجمع انطاكية ، ولكنها لم تنفذ قرار العزل ، وهناك كراهية اليهود للتدمريين . وتلى ذلك تعقب القيصر للملكة حتى وصل الى حمص ، وهناك تقابل الفريقان للمرة الثانية وكان النصر للتدمريين في الجولة الاولى ، ثم هزيمة لهم في الجولة الثانية ، مما اضطرها الى ترك حمص والاحتماء بتدمر نفسها ، ودخل (اورليان) حمص وتوجه بالشكر الى اله الشمس ، وتعهد بتوسيع معبده وتجميله . وادرك القيصر ان النصر الحقيقي لن يتم الا بالقبض على (الزباء) وفتح تدمره لذلك قرر الزحف اليها بأقصى سرعة قبل ان تتمكن الملكة من تحصين مدينتها ومن الاتصال بالفرس وبالقبائل العربية في البادية ، فيصعب عندئذ الاستيلاء عليها ، فسار مسرعا حتى بلغ المدينة والقى الحصار على تدمر ، غير ان المدينة قاومت بشدة ، وعرض اورليان على الزباء التسليم بشروط معتدلة ، غير ان الملكة رفضت العرض

بإباء وشمم ، مذكرة اياه بأنها تفضل مصير كليوباترا على عار الاستسلام له وانها سوف تلقنه درسا قاسيا على جرأته في الكتابة اليها ، طالبا منها الاستسلام ، عندما يحين الوقت ، ويأتي اليها اعوانها من الفرس والعرب والارمن . ومن الجدير بالذكر ان الملكة لم تجد عونا من كل هؤلاء ، فقد كانوا هم انفسهم في شغل شاغل عنها ، ومن ثم فقد قررت ترك عاصمتها للاقدار ، والتسلل منها ليلا للوصول بنفسها الى الفرس لعلهم يرسلون لها نجدة تغير الموقف . ولما علم اورليانوس بنبأ هرب الملكة ارسل رجاله في أثرها وامرهم بالقبض عليها مهما كلفهم الامر ، ونجح هؤلاء الرجال في القبض عليها وأعادوها الى (اورليانوس) وهكذا لم يعد امام تدمر سوى الاستسلام ، ومن ثم فقد فتحت ابوابها في اوائل عام ٢٧٣م للقيصر روما ، فدخلها اورليانوس دخول الفاتحين ، واقام حاكما رومانيا عليها مع عدد من الرماة . وهكذا عادت تدمر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية ، بعد ان شقت عصا الطاعة منذ أسر فاليريان عام ٢٦٠م .

واخذت الزباء الى حمص ، وهناك عقد مجلس لمحاكمة الملكة العربية العظيمة ورجال بلاطها . وتذهب بعض الروايات الى ان الزباء قد تنصلت من مسئوليتها عما حدث ، فضلا عن اعترافها بأنها لم تكن الا الاحتقار لامثال جالينوس وكلوديوس ، ولكنها تعترف لاورليانوس وحده بأنه ملك فاتح ، الا ان كثير من المؤرخين ينكرون هذه الرواية التي لا تتفق وما كانت عليه الزباء من سمو الاخلاق والشجاعة ، وأيا ماكان نصيب هذه الرواية من الخطأ او الصواب فان اورليانوس قد أمر باعدام بعض رجال الزباء ، وان كان قد أبقى عليها هي وابنها (وهبلات) بغية الحاقهما بموكب النصر الذى سوف يقيمه عند دخوله روما ، عاصمة الامبراطورية الرومانية . وفي اثناء رحيله الى روما جاءته الانباء بقيام ثورة عاتية في تدمر ، واخرى في مصر ، وهنا لم يتردد اورليانوس في ان يولي وجهه شطر سوريا ، وقضى على ثورة التدمريين ، وانهال عليهم بالتنكيل ، ولم

ينج من عقابه الرهيب احدا من الشيوخ او النساء او الاطفال . وبذلك فقدت المدينة كل عظمتها القديمة ، واخذ اورليانوس رماة السهام والاقواس في تدمر ليعملوا في خدمة الجيش الروماني في افريقية .

اما الملكة الزباء فقد انتهى الامر بها بأن تقبع في بيت خصص لها في "تيبور" بايطاليا مع اولادها وان تعتزل السياسة والشرق . اما تدمر فقد ذهب كل مجدها ولم تعد سوى قرية صغيرة وقلعة من قلاع الحدود في عهد دقلديانوس (٢٨٤ــ ٣٠٥م) ، وفي حوالي القرن الخامس الميلادي كانت تدمر مقاطعة تابعة لولاية فينيقية ، وعين فيها ثيودوسيوس (٤٠٨ــ ٤٥٠م) ، فرقة من الجنود لحراستها وحمايتها من هجمات رجال البادية . وفي العام الاول من حكم (جستنيان) ٥٢٧ــ ٥٦٥ م اصبحت تدمر على خط الحدود الخارجية للامبراطورية ومن ثم فقد أمر الامبراطور بتقوية حاميتها واصلاح ماتهدم من مبانيها ، فضلا عن تحصين قلاعها واسوارها وتحسين موارد مياهها ، ثم اتخاذها مقرا لحاكم ولاية فينيقية . ومع ذلك ، فان تدمر بدأت تفقد اهميتها شيئا فشيئا ، ورغم الاشارة اليها كمركز أسقفي في الصحراء ، فان الصحراء قد تغلبت عليها يوم فقد سكانها السيطرة على هذه الصحراء ، وظلت كذلك حتى فتحها (خالد بن الوليد) صلحا في عام ٦٣٤م ، على ايام الخليفة ابي بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ غير انها لم ولن تعد كما كانت ايام الزباء .

واخيرا فانه يوجد في تدمر في الزمن الحاضر ، ثروة تاريخية مطمورة تحت الانقاض ستفيدنا ولا شك فائدة كبيرة في تدوين تاريخ المدينة وتاريخ صلاتها بالخارج . ومن المواضع العديدة التي ذكرها (بطليموس) في مقاطعة تدمر (بالميرا Palmyra) ، وهي تدمر العاصمة ، ثم (الرصافة) وهي مدينة قديمة ورد خبرها في النصوص المسمارية في نص يعود الى عام ١٠٨٠ق.م وقد اشتهرت بوجود ضريح القديس (سرجيوس) بها وهو مقدس عند الغساسنة .

الغساسنة

قامت على اطراف الصحراء في القرنين الخامس والسادس الميلادي دويلتان جديدتان ، ازدهرت احداهما حول دمشق وعرفت بدولة الغساسنة ، اما الاخرى فقد ازدهرت في الحيرة بالقرب من ضفاف الفرات وعرفت بدولة اللخميين . وكانت هاتان الدويلتان تابعتين لامبراطورية بيزنطة وفارس — وكانتا بمثابة مركزي حراسة لهما على حدود الصحراء . وقد عرف ملوك الغساسنة ببني جفنة ايضا ، وقد نقلت كلمة (غسان) في زعم الاخباريين من اسم ماء يقال له (غسان) ببلاد (عك) بزبيد ورميع ، نزل عليه آل غسان ، وأصلهم من الازد ، بعد خروجهم من اليمن قبيل حادث سيل العرم او بعده ، فلما أقاموا عليه وشربوا منه ، اخذوا اسمهم منه ، فسموا (غسان) ، وعرف نسلهم بالغساسنة . اما سبب تسميتهم بآل جفنة فلانتسابهم الى جد اعلى يدعونه (جفنة بن عمرو فريقيا بن عامر) على رأى ، او الى (جفنة) قبيلة من غسان من اليمن .

وتاريخ دولة الغساسنة هذه غامض لقلة المصادر ، ولامتزاج الحقائق فيه بالاساطير ، ولضياع معظم آثار بني غسان ، ومن ثم فلا تتفق المصادر العربية مع اليونانية الا في القدر اليسير ، بل ان المؤرخين العرب انفسهم انما يختلفون في عدد الملوك وسني حكمهم واسمائهم . وربما يرجع ذلك الاختلاف الى اختلاط اخبار آل غسان بالقبائل العربية التي سبقتهم الى سوريا ، واقتصار مؤرخي العرب على الناحية الادبية من تاريخ الغساسنة ، واهمال تاريخهم السياسي ، اضف الى ذلك هذا التشابه في الاسماء بين حارث ومنذر ونعمان ، واختلاط ذلك ايضا بالتشابه والتقارب مع اسماء ملوك المناذرة .

ويزعم الاخباريون ان الذى قاد الغساسنة في خروجهم من اليمن ، هو عمرو المعروف بـ (فريقيا) وهو ابن عامر ماء السماء بن حارثة ، وقد نزح معه من

اليمن قومه من الازد ، فنزل المدينة ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر ، ومنهم الاوس والخزرج ، ونزل مكة رهط حارثة ابن عمرو بن عامر ، وهم خزاعة ، ونزل جفنة بن عمرو بن عامر بالشام وهم الغساسنة ، وقد استوطنوا ارض حوران حيث كان هناك قوم يعرفون " بالضجاعمة " من قبائل بني سليح بن حلوان من قضاعة ، قد استقروا هناك ورضخوا لحكم الرومان ودانوا بالنصرانية من قبل مجيء الغساسنة ، وقد استقر الغساسنة ايضا في نواحي الجنوب الشرقي من دمشق على مقربة من الطرف الشمالي لطريق النقل الهام الذي كان يربط بين "مأرب" في الجنوب ودمشق في الشمال . وما ان يمضي حين من الدهر على هجرة الغساسنة الى الشام حتى تبدأ الخلافات بينهم وبين الضجاعمة . وقد بدأ هذا الخلاف عندما فرضت سليح (وهم من الضجاعمة) جباية سنوية قدرت بدينار على كل رجل ، وكان من الطبيعي ان تؤدي جباية هذه الضريبة من غسان ، الذين (كانوا لا يعرفون الجباية) ، الى صدام بينهم وبين عرب بني سليح ، ثم بينهم وبين الروم الذين فرضوا حمايتهم وسيادتهم على بني سليح . وتم اللقاء الاول بين الغساسنة — الذين قتلوا الجابي السليحي — وبين عساكر الروم الذين يظن انهم كانوا من سليح ، في موضع عرفه العرب بوادي الكسوة ، نظرا لسلبهم كسوة عسكر الروم الذين قتلوا في المعركة . وهكذا عرف الروم قوة بني غسان ، فصالحوهم (على ان تعطي غسان الذمة ، والدخول والخروج من البلد والمرعى والنصرة ضد العدو ، والمواصاة والعدل) . وهكذا ثبت الغساسنة اقدامهم في ارض الشام الى جانب السليحيين . وكان من الطبيعي ان ينتهي الامر بانتزاعهم السيادة على كل البلاد من الضجاعمة رؤساء سليح ، بعد عدد من الوقائع بين غسان وبين الروم وسليح " الذين كانت اجسامهم مع قيصر وقلوبهم مع غسان " منها : يوم بالعة الذي انهزمت فيه الروم ، ومنها اللقاء الذي تم بمرج الظباء وهو يوم حليمة الذي وقفت فيه قبائل العرب ، من سليح وكنانة وجذام الى جانب الروم حتى وافقت غسان على الصلح نظير دفع الجزية .

وكانت المطالبة بها هذه المرة بالقرب من باب دمشق الذى عرف لذلك السبب ب (باب الجابية) ، وهذا يعني تقدم الغساسنة نحو قلب بلاد الشام ، ممـــا ادى الى الحرب من جديد . ووقفت سليح الى جانب الروم ، بينما اتت المعونة الى الغسانيين من بني عمومتهم في يثرب ، وانتهى الامر بانتصار غسان حتـــى اضطر قيصر الى صلحهم على ان لغسان ملك الشام ، وان لملكهم طعمة علـــى الروم ، وان ينصروه في الحرب .

والجدير بالذكر ان العاصمة السياسية للغساسنة يبدو انها كانت في البدء مخيما متنقلا ، ثم استقرت بعد ذلك في "الجابية" في منطقة الجـولان جنوب غربي دمشق ، كما كانت في بعض الوقت في "جلق" في جنـــــــوب حوران .

اما عن ملوك الغساسنة فتذكر رواية (وهب بن منبه) ان اول من ملك من الغساسنة هو (عمرو بن جفنة) الذى حقق الانتصارات التي سبق ذكرهـــا على الروم ، وربما حدث ذلك في اواخر القرن الخامس الميلادى ، او قبـــل ذلك بقليل . ويعد (الحارث بن جبلة) المعروف لدى الاخباريين ب"الحارث الاعرج" و (الحارث الاكبر / ٥٢٨ ـ ٥٦٩ م) اول امير نعرف من امره شيئـــا واضحا يذكر من امراء آل جفنة ، وهو في نظر (نولدكه) (ارتياس) الـــذى ذكره المؤرخ السرياني (ملالا) على انه كان عاملا للروم . وهناك مايشير الـــى نشوب حرب بين الحارث والمنذر الثالث امير الحيرة ، ربما بسبب العـــداوة التي انتقلت اليهم من العداوة التي كانت بين الفرس والروم ، وربما لأن اميـــر الحيرة ادعى ان القبائل العربية النازلة فيما بين دمشق وتدمر ، انما تخضـــع لسلطانه ، فنازعه الامير الغساني هذا السلطان . وأيا ماكان السبب ، فـــان الرجلين اشتبكا في ابريل من عام ٥٢٨ في حرب كتب النصر فيها للحـــارث

الغساني ، ومن ثم فقد منحه (جستنيان) قيصر الروم ، لقب ملك — وهو لقب لم يمنحه الروم لواحد من عمالهم في سورية من قبل — كما بسط سلطانه على قبائل عربية متعددة ، بغية ان يجعل منه خصما قويا لامير الحيرة ، وان كان (نولدكه) يشك في منح القيصر الرومي الحارث لقب ملك ، ذلك لأن هذا اللقب كان خاصا بقياصرة الروم ولا يمنح لغيرهم ، ويرجح ان يكون (جستنيان) قد منحه لقب (بطريق) ولقب (سيد القبيلة) (فيلارخوس) · ولقب البطريق من القاب الشرف الفخمة عند الروم ولصاحبه امتيازات ومنزلة في الدولة ، ولذلك فلم يكن يمنح الا لعدد قليل من الخاصة · والجدير بالذكر ان نص (أبرهة) الذى ورد فيه ذكر اسم (الحارث بن جبلة) لم يورد لقب ملك مقترنا باسم الحارث ، ويدل ذلك على ان (ابرهة) قد اتبع الاصول الدبلوماسية المقررة عند البيزنطيين ، وان لقب ملك لم يكن لقبا رسميا للحارث وكان ذلك عام ٥٤٢ م ·

هذا وقد اشترك (الحارث بن جبلة) في المعركة التي نشبت بين الفرس والروم في ١٩ ابريل عام ٥٣١ م ، وانتهت بهزيمة الروم · وقد اثار تصرف الحارث في هذه الحرب شك الروم في اخلاصه لهم ، والحذر منه ، اذ ما كاد هذا الامير يعبر نهر دجلة مع قائد الروم (بليزاريوس) حتى عاد فرجع الى مواضعه بعد ان سلك طريقا آخر غير الطريق الذى اتبعه معظم الجيش دون ان يقوم بعمل يذكر في هذه الحرب ، مما جعل الروم يشكون في صداقته لهم ، ويراقبون حركاته ، خوفا من انقلابه عليهم ·

وفي عام ٥٤٤ م تجدد النزاع ثانية بين الحارث والمنذر امير الحيرة ، وينتهي القتال بهزيمة الامير الغساني ، واسر احد اولاده ، الذى قدمه المنذر قربانا للالهة العزى ، وفي عام ٥٤٥ م يسود السلام بين الفرس والروم ، ولكن

الامر كان جد مختلف بالنسبة لحلفائهما من المناذرة والغساسنة ، اذ سرعان مايتجدد القتال بينهما · وهناك ، وعلى مقربة من "قنسرين" تنشب بين المنذر والحارث معركة رهيبة في عام ٥٥٤ م ، انتهت بقتل المنذر نفسه وكذلك ابن الحارث الذى يدعى "جبلة" · ويرى (نولدكه) ان هذه المعركة هي معركة يوم حليمة وذلك لان حليمة بنت الحارث كانت تحرض الرجال على القتال ، او لأن اباها قد اعلن انه سوف يزوجها لمن يقتل المنذر ، او لانها كانت قد اقبلت على مائة من المحاربين تطيب اجسامهم وتلبسهم الاكفان والدروع ، وهناك آراء اخرى تذهب الى ان (حليمة) هذا ، كان اسم مكان وليس اسما لامرأة ·

وعلى اى حال ، فهناك مايشير الى ان الحارث قد اعتنق النصرانية على المذهب (المونوفيزى) القائل بوجود طبيعة واحدة للمسيح ، ومن ثم فقد سعى لدى الامبراطورة "ثيودورة" زوج الامبراطور جستنيان ، لتعيين (يعقوب البرادعي) ورفيقه (ثيودورس) أسقفين للمقاطعات السورية العربية ، فنجح في مسعاه هذا في عام (٥٤٢ — ٥٤٣ م) وبذلك وطد هذا المذهب في بلاده · وكان لجهود الحارث ومسعاه في حماية هذا المذهب ، فضل كبير في انتشاره وبقائه بين السريان والعرب في الشام · وقد زار الحارث القسطنطينية في عام (٥٦٣ م) فاستقبل استقبالا حافلا واثر اثرا عميقا في نفوس اهل العاصمة وفي رجال القصر والحاشية · وتذهب بعض الروايات الى ان الغاية التي من اجلها ذهب الحارث الى القسطنطينية هي مفاوضة رجال الحكم فيمن سيخلفه على عرشه بعد وفاته من اولاده ، وفي السياسة التي يجب سلوكها تجاه امير الحيرة · هذا وقد وصلت دولة الغساسنة في عهده ذروة اتساعها ، فقد كانت تمتد من قرب البتراء الى الرصافة شمالي تدمر ، وتشمل البلقاء والصفا وحران ، واصبحت بصرى العاصمة الدينية في المنطقة ، فضلا عن

شهرتها كمركز تجاري هام ٠

وجاء بعد الحارث ابنه المنذر (٥٦٩ — ٥٨١ م) أو (٥٧٠ — ٥٨٢ م) وقد عرف ب Alamundaros عند اليونان والسريان ، وقد استهل حكمه بالحرب مع ملك الحيرة قابوس ، والظاهر ان عرب الحيرة كانوا هم البادئين بها ، فانتصر عليهم في يوم ٢٠ مايو ٥٧٠ م في معركة عين أباغ ٠ وحدث في عهد هذا الامير ان ساءت العلاقات بين الغساسنة وبين قيصر الروم الامبراطور جستنيان الثاني " (٥٦٥ — ٥٧٨ م) ، وربما كان ذلك بسبب الخلافات المذهبية بين الفريقين ، وتعصب المنذر الغساني للمذهب المونوفيزي ، بل ان هناك من يذهب الى ان المنذر قد عقد مجمعا كنسيا اعلن فيه هرطقة القائلين بالتثليث ، وعلى رأسهم الامبراطور نفسه ، وربما لأن سياسة المنذر كانت هي السبب في استيلاء الفرس على (Rhomaye) ، وأحس المنذر بأن القيصر يدبر له مؤامرة ، وانه امر عامله البطريق (مرقيانوس) بأن يحتال عليه لقتله ، تمرد على الروم ، وغادر ارضهم الى البادية ، فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة المؤاتية فأمعنوا في غزو بلاد الشام ، وايقاع الرعب في نفوس سكان القرى المجاورة لهذه الحدود مما حمل الروم على مراسلة المنذر والتودد اليه لاسترضائه ، حتى اذا ماتلطف الجو ارسلوا اليه البطريق (يوسطنيانوس) ليجتمع به في مدينة الرصافة عند قبر القديس (سرجيوس) لاقناعه بترك موقفه والموافقة على العودة الى محلسه ٠ وعند القبر المقدس عقد الصلح بينهما في صيف عام ٥٧٨ م ، فعاد المنذر الى ارضه ، ليقوم بالدفاع عن حدود الشام ٠ هذا وقد قام المنذر بزيارة القسطنطينية في عام ٥٨٠ م مصطحبا اثنين من ابنائه ، وقد استقبل هناك بكل احترام وتبجيل وأنعم عليه الامبراطور تيبيريوس الثاني (٥٧٨ — ٥٨٢ م) ، بلقب (Rex) وبالتاج وهو لقب كان له شأن كبير في امبراطورية الروم ، وقد أغدق القيصر عليه بالهدايا الثمينة النفيسة مما لم ينعم به اي ملك عربي من قبل ، كما

انعم على ولديه بدرجات عسكرية . هذا وقد اطلق مؤرخو الروم على المنذر لقب " المنذر ملك العرب " .

وقد قام المنذر بتجديد بناء كنيسة الرصافة ، كما بنى صهاريج لايصال الماء الى الرصافة مدينة القديس (سرجيوس) ذى المكانة العظيمة عند عرب الشام ، كذلك فقد طلب المنذر وهو في القسطنطينية من البيزنطيين مساعدته في بناء قصر يكون اعظم قصر غساني بني ، حتى ايامه ، وذلك بأن يرسلوا اليه احسن المعماريين والبنائين الحاذقين ، فلبى البيزنطيون طلبه فأمدوه بما يحتاج اليه من معماريين ومن مواد بناء . ومن أبنيته الخربة المعروفة اليوم بناء يعرف باسم البرج ، وقد عثر على اسمه مدونا على حجارة من ذلك البناء .

على ان العلاقات بين المنذر والروم ، سرعان مابدأت تسوء من جديد ، وربما كان السبب هذه المرة فشل المحاولة التي قام بها الروم لغزو الفرس ، بسبب هدم الجسر المنصوب على الفرات ، واتهام المنذر بذلك ، وزاد الطين بلة ان المنذر اراد استرضاء الروم فأغار على الحيرة واحرقها بالنار ، ثم عاد محملا بالغنائم الكثيرة ، غير ان هذا النجاح الساحق الذى حققه المنذر على اللخميين لم يمح ريبة الروم في ولائه لهم ، وانما اعتبروه تحديا لهم ، ورغبة منه في الخروج على طاعتهم ، ومن ثم فقد انتهزوا فرصة افتتاحه لكنيسة في حوارين ، وقبضوا عليه وارسلوه الى العاصمة البيزنطية ، مع احدى نسائه وبعض بناته واولاده ، حيث بقي هناك الى ان تولى "موريس" (٥٨٢ ــ ٦٠٢م) العرش ، فأمر بنفيه الى صقلية في عام ٥٨٢ م فضلا عن قطع المعونة السنوية عن آل جفنة .

اثار عمل الروم هذا ثائرة ابناء المنذر ، فتركوا ديارهم ، وتحصنوا بالبادية ، واخذوا يهاجمون منها حدود الروم ملحقين بها أذى شديدا ،

فاضطر القيصر على اثره ان يوعز الى القائد (ماكنوس) بتجهيز حملة من ابناء المنذر ألحق بها احد اخوة المنذر ، وكان قد أعد ليتولى مقام اخيه ، غير انه توفي بعد ايام . ولما كان من الصعب على الروم مهاجمة أبناء المنذر في البادية ، عمد القائد الى المكيدة ، فأرسل الى النعمان كبير ابناء المنذر انه يريد مقابلته للاتفاق معه على وضع شروط للصلح . وقد ظن الامير ان القائد صادق فيما دعا اليه فذهب لمقابلته ، فقبض عليه الروم ، وارسلوه الى العاصمة حيث حجروا عليه فيها ، وهكذا تصدع ملك الغساسنة . وانقسم امراؤهم شيعا واحزابا تركت بعضها ديارها فهاجرت الى العراق وتشتت الباقون ، ولم يبق لهم شأنا يذكر ، ولم يشر الكتبة السريان او البيزنطيون الى ملك الغساسنة بعد هذا الحادث ، وقد عقب هذا التصدع حدوث اضطراب في الامن وفوضى بين القبائل التي اخذت تتنافس بينها للحصول على الرئاسة والسيادة ، مما حمل البيزنطيين على التفكير في اختيار رئيس قوي من سادات القبائل المتنافسين ليقوم بضبط هذه القبائل واعادة الامن الى نصابه وحماية الحدود من هجمات عرب الحيرة ، ولكن دون جدوى ، حتى استطاع الفرس على ايام "كسرى أبرويز" (٥٩٠ — ٦٢٨ م) غزو سوريا ، فاستولوا على انطاكية ودمشق وبيت المقدس وخلقدونية ، ثم فتحوا مصر في عام ٦١٩ م ، وان كان فيما يبدو ان هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) حين نجح في استعادة سوريا عام ٦٢٩ م ، ربما استعمل الغساسنة مرة اخرى ، بدليل انهم قد حاربوا المسلمين مرارا في جانب الروم ، وان خالد بن الوليد قد اوقع بهم في "مرج الصفر" جنوب دمشق عام ٦٣٤ م .

وأيا ما كان الامر ، فان الروايات العربية تنظر الى "جبلة بن الايهم" على انه آخر الغساسنة وانه قد حارب المسلمين في جانب الروم في موقعة اليرموك عام ٦٣٦ م .

مملكـــــة كنـــدة

كندة هي قبيلة قحطانية تنسب الى ثور بن عفير بن عدى ابن الحارث ابن مرة ، وينتهي نسبه الى كهلان بن سبأ، وقد عرفت عند الاخباريين ب (كندة الملوك) ، لأن الملوك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان ، ولانهم ملكوا اولادهم على القبائل . وكانوا يتعززون بنسبهم الى كندة ، وكندة هي (كدت) وهي القبيلة التي ورد ذكرها في نص أبرهة ، وفي نصوص عديدة قبل هذا العهد ، اذ ورد ذكرها في احدى النصوص التي تنسب الى واحد من ملوك سبأ وذى ريدان ، ويرجع الى النصف الثاني من القرن الاول قبل الميلاد ، وقد جاء في هذا النص انه في عهد الملك " شعراوتر " انضمت كندة والتي كان يحكمها " ربيعة " من آل ثور ، والذى كان ملكا على قحطان ايضا ، الى صفوف اعداء ملك سبأ وذى ريدان . وكانت كندة مستقلة وعلى رأسها ملك ، في ايام " الشرح يحصب " ملك سبأ ، وكان ملكها اذ ذاك من المناهضين المعادين للملك " الشرح يحصب " واشترك في الحلف الكبير الذى تألف ضد مملكة (سبأ وذى ريدان) ، وقد منيت (كندة) بهزيمة على يد جيش سبأ ووقع ملكها في الاسر وكان يدعى (مالك) ، وفقدت كندة بعد هذا العهد استقلالها في وقت لا نستطيع تحديده ، لعدم ورود شيء عنه في النصوص ، وصارت خاضعة لحكم دولة سبأ وذى ريدان .

واول من ذكر اسم كندة من المؤلفين الكلاسيكيين هو (نونوسوس) وقد دعاها باسم (Kindynoi) اى كندة ، وذكر انها وقبيلة (مادينوى) كانتا من اشهر القبائل العربية عددا ومكانة ، يحكمها رجل واحد اسمه (قيس) ، وتعتبر كتابات الاخباريين من اهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في

دراسة مملكة كندة ، ويأتي في مقدمة هؤلاء الاخباريين ابن الكلبي وله مؤلف خصصه لتاريخ كندة ، سماه : (كتاب ملوك كندة) ، وله مؤلفات اخرى لها علاقة بهذه القبيلة ، وابو عبيدة والاصمعي وغيرهم .

ويذكر الاخباريون ان مواطن كندة الاصلية كانت بجبال اليمن مما يلي حضرموت ، وان جماعات من كندة قد غادرت مواطنها في النصف الاول من القرن الرابع الميلادي ، واتجهت شمالا حتى نزلت في مكان دعي فيما بعد "غمر كندة " او "غمر ذي كندة " — وهي ارض لبني جنادة بن معد في نجد ، وتقع وراء "وجرة "على مسيرة يومين من مكة . على ان الاخباريين انما يختلفون في اسباب هجرة الكنديين الى الشمال ، فذهب فريق الى ان السبب انما كان حربا استعر أوارها بين حضرموت وكندة ، ثم طال أمدها حتى كادت ان تقضي على الكنديين ، ومن ثم فقد اضطروا الى النزوح الى الشمال، فرارا بأنفسهم من الفناء .

ويرى آخرون ان السبب انما كان لأن "حسان بن تبع "كان أخا لحجر آكل المرار من أمه ، وان حسان كان قد دوخ بلاد العرب وسار في الحجاز (ربما حوالي عام ٤٨٠ م) ، وعندما اراد العودة الى اليمن ولى اخاه حجرا على معد بن عدنان كلها ، فنجح في ولايته ، واحسن السيرة في رعيته حتى لم يرضوا به وبآله بديلا ، على ان (ابن خلدون) انما يذهب الى ان التبابعة انما كانوا يصاهرون "بني معاديه بن عنزة " الذين كانوا يملكون في "دمون " ، وانهم كانوا يولونهم على بني معد بن عدنان في الحجاز ، وان اول من ولى منهم انما كان حجر آكل المرار وان الذي ولاه ، انما هو تبع بن كرب الذي كسا الكعبة . وهناك رواية رابعة تذهب الى ان سفهاء بكر قد غلبوا عقلاءها وان القوى منهم قد أكل الضعيف، فنظر العقلاء في امرهم ، ثم استقر رأيهم آخر

الامر ، ان يملكوا عليهم ملكا يأخذ للضعيف من القوى ، فنهاهم العرب ، وعلموا ان هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم ، لانه يطيعه قومه ويخالفه آخرون ، ومن ثم فقد ساروا الى بعض تبابعة اليمن ، وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين ، وطلبوا منهم ان يملكوا عليهم ملكا ، فكان ذلك الملك هو حجر آكل المرار ·

وعلى اى حال ، فربما كانت هذه الروايات جميعا ، انما تمثل مرحلتين من تاريخ كندة ، الاولى تمثل الهجرة من اليمن الى نجد ، والثانية تمثل مرحلة استقرار الكنديين في مواطنهم الجديدة ، وكيف كونوا لهم امارة في نجد ، ومن ثم فيمكن القول ان هذه المرحلة الثانية انما تمثل التاريخ الحقيقي لكندة · ولعل الهدف من اقامة دولة كندة ، ان التبابعة لجأوا الى ذلك كوسيلة للسيطرة على الطرق التجارية الشمالية التي كانت ترتادها قوافل اليمن التجارية ، حتى يأمنوا اعتداء قبائل البدو الشمالية عليها ، وبخاصة ان الدول الكبرى القائمة على تخوم الصحراء ، انما كانت وقتذاك تحاول ان تؤلف القبائل لتحمي حدودها من غزواتها ، وتمدها بالجند ، وتسير معها في الحروب متحالفة على اعدائها ، فاذا كان ذلك صحيحا ، فان تولية حجر آكل المرار تكون سياسة يمنية حكيمة ، فقد كانت عصبة حجر يمنية ، وكان هو من أسرة تولت الملك في بلادها الاولى ، ثم ان هذه الاسرة كانت قد استقرت في الشمال منذ فترة عرفت فيها اتجاهات العصبيات وفهمت العقلية الشمالية ، وهكذا يكون ملوك حمير قد حققوا من اقامة دولة كندة ، ما حققه الروم من اقامة دولة الغساسنة ، والفرس من اقامة دولة اللخميين ، وتصبح كندة لتبابعة اليمن ، ما كان اللخميون للفرس والغساسنة للروم ·

ويرى بعض المؤرخين ان حجر بن عمرو (٤٨٠ — ٥٢٨ م) يعد اول ملوك كندة ، وربما كان ذلك بناء على ما رأوه تقليدا شرعيا بالولاية من قبل ملك

العرب الاكبره حسان بن تبع الحميرى ، هذا الى جانب ان حجرا يمكن ان يعتبر اول شخصية تاريخية في قائمة ملوك كندة يمكن الاطمئنان اليها . هذا وقد تمكن حجر بن عمرو ان ينتزع جانبا من الارض التي كانت تحت سيطرة المناذرة ، ثم نزل في مكان يدعى "بطن عاقل" ـ جنوب وادى الرمة على الطريق بين مكة والبصرة . وهكذا تسرب النفوذ الاجنبي الى مكان جديد في شبه الجزيرة العربية ، وهو نفوذ رومي مناهض لنفوذ الفرس في الحيرة ومغلف بسياسة يمنية ظاهرة . وان كان هناك من يخالف هذا الاتجاه اعتمادا على ان الروايات العربية ذهبت الى ان الذى اقام حجرا ملكا على كندة ، انما هم الحميريون وليس الروم او الاحباش ، كما ان اليمن لم تكن وقتذاك تسير في فلك النفوذ الرومي او الحبشي ، فضلا عن ان ملوك كندة انما عملوا بعد ذلك عند الفرس ، وليس عند الروم او الاحباش ، وان تحالفوا مع الروم حينا من الدهر. وكان للحجر آكل المرار وقائع مع الغسانيين ، فيقال ان الحارث الغساني أغار عليه واستولى على امواله ، ولكنه نجح في استنقاذها منه . وتوفي حجر آكل المرار في (بطن عاقل) في وقت لا تستطيع تحديده على وجه اليقين ، وان اتجه البعض الى تحديده بالعقد الاخير من القرن الخامس الميلادى .

وخلف (حجر آكل المرار) ولده المعروف بالمقصور (عمرو بن حجر) ، ربما لانه اقتصر على ملك ابيه ، وربما لأن (ربيعة) قد اضطرته الى ذلك ، وانه لم يحمل لقب (ملك) وانما اكتفى بلقب (سيد كندة) ، وان اليمامة انما كانت من نصيب اخيه معاوية المعروف بالجون ، ويبدو ان "عمرا بن حجر" كان على علاقة طيبة بملوك اليمن ، ومن ثم فقد تزوج بنتا لحسان بن تبع اسعد الاكبر ، كما كانت كذلك باللخميين ، ولهذا فقد تزوج "الاسود بن المنذر" ملك الحيرة من (ام الملك) ابنة عمرو المقصور ، فولدت له (النعمان بن الاسود) .

هذا وقد اختلفت الآراء حول علاقة (عمرو المقصور) بالغساسنة ،

فذهب البعض الى انها كانت علاقة عدائية ، وان عمرا كان في احايين كثيـــرة يشن الغارة عليهم ، بينما ذهب فريق آخر الى ان العلاقات بينهما كانت طيبة ، وان عمرا قد تزوج من (هند الهنود) بنت (ظالم بن وهب) ، وكانت اختهـــا (ماريا) زوجة للحارث الغساني الاكبر . هذا وقد قامت (ربيعة) بثورة علـــى (عمرو المقصور) منتهزة فرصة الضعف في آل كندة على ايامه ، وكان قد ظهر من بني تغلب في نفس الوقت رجل قوي هو (وائل بن ربيعة) تمكن من انتزاع جميع قبائل ربيعة التي كانت تحت سيطرة آل كندة ، ثم التقى مع عمرو في معركة علـــى مقربة من جبل القنان ، انتهت بقتل عمرو وتحرير قبائل ربيعة من سيطرة آل كندة الى حين .

وجاء بعد عمرو ولده الحارث ، وقد اختلف المؤرخون حول تحديد فترة حكمه فذهب البعض الى انها كانت من عام ٤٩٥ ـ ٥٢٨ م ، وذهب آخرون انهـا كانت من عام ٤٩٥ ـ ٥٢٤ م ، وعلى اى حال فلقد كان الحارث اقوى ملـــوك كندة واعظمهم شخصية ، وعلى عهد الحارث وصلت كندة الى اوج ازدهارهـــا ، فقد نجح في استعادة سلطانه على قبائل ربيعة في نجد ، وبني أسد وبنـــي كنانة وبني بكر . هذا وقد بدأ الحارث بغزو فلسطين عام ٤٩٧م ، الا ان الحاكم الروماني قد الحق بجيشه هزيمة منكرة ، ولكن حدث بعد ذلك ان بدأت قبائل البلغار والصقالية تتغلغل في تخوم الامبراطورية البيزنطية الشمالية ، ثم سرعان ماتعود الحرب بين الروم والفرس من جديد عام ٥٠٢ م ، وهكذا رأى الامبراطـور الروماني ان يقلل من اعدائه ، فعقد مع الحارث معاهدة تنص على ان يتـــرك آل كندة مهاجمة الشام ، وان يتعاونوا مع الروم على قتال الفرس والمناذرة . اما فيما يتعلق بالفرس ، فقد انتشرت الاضطرابات على ايام قباذ (٤٨٨ ـ ٥٣١م) وقد قام هذا الملك بدعوة (المنذر بن ماء السماء) الى المزدلية وهي مبادئ تدعو الى نوع من الاشتراكية في الاموال والنساء ، فأبى ، وأسرها قباذ فـــي

نفسه ، وعند ما عرض دعوته هذه على الحارث الكندي اسرع باجابته اليها ، ومن ثم فقد عزل المنذر عن عرش الحيرة ، واقام مكانه الحارث الكندي ، وعندما استشعر الحارث الكندي ضعف الملك الفارسي ، بدأ يخطط لنفوذ اوسع في العراق على حساب الفرس ، وهكذا امر رجاله بأن يشنوا الغارة على السواد ، ويعلم قباذ بالامر ، فيكون جوابه على ذلك اعطاء الحارث الكندي بعض المناطق التي تقع في مجاورات الحيرة ، الا ان الحارث كان اكثر طموحا ، فكتب الى " تبع " ملك اليمن ان يجمع الجنود ويأتي اليه ، واستجاب تبع للحارث واقبل بجنوده ، وسار بهم حتى نزل بالحيرة ، ثم وجه ابن اخيه " شمر ذي الجناح " الى قباذ فحاربه وانتصر عليه ، اما التقاء الحارث بقباذ فكان عند قنطرة الفيوم ، وهي موضع لا يبعد كثيرا عن " هيت " وهي بلدة على الفرات .

هذا وقد اختلف المؤرخون في مقر الحكم الذي اختاره الحارث الكندي في العراق ، فبينما يذهب فريق الى انه في الحيرة ، يرى آخرون انه في " الانبار " وتقع على مبعدة اربعين ميلا الى الشمال الغربي من بغداد . وأيا ماكان الامر، فان ملك الحارث لم يستمر طويلا في العراق ، فعندما اعتلى عرش الفرس (كسرى انو شروان) (٥٣١ — ٥٨٩ م ، قام بطرد الحارث الكندي ، واعاد المنذر الثالث الى عرش الحيرة ، وقام هذا الاخير بتتبع الحارث الكندي واهله ، حتى أسر اثنى عشر اميرا من بني حجر بن عمرو ، ثم قتلهم وكان من بينهم الحارث . ولا شك ان ذلك المصير التعس الذي لقيه الرجل ، ومن أسر من اهل بيته ، انما كان ضربة في الصميم وجهت الى دولة كندة ، وسرعان ما دب الشقاق فيها ، فانحلت عراها بعد ان قتل ابناء الحارث واحدا بعد الآخر . ولم يكتف المنذر اللخمي بذلك بل عمل على تشتيت شمل ابنائه والتفريق بينهم حتى نشبت بين اثنين منهم وهما (سلمة) و (شرحبيل) الحرب التي عرفت بين العرب (بيوم الكلاب الاول) واعلن فيها كل من الاخوين

عن جائزة مقدارها مائة من الابل لمن يأتيه برأس اخيه ، وكان يوما عصيبا اشتدت فيه الحرب حتى آخر النهار وانتهى بقتل شرحبيل . وتفرق الابناء جميعهم ، وقد أثرت كل هذه الاحداث على دولة كندة ، فعملت على اضعاف ملوكها وتضعضع نفوذهم ، فكانت البداية تتمثل في خروج بني اسد على (حجر ابن الحارث) فامتنعوا عن دفع الاتاوة التي كان قد فرضها عليهم من قبل ، ومن ثم فقد خرج عليهم حجر من تهامة ، وما ان وصل الى ديار بني اسد في جنوب جبل طي ، حتى قتل الكثير من اشرافهم ، واخذ بعضا منهم أسرى الى تهامة ، مما ترك اثرا سيئا في نفوذ القوم ، فعقدوا العزم على الانتقام ، وماليثوا ان نفذوا وعيدهم ، وقتلوا الرجل . وتولى مقاليد الامر بعده ابنه (امرؤ القيس) الشاعر المشهور وكان اصغر ابنائه ، وكان ابيه حجر قد طرده ، وأصر على ان لا يقيم معه ، أنفة من قوله الشعر ، على غير عادة ابناء الملوك ، فضلا عن التغزل بالنساء غزلا ، وهكذا اخذ امرؤ القيس يسير في احياء العرب ، ومعه اخلاط من شذاذ العرب ، يشرب الخمر ، ويتغزل بالنساء ، وظل كذلك حتى اتاه خبر مقتل ابيه ، فأقسم ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ، ولا يدهن بدهن ، ولا يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك ثأره . وبدأ اولا بضم بكر وتغلب اليه ثم بث العيون على بني اسد ، فعلم انهم لجأوا الى بني كنانة ، ومن ثم فقد بدأ هجومه على بني كنانة — وهو يظنهم بني اسد — الا ان القوم سرعان ما أخبروه ان بني اسد قد ساروا بالامس — فأسرع اليهم حتى اذا ماادركهم انزل بهم هزيمة قاسية ، غير ان قبيلة تغلب وبكر رفضت الاستمرار في القتال بعد ذلك ، مما اضطره ان يطوف بقبائل العرب يستنصرها على قتلة ابيه ، واستجاب له بعضهم ، ورفض آخرون خوفا من بني اسد ، وخوفا من اغضاب المناذرة والفرس ، وقرر امرؤ القيس ان يذهب الى القسطنطينية ليستنجد بملك الروم ، الذي احسن استقباله ، وان لم يقدم له المساعدة المطلوبة ، فالنجدة التي طلبها امرؤ القيس كبيرة جدا ، والجيش الرومي لم يكن مستعدا للقتال في الصحراء ،

ثم ان الغاية التي جاء من اجلها امرؤ القيس — وهي الاخذ بثأر رجل واحد — كانت بعيدة عن سياسة الروم ومألوفهم ، فضلا عن ان الامبراطورية الرومانية كانت مهددة بهجمات البرابرة ، ومن ثم فالامبراطورية كانت في حاجة الى الدفاع عن امبراطوريته نفسها .

ومع ذلك فقد ارسل الامبراطور جستنيان جيشا كثيفا مع امرؤ القيس ، فبلغ ذلك بني اسد ، فأرسلوا رجلا منهم يدعى (الطماح) اتصل بجماعة من رجال القيصر وطلب منهم ان يبلغوا القيصر "ان العرب قوم غدر ، ولا تأمن ان يظفر امرؤ القيس بما يريد ، ثم يغزوك بمن بعثت معه ". ولكن حدث بعد ذلك ان توفي امرؤ القيس وهو في ديار الروم على اثر مهاجمة داء قديم له كان مصابا به . وعلى ذلك انقطع آخر امل في استعادة "بني آكل المرار" لملكهم في كندة .

وهكذا انتهت اول محاولة في داخل بلاد العرب لتوطيد مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية واحدة لها زعيم واحد ، اذ سرعان ما عادت عشائر كندة الى الجنوب ، حيث ساد منهم (قيس بن معد يكرب) ثم ابنه (الاشعث) . ثم تكونت بعد نهاية دولة بني آكل المرار ، امارة كندية في حضرموت ، فضلا عن امارات اخرى حكمها امراء صغار ، لا تتجاوز سلطة الواحدة منهم مدينة أو واديا ، واشهرها تلك التي كانت في دومة الجندل والبحرين ونجران وغمر ذي كندة .

الفكر الديني العربي القديم

سادت في شبه جزيرة العرب العديد من المعتقدات الدينية سواء في الجنوب او الشمال او وسط شبه الجزيرة ، وسنتناول فيما يلي المعتقدات الدينية التي وجدت في شبه الجزيرة العربية بشيء من التفصيل بدءا بالمعبودات التي عبدت في الشمال، ثم المعبودات الجنوبية والتي كانت تتجه نحو عبادة الكواكب ، وبعد ذلك سنشير الى عبادة الاصنام، ثم انتشار اليهودية والمسيحية في بلاد العرب ، واخيرا نتحدث عن الحنيفية . ونبدأ دراستنا بالآلهة الشمالية :

من هذه المعبودات التي عبدت في الشمال الاله دوشرا وهو اله النبط الكبير الذى نشر القوم عبادته في اماكن بعيدة تجاوزت حدود نفوذهم . ودوشرا هو لقب عربي اطلقه الانباط عليه ومعناه " سيد شرا " والمقصود هنا الشراة ، وهي المنطقة الجنوبية التي تقع جنوبي البتراء ، والتي لا تزال تسمى كذلك حتى اليوم، وقد جعله الكتاب اليونان بمنزلة الههم " ديونيسوس " اله الخصب وبخاصة الكروم ، وقد اتجه البعض الى الأعتقاد بأن دوشرا انما كان اله خصب وزرع في الاصل ، وذلك لأن منطقة الشراة التي نسب اليها كانت غنية بالزرع والتمر .

اما اللات فكانت كبيرة آلهة الصفويين واكثرها ورودا في دعواتهم، بل ربما كانت اهم الآلهة عندهم، وقد تعبد لها الانباط وعدوها اما للآلهة ، وقد ورد ذكر اللات في العديد من النقوش النبطية ومنها تلك التي من "صلخد" بحوران ، وترجع الى اعوام ٤٠، ٥٠ ، ٦٥ م وتتحدث عن هذه الآلهة وعن بناء معبد لها . وقد عرف التدمريون اللات كذلك ، وهناك نقش تدمرى يرجع الى عام ١٢٩ م، يذكر " اللات " بين الاله شمس والاله رجيم ، ويصف النقش هذه ،

الآلهة الثلاثة بأنها "الآلهة الطيبة" ، وقد صورت "اللات" في الآثار التدمرية بسمات الآلهة اليونانية "ايثني" الهة الحرب والحكمة ، وهذا دليل على تقدير عظيم لحكمة اللات . واللات من الاصنام القديمة المشهورة عند العرب ، ويبدو انها انتقلت الى الحجاز من الانباط والقبائل العربية الشمالية ، وكانت لهـا مكانة عظيمة لديهم ، فكانت ثقيف بالطائف تخص اللات بما كانت تخص به قريش العزى ، فكان الواحد منهم اذا ماقدم من سفر توجه الى بيت اللات فتقرب اليه وشكره على السلامة .

وتذهب المصادر العربية الى ان "عمر بن لحى" هو الذى ادخـل اللات على العرب ، وطبقا لرواية الاخباريين ، فقد كان اللات رجلا من ثقيـف يلت لسه السوق للحج على صخرة اللات ، فلما مات الرجل اشاع عمر بن لحـى انه لم يمت وانما دخل في الصخرة ثم أمر بعبادتها وان يبنوا عليها بنيانا يسمى "اللات" ، وكان تحت صخرة اللات حفرة يقال لها "غبغب" حفظت فيها الهدايا والنذور والاموال التي كانت تقدم للصنم . وكان للات حمى وحرم في جـوار الطائف يقصده حجيج مكة وسواها ويقدمون لها الذبائح .

وتذهب المصادر العربية الى ان قريشا قبل الاسلام ، انما كانت تطوف بالكعبة ، وتقول : " واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، فانهـن الغرانيق العلاء وأن شفاعتهـن لترتجى " .

ويعد الاله "بيل" من المعبودات التي عبدها الشماليون ، وكان إلهـا لتدمره ومن المرجح ان اهل تدمر اخذوا الاسم بيل عن بابل حيث يطلق هـذا الاسم على الاله بعل . وان كان هناك من يرى ان بيل ليس مشتق اشتقاقـا منطقيا من بعل ، وانما هو اسم مصطنع ابتدعه كهان تدمر ليجنبوا الجمهـور الخطأ من الخلط بين بعل " وبعل شمين " .

اما الاله " رضى " فهو من آلهة الشموديين والصفويين ، وقد جاء في النقوش الثمودية بصيغ مختلفة منها " رضو " و" رضى " و " رضا " ، وقد ذكرته النصوص الصفوية كثيرا في نقوش يتوسل فيها اصحابها اليه بأن يمن عليهم بالسلامة والنعم، وان يبعد عنهم شر الاعداء وكيد هم . ويرى بعض الباحثين ان رضى قد عبد عند عرب الجاهلية كالهة انثى في صيغته " رضى " او " رضاء "، وعبد كإله ذكر عند الشموديين في صيغته المذكرة (رضو) .

اما عبادة الكواكب فقد سادت جنوب شبه الجزيرة العربية ، وكان اهم هذه الكواكب هو الثالوث الذى يمثله القمر والشمس والزهراء ، ويمثل القمر من هذا الثالوث دور الأب ، اما الشمس فتمثل دور الأم ، بينما كانت الزهرة تمثل دور الابن . وتمثل عبادة هذا الثالوث من الكواكب تداخلا بين مرحلتين من مراحل تطور المجتمع ، فعبادة القمر والزهراء هي عبادات مجتمع رعي في المقام الاول ، فالانتقال في البادية يكون فيه ضوء القمر وسيلة لتوضيح المعالم والشيء ذاته بالنسبة لكوكب الزهراء الذى يمكن التعرف على الوقت والاتجاه من خلاله ، ولكن ربما كانت القيمة الأساسية هي ان القمر بالذات يرمز الى فترة الليل حيث تهبط درجة الحرارة وتتكثف الابخرة الموجودة في الجو لتتحول الى ندى يبعث الحياة في العشب الذى تتكون منه المراعي ، بينما اشعة الشمس بالنسبة للمجتمعات الزراعية هي التي تعطي النماء للزراعة وهي التي تنضج المحصول، وقد كانت العربية الجنوبية منطقة زراعية في المقام الاول، ولكنها عرفت شيئا من الرعي كذلك في بعض مناطقها، واكثر من ذلك فان الرعي يمثل مرحلة مبكرة تظهر عادة في المجتمعات قبل مرحلة الزراعة التي تمثل بالضرورة مرحلة اكثر استقرارا ومن ثم اكثر تطورا .

وربما كان العرب الجنوبيون متأثرين في هذا الثالوث ببلاد الرافدين حيث نرى نفس الثالوث يحتل مكانة ممتازة هناك .

والاله القمر كانت له منزلة خاصة في ديانة القوم فهو كبير الآلهة ، وله اسماء والقاب عديدة في الاساطير والطقوس والتقويم واسماء الاعلام ، وبلغت مكانته الى حد دفع بعض العلماء الى القول بأن الديانة العربية الجنوبية انما هي ديانة قمرية وذلك لأن الاله القمر كان قويا مهيمنا على سائر مناحي الحياة المدنية والسياسية .

ويعرف الاله القمر بالاله (ود) عند المعينيين ، و (المقه) عند السبئيين ، و (عم) في قتبان و (سين) في حضرموت ، وهو اله (معين) الكبير. والجدير بالذكر ان القمر ماكان يسمى في النصوص باسمه ، وانما كان يشار اليه بكناه وصفاته في غالب الاحايين ، وربما كان العرب الجنوبيون يفعلون ذلك تأدبا امام من يرونه رب الارباب ، اذ ليس من المقبول ان يخاطب ربه كما يخاطب غيره من البشر ، كذلك فان كل الاساطير التي لدينا بمحتوياتها المختلفة انما ترجع الى القمر ، وقد اختير الثور كحيوان مقدس لاله القمر ، نظرا لأن قرنيه يذكران بالهلال .

اما الالهة الشمس فتأتي في المرتبة الثانية بعد الاله القمر ، وقد عبدت في مواضع مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، وان كنا لا ندري على وجه اليقين متى بدأت عبادة الشمس ، الا ان هناك نصا قرآنيا يستدل منه على انها كانت موجودة منذ القرن العاشر قبل الميلاد ، ذلك ان القرآن الكريم يحدثنا ان ملكة سبأ على ايام سليمان ، عليه السلام ، كانت وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، ولما كان سليمان يحكم في الفترة (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م) فان عبادة الشمس قد وجدت منذ القرن العاشر ق.م على الاقل .

وقد عبدت الشمس في قتبان وحضرموت وسبأ وقد اطلق عليها عند السبئيين تسمية " ذات حم " و " نكرح " عند المعينيين ، وفي النقوش القتبانية

تسمى "ذات حمهون" و "ذات رحبن" . ورغم ان التوراة قد أشارت الى عقوبة عبادة الشمس وهي الموت ، الا ان عبادتها قد انتشرت في مدن يهوذا .

والجدير بالذكر ان عبادة الشمس قد انتشرت بصفة اساسية في القسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية حيث تقع مملكتي تدمر والانباط ، وربما يرجع ذلك الى قربهما من حضارتين زراعيتين مستقرتين واتصالهم بهما وما استتبع ذلك من تأثيرات عن طريق طرق المواصلات التجارية ، وهما حضارة مصر في الغرب حيث كان "رع" اله الشمس هو الاله الاول ، وحضارة وادى الرافدين في الشرق حيث تطور المجتمع الى مجتمع زراعي كثيف في المراحل اللاحقة للفترة السومرية حيث اصبح "شمش" اله الشمس احد الآلهة الرئيسية في مجمع الآلهة في وادى الرافدين . أما الزهرة فهي الاله عثتر ، وتقابل "عشتار" عند البابليين والاشوريين وعشتارت لدى الكنعانيين والفينيقيين والاحباش و "عتر" عند السريان مما يدل على انه كان من الآلهة التي كانت عبادتها شائعة في منطقة واسعة ، كما كان كذلك من الآلهة الكبرى قبل الميلاد . وقد حاول بعض الباحثين اثبات ان الزهرة هي "العزى" غير انهم لم يقدموا أدلة تثبت وجهة نظرهم هذه .

وعلى اى حال فان عبادة الكواكب في بلاد العرب ، لم تكن مقصورة على هذا الثالوث المشهور، وانما عبد القوم كذلك — وبخاصة قبائل لخم وخزاعة وحمير وقريش — "الشعرى العبور" وقد سميت كذلك لانها تعبر السماء عرضا . وهناك كذلك ما يشير الى ان بعض العرب قد عبدوا الثريا والنجم بدليل وجود اسماء مثل عبد الثرياء وعبد نجم ، كما عبد البعض الآخر المريخ وسهيلا وعطارد وزحل . والى جانب هذه الآلهة ، هناك طائفة اخرى كبيرة من الآلهة الخاصة تحمي بعض الاماكن او القبائل بل والأسر كذلك ويشار اليها غالبا بالاسم "بعل" ومعناه صاحب أو سيد .

وفيما يتعلق بعبادة الاصنام في شبه الجزيرة العربية فيعتبر كتاب الاصنام لهشام بن محمد ابن السائب من اهم المصادر التي وصلت الينا ، وتتناول هذا الموضوع ، والاوثان هي الاصنام ، والحجارة هي الانصاب (جمع نصب) عندما تنصب بعضها فوق بعض ، وكانت طقوس عبادة كل منهما تختلف عن الاخرى . والذى يفهم من كتاب الاصنام ان عبادة الانصاب حجازية الاصل ، واهم طقوسها هو الدوران او الطواف حول النصب ، بينما كانت لعبادة الاصنام او الاوثان طقوسها الخاصة من الدعاء لها وتقديم القرابين . وبالنسبة لعبادة الانصاب يقول ابن الكلبي "انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم ، تعظيما للحرم وصبابة بمكة . فحينما حلوا ، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا به وصبابة بالحرم وحبا له ، فكأن عبادة الانصاب تابعة من الطواف حول الكعبة .

اما الاصنام فيقول صاحب كتاب الاصنام : "واشتهرت العرب بعبادة الاصنام فمنهم من اتخذ بيتا ، ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت ، نصب حجرا امام الحرم وامام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت".

وتذكر الروايات العربية ان عبادة الاوثان كان اول من نشرها بين العرب هو عمرو بن ربيعة المشهور بلحى بن حارثة الخزاعي وانه جلبها من الشام . ويقدم العلماء القدامى منهم والمحدثون عدة آراء عن كيفية بداية عبادة الاصنام في بلاد العرب ، وتكاد تتفق الآراء على ان العرب لم تبدأ - بادئ ذى بدء - بعبادة الاصنام - وانما اتخذتها اولا رمزا للاله او الالهة - او حتى الاشخاص الصالحين منهم - وبمرور الزمن نسي القوم أمر هذه الرموز ، فعبدوها من دون الله لاسباب مختلفة ، فهناك من عبد - كاساف ونائلة - بسبب المسخ ، حين ظن القوم انهما رجل وامرأة من جرهم ، وقد وقع

بهم مكروه فمسخا ، وهناك من عبد " اللات" بسبب التقمص ، حيث يروى ان اللات كان رجلا قد مات الا ان عمر بن لحى اخبر القوم انه لم يمت ، وانما دخل الصخرة ومن ثم فقد عبد .

وفي الحقيقة ان كلمة الاصنام ليست عربية اصيلة وانما هي معربة من كلمة " شنم " ويرجح ان تكون قد عربت اما من الكلمة الآرامية (صلمو) ، او العبرية (صلم) ، والكلمة التي وردت في النصوص العربية الجنوبية للاصنام هي (صلمو) بمعنى صنم وتمثال ، وفي الكتابات العربية الشمالية ، جاءت تحت اسم (صلم) كاسم لاله علم ازدهرت عبادته في تيماء عام ٦٠٠ ق.م . واهم الاصنام التي عبدها العرب (العزى) وهي من اعظم اصنام قريش وبني كنانة ، ويرى ابن الكلبي انه احدث في عبادته من اللات ومناة ، وذلك بناء على أنه وجد ان من تسموا بهما من العرب مثل : عبد اللات وزيد مناة ، اقدم ممن تسموا بعبد العزى ، واول من عبد العزى هو ظالم بن سعد الذى بنى لها بيتا في موضع حراض من وادى نخلة الشامية على يمين الطريق الصاعد من مكة الى العراق .

وقد اصبحت العزى عند العرب الهة الخصر ، حينما قامت على ثلاث سمرات — ومعنى السمرة ضرب من شجر الطلح — في وادى نخلة ، وصعدت الى السماء في صورة امرأة حسناء ، وعرفت بالزهرة ، وقد كان للعزى عند عرب الجاهلية علاقة بالزواج .

وكان للعزى مكانة عند عرب الجاهلية ، فكانت تعظمها أشد الاعظام ، حتى انها كانت قد جمعت لها شعبا في وادى حراض يقال " سقام " يضاهون به الكعبة ، كما اقامت لها منحرا تنحر فيه الذبائح ويقصد اليه الحاج بعد " منى " ، ويبدو ان عبادة العزى كانت واسعة الانتشار في بلاد العرب ، وهناك مايشير الى ان عبادتها قد تسربت كذلك الى عرب العراق والشام ، والى الانباط

والصفويين ، وكان سدنة العزى من بني شيبان بن جابر بن مرة من بني سليم .

اما "مناة" فهي الثالثة الاخرى التي ورد ذكرها ــ بجانب اللات والعزى في القرآن الكريم "افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الكبرى". ومناة لفظة مشتقة من المنا والمنية هو الموت او القدر ، ومن المنية المنون ، بمعنى "القدر المقدور" معبود النبطيين ، وربما سميت كذلك ايضا لأن دماء النسائك كانت تمنى عندها ، أى "تراق".

ويروى الاخباريون ان العرب جميعا انما كانت تعظم مناة وتذبح حول صنمها ، وكانت الاوس والخزرج ومن ينزل بالمدينة ومكة وماقارب من المواضع يعظمونه ويذبحون حوله ويهدون اليه ، وان كان الاوس والخزرج اشد الناس اعظاما له ، ولعل ورود اسم هذا الصنم في القرآن الكريم ، فضلا عن دخوله في تركيب كثير من اسماء الاعلام مثل عبد مناة ، وزيد مناة انما هو دليل على انتشار عبادة "مناة" بين كثير من قبائل العرب . هذا وقد ظلت "منـاة" معظمة عند العرب حتى سنة ٨ هـ / ٦٣٠م حينما هدمها علي ابن ابي طالب بأمر الرسول .

اما (ود) فقد جاء ذكره في القرآن الكريم بين خمسة اصنام عبدها قوم نوح ، عليه السلام ، حيث يقول سبحانه وتعالى : وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا". وقد عرف (ود) لدى المعينيين من اهل اليمن قديما رمزا للاله القمر ، وذلك في منطقة دومة الجندل ، في وادى القرى ، وحسب وصف ابن الكلبي كان ود تمثالا على هيئة رجل ضخم . والظاهر ان سدنته من قضاعة قد كسوه من الثياب حلتين واحدة فوق الاخرى ، وقلدوه سيفا وجعلوا قوسا على منكبه وحربة بين يديه تحمل لواء وجعبة فيها النبل ، مما جعله وكأنه يمثل اله الحرب .

اما (هبل) فكان من اعظم اصنام قريش ، ومن ثم فقد كان اعظم الاصنام في الكعبة ، التي اتخذ تمنها العرب مقرا لاصنامها واوثانها ، وقد وضع القسوم الى جانب صنم هبل الازلام وهي القداح او السهام التي كان اهل الجاهلية يستقسمون بها ، ويذهب بعض المستشرقين الى ان " هبل " انما هو رمز القمر ، بينما ذهب البعض الآخر الى ان صورة الحية او تمثالها انما يشير الى هبل ٠ ويذهب ياقوت الحموى الى ان هبل انما كانت صنما لبني كنانة ، وكانت قريش تعبده ايضا ٠

اما (اللات) التي يمكن ان تكون اشهر آلهة العرب وقتئذ ، فكانت احدث من مناة ، وهي الهة الطائف التي تمثل الشمس ، كما يرى المحدثون ٠ ورغم انه من المعروف انها كانت آلهة مؤنثة ، وانها ربما كانت الالهة لاتسون عند اليونان الذين اخذوها عن عرب اليمن ، فان بعض الروايات العربية القديمة تجعلها في شكل صخرة مربعة ، والظاهر انهم قالوا ذلك عندما حاولوا تفسير اسم اللات فقالوا انه من لت السويق او العجين الذى كان يقوم به بعض اليهود عندها او عليها ٠

وقد ذكر ابن الكلبي انه على ايامه كان موضع اللات في المكان الذى بنيت فيه المنارة اليسرى بمسجد الطائف ، وكان سدنتها من بني عقاب بن مالك الثقفيين ، قد بنوا لها بناء من بيت او كعبة ، وقد ظلت اللات معظمة من ثقيف وقريش وسائر قبائل العرب الى سنة ٨ هـ عندما هدمها المغيرة بن شعبة بأمر الرسول بعد ان دخلت ثقيف في الاسلام واهل الطائف ٠

اما (يعوق) فكان صنم لكنانة ومن قبل كان لقوم نوح ، وكان (يعوق) على هيئة الحصان وقد عبدته قبائل همدان في قرية خيوان وهي على مسيرة ليلتين من صنعاء بالنسبة للقادمين اليها من مكة ٠

اما الصنم (نسر) فكان من معبودات قبائل حمير في موضع يقال لـه بلخع من ارض سبأ من اليمن وذلك قبل دخول حمير في اليهودية . وتذهب المصادر العربية الى ان كلمة نسر اسم كوكبين يفرقون بينهما فيقولون : النسر الواقع والنسر الطائر ، والراجح ان يعوق ونسرا كانا كوكبين ، قبل ان يكونا صنمين ، وكان يصور على صورة نسر من الطير ، وقد وجدت له اصنام منحوتة على الصخره وبخاصة في أعالي الحجاز .

اما (يغوث) فكان يعبد في قبيلة مدحج وهي قبيلة يمنية الاصل ، ويتجه بعض الباحثين الى ان يغوث يمثل الاسد ، وانه كان (طوطم) مدحج تحمله معها ابان وقوع المعارك بينها وبين اعدائها وانه كان يتولى مهمة الدفاع ، وقد ادخل القوم اسم صنمهم هذا في تركيب بعض الاسماء ، ومن ثم فقد وجدنا اسم (يغوث) يتردد بين كثير من القبائل العربية .

اما (ذو الخلصة) فقد عبد في تبالة جنوبي مكة في طريق اليمن ، على مسيرة سبع ليال ، وكان يصور عادة على هيئة "مروة" (صخرة) بيضاء منقوشة ، وكان سدنته من بني امامة من قبيلة باهلة ، وقد ارسل الرسول عليه الصلاة والسلام جرير بن عبد الله لهدمه بعد فتح مكة ، فنشب بينه وبين قبيلتي خثعم وباهلة القتال ، اذ ان هذه القبائل دافعت عن الصنم بشدة .

وتعد الكعبة اعظم بيوت الاصنام في بلاد العرب ، وقد شبهها بعض الباحثون المحدثون بالبانثيون اشهر معابد الآلهة في روما القديمة . وكانت الاصنام توضع في جوفها وحولها . وتتمثل طقوس عبادة هذه الاصنام في زيارتها او الحج اليها وتقديم الهدايا لها ، كما كانت تقرب عندها القرابين من الذبائح وخاصة عند استخارتها في الامور الشخصية او الامور العامة . وكانت بيوت الاصنام هذه لها حرمتها عند العرب ، فكانت ملاذا لمن يلجأ اليها

حتى بالنسبة للمطلوبين من قبل العدالة ٠

اما عن انتشار اليهودية في بلاد العرب ، فلقد عرفت هذه الديانة منذ اقدم عصورها ، نظرا لأن بلاد الشام كانت مهدا لليهودية ولذا لم يكن من الغريب ان تصل الى بلاد العرب وخاصة الاقاليم المتحضرة منها والتي كانت لها علاقات اقتصادية وسياسية بالعالم الخارجي ٠ وفيما يتصل بانتشار اليهودية في اليمن — فقد كان — طبقا لرواية الاخباريين منذ ايام تبان أسعد ابو كرب ملك اليمن الذى كان قد خرج لحرب الأوس والخزرج بالمدينة يثرب ، وانه اراد خراب المدينة فمنعه حبران من اليهود من ذلك ، وأقنعاه بما للمدينة من حرمة " وانها مدينة النبي " مما يمكن ان يعني انهما نجحا في ادخاله في ديانتهما ٠ وتذكر الرواية ايضا انه عندما عاد الملك الى بلاده اصطحب الحبرين معه ، وأعلن ترك عبادة النار التي كانت تعبدها حمير ، وان اليهودية هي ديانة البلاد ٠ وأدى ذلك الى غضب القوم عليه لخروجه على دينهم وتم الاحتكام الى النار فلم تؤثر في الحبرين شيئا ، وبذلك تأكدت اليهودية كديانة رسمية ٠ ويرى بعض المؤرخين ان هذه الرواية أقرب الى القصص الشعبي ومن الصعب التصديق بصحتها ٠

وهناك نص عرف بنص (جلازر ٥٥٤) من القرن الخامس الميلادى جاءت فيه جملة " رب السماء والارض " وقد استدل البعض من هذه الجملة انها تشير الى التوحيد الخالص ٠ وتشير رواية اخرى الى ان اليهودية قد انتشرت في اليمن منذ ايام ذى نواس التي كانت أمه يهودية وقد ساعد على انتشار اليهودية وقتذاك ان ملوك حمير لم يخشوا على انفسهم من اعتناق اليهودية ان تتسلط عليهم دولة ذات سلطان كبير ونفوذ واسع ٠ اذ لم يكن لليهودية في ذلك العصر دولة سياسية ٠

ويرى الاستاذ العقاد ـ ان اليهود وصلوا الى اليمن مهاجريـــــن متفرقين ، وربما بدأت هذه الهجرة منذ ايام السبي البابلي ، في القـــرن السادس ق.م لقرب بابل عن طريق البحرين الى اليمن ـ بينما يرى فريـــق من المؤرخين ان اليهودية قد انتشرت في اليمن منذ أخريات القرن الاول ، واثناء القرن الثاني الميلادى ، اعتمادا على ان الفرقة اليهودية التي صاحبـــت " اليوس جالليوس " في حملته على اليمن عام ٢٤ ق.م ربما فضلت البقاء فـــي اليمن ، ولم تعد الى فلسطين .

وهناك فريق آخر من المؤرخين يرى ضرورة الرجوع للقرآن الكريـــم لمعرفة تاريخ بداية انتشار اليهودية في اليمن ، والذى يتضح انه انما كـــان في القرن العاشر ق.م ، ذلك لأن القرآن الكريم يحدثنا ان قصة ملكة سبأ مـــع سليمان عليه السلام ، قد انتهت بقولها " رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مـــع سليمان لله رب العالمين " .

اما عن دخول اليهودية الى الحجاز ويثرب ، فترجعها بعـــض الروايات الى ايام موسى أو داود وغزوهم للعماليق ، ويرى البعض ان اليهـــود وا في الحجاز منذ أيام " نبونيد " أو " بخت نصر " ، بمعنى ان اهل الحجاز ا اليهودية عن طريق العراق ، وكان اليهود قد انتشروا من العراق فـــي بلاد العرب الشرقية وتاجروا مع اهلها . ومن اهم المستعمرات اليهودية التي في الحجاز تلك التي في تيماء وفدك وخيبر ووادى القرى ويثرب ، وفي الاخيـــرة تجعل الروايات وجودهم بها أقدم من سكنى الأوس والخزرج ، ومن المرجح ان تكون يثرب هي المركز اليهودى الذى انتشروا منه في شمال الحجاز . وكـــان يهود بنو النضير يقيمون في وادى بطحان من أودية يثرب التي تكثر فيهـــا المياه ، وكانت لهم فيه حصونهم المعروفة بالاطام ، اما بني قريظة فكان لهـــم حصون وآبار .

وتعد خيبر من اهم مراكز اليهود بعد يثرب ، ويذكر الهمداني انه على ايامه كان بخيبر " قوم من يهود. وموال وخليط من العرب " ، وقيل ان اسم خيبر عبراني ويعني الحصن ، والظاهر ان ذلك كان بسبب مابها من الحصون • وتعد تيماء ايضا من مراكز اليهود في شمال الحجاز وقد عرفت بتيماء اليهود •

اما في مكة ، فان عدد اليهود بها كان قليلا ويستدل على ذلك من عدم وجود معبد لليهود في مكة ، الى جانب عدم وجود حي خاص بهم ، كما ان كفار مكة كانوا يذهبون الى يثرب ليسألوا احبار يهود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - اذ لو كان هناك يهود في مكة ماذهب القرشيون الى احبار المدينة •

اما النصرانية والتي اطلقت في العربية على اتباع السيد المسيح ، عليه السلام ، فان دخولها الى بلاد العرب أمر يصعب تحديده ، الا انه يمكن القول بصفة عامة ، ان وجود النصرانية بين العرب في بعض مناطق اقامتهم المختلفة ، ربما كانت قديمة قدم النصرانية نفسها • وهناك آيات من القرآن الكريم تشير الى وجود اتباع للمسيح في مكة على أيام المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - فسورة مريم التي تتحدث عن ولادة المسيح وانكار ألوهيته ، وسورة الروم ، والتي تتحدث عن انكسار الروم المسيحيين امام قوات الفرس ، تدل على ان الكتابيين بمكة انما كانوا من النصارى • وقد ذهب البعض الى ان صورة السيد المسيح وامه مريم ، قد وجدت في الكعبة المشرفة عند فتح مكة في العام الثامن للهجرة ، وان هذا يعد أثرا من آثار النصرانية في مكة قبل الاسلام ، واذا صحت هذه الرواية فانها تدل الى جانب وجود النصرانية وانتشارها في مكة على ان هناك بعضا من العمال النصارى شاركوا في بناء الكعبة •

ومن بين من عرفوا بمكة بأنهم نصارى نسطاس مولى صفوان بن أمية القرشي وحنا أو يوحنا عبد صهيب بن سنان الرومي .

اما في المدينة المنورة ، فقد كان هناك موضع يقال له " سوق النبط " يسكن فيه نصارى ، وكان في بادئ الامر مكانا يقصده تجار الشام من الانباط الذين كانوا يحملون الحبوب والزيت والنبيذ ، ولما كان هؤلاء من النصارى فمن المقبول ان يعرفوا بعض الناس بديانتهم . وهناك من يذهب الى ان أبا عامر الراهب الانصارى ــ فضلا عن جماعة من الأوس ــ كانوا قد فروا من المدينة ولجأوا الى مكة ، ثم جاءوا مع المشركين لقتال المسلمين في غزوة أحد . هذا وقد انتشرت النصرانية بين عرب الشام اكثر من انتشارها بين عرب العراق ، وربما كان السبب ان الروم ، اصحاب السلطان على الشام ، كانوا نصارى ، كما انهم كانوا يتخذون من النصرانية وسيلة من وسائل بسط نفوذهم على الغساسنة وغير الغساسنة ، ومن ثم فقد كانوا يشجعون حركة التبشير بين الاقاليم غير النصرانية . اما النصرانية في العراق فانما قامت في بلاد يسيطر عليها قوم وثنيون ، ولم تكن النصرانية واحدة من وسائل تقوية نفوذهم في العراق . ومع ذلك فالنصرانية كانت منتشرة بين جزء كبير من اهل الحيرة ، وخاصة بين الجماعة التي عرفت بالعباد ، كما كان هناك عدد من الكنائس والاديرة التي اشتهرت بين العرب ، وكان اول من تنصر من ملوك الحيرة النعمان ابو قابوس في أواخر القرن السادس م ، وقبل ان يتنصر ملوك الحيرة كان بعض افراد عائلتهم قد دخلوا في المسيحية ، ومن امثلة هؤلاء هند زوجة المنذر الثالث التي بنت ديرا وكنيسة بقي منها النقش التأسيسي الذى يقول ، على وجه التقريب :

" هذه الكنيسة شيدتها هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة وابنة الملوك ، خادمة المسيح ، وأم خادمه ، وابنة خدامه ، على عهد ملك الملوك كسرى انو شروان ، وكان " افرم " أسقفا للمدينة .

اما في بلاد الشام فان الغسانيون كانوا قد تنصروا ، كما انهم تمسكـوا بمذهبهم اليعقوبي (الارثوذكسي) عن قناعة وليس لاغراض سياسية ٠

واما عن بداية النصرانية في اليمن ، فهناك رواية تذهب الى ان دخول النصرانية الى اليمن انما تم على يد التبع (عبد كـلال بن مثوب) وقد اخذها عن رجل من غسان ٠ وهناك رواية اخرى تذهب الى ان راهبا دعوه (فيميون) قد خرج ومعه تابع يقال له صالح من بلاد الشام في طريقه الى شبه الجزيـرة العربية ، الا ان الاقدار وضعت في طريقهما سيارة من العرب ، خطفوهمـا وباعوهما في نجران ، وهناك استطاع هذا الراهب ان يبصر القوم بعبـادة ربهم الواحد الاحد ، فآمن القوم بدين "فيميون" ومن هنا كانت النصرانية في نجران ٠ اما المصادر النصرانية اليونانية فتذهب الى ان الامبراطور البيزنطـي "قسطنطين الثاني" (٣٥٠ ــ ٣٦١م) قد ارسل عام ٣٥٦م "ثيوفيلي" الى اليمن لنشر المسيحية وقد نجح الرجل في مهمته وأنشأ كنيسة في ظفار واخـرى في عدن وثالثة في هرمز ٠ اما المصادر السريانية فترجع نشر المسيحية في اليمن الى تاجر يمني دعته حنا أو حيان وكان قد تلقى مبادىء المسيحية في الحيـرة وعند عودته الى نجران بشر بها بين قومه ٠

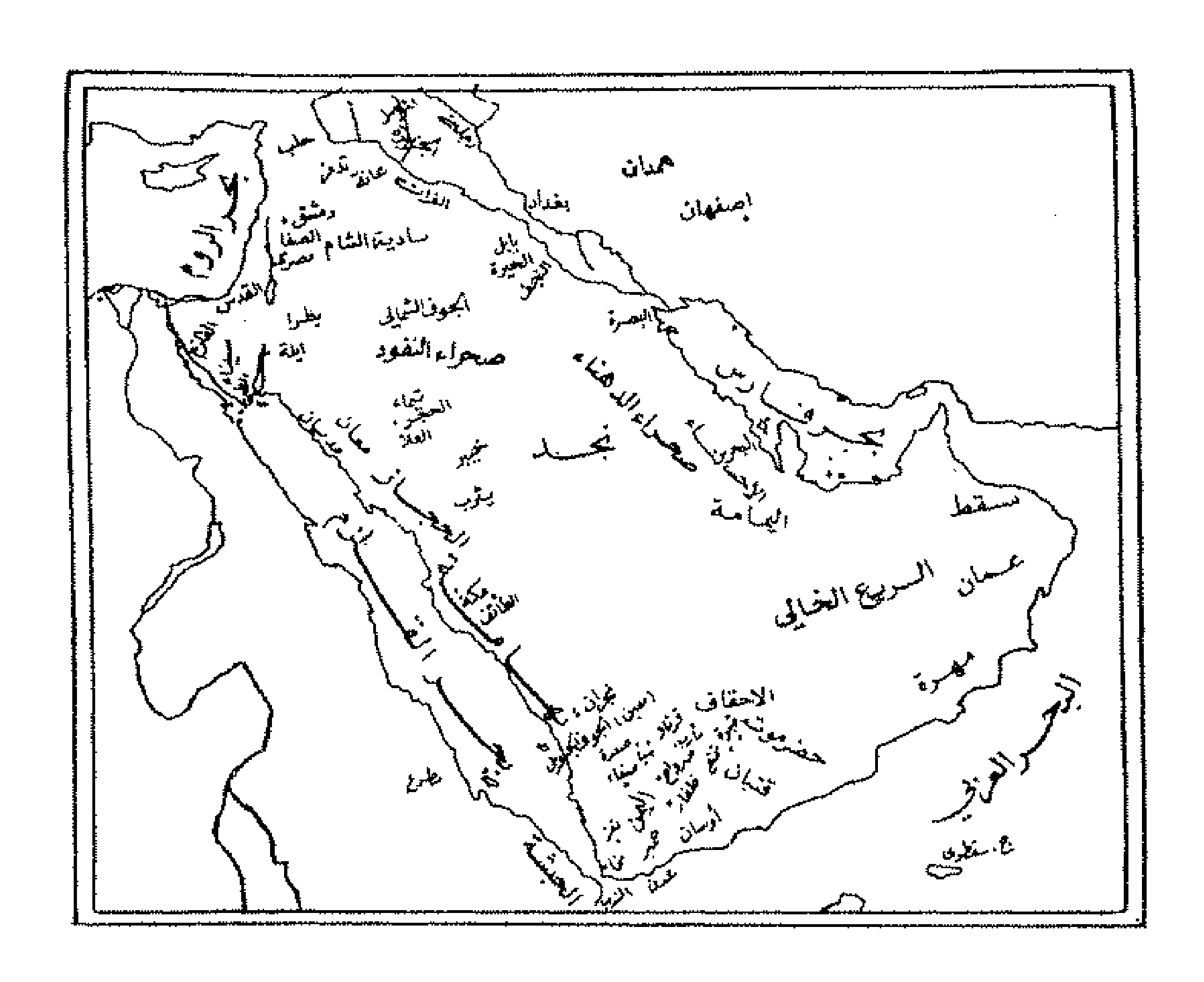
وهناك رأى آخر يذهب الى ان انتشار المسيحية في اليمن لم يكن عن طريق واحد ، وانما اتخذ سبلا مختلفة وطرقا عدة ، وجاءت الى اليمن مـن الشمال عن طريق الشام فالحجاز مرة ، وعن طريق الغرب من الحبشة مرة اخرى ، وربما من العربية الشرقية مرة ثالثة ٠ وقد تبع دخول المسيحية في اليمن انشاء الكنائس ومن اهمها الكنيسة المشهورة "القليس" في صنعاء ، وكان الهـدف من اقامتها صرف الحجيج من مكة الى صنعاء وما يتبع ذلك من فوائد ماديـة وأدبية وسياسية ، وكانت نجران ايضا من اهم المراكز المسيحية في بلاد العرب

الجنوبية ، وقد شيدت بها كنيسة عرفت ب (كعبة نجران) .

هذا وقد أدى ذلك الوضع الديني المضطرب في بلاد العرب ، والذى كان قوامه خليط من عناصر يهودية ومسيحية ووثنية الى ان يبحث قوم عن ربهم بعيدا عن هذه الديانات جميعها ، وهكذا ظهر في بلاد العرب ماعرف بالحنفاء — ومفردها حنيف — وهم الذين يميلون الى الحق او الى الدين المستقيم ، او الذين يستقبلون البيت الحرام ، او الذين أسلموا في أمر الله فلم يلتوا في شيء وتتفق غالبية الآراء في ان الحنفاء كانوا على ملة ابراهيم ، ولم يكونوا يهودا أو نصارى ، ومن ثم فهي ليست دينا جديدا ، وانما مجرد حركة دينية وصف اصحابها بالحنفاء اتباع ابراهيم الخليل عليه السلام ، نادوا بنبذ الاصنام والتخلص من عادات الجاهلية السيئة ، ثم الدعوة الى الايمان بإله واحد لا شريك له .

ويرجع الفضل للقرآن الكريم في حفظ اخبار هؤلاء الحنفاء ، فلقد جاء ذكرهم فيه في موضعين ، الواحد في سورة الحج ، والآخر في سورة البينة ، كما ورد في القرآن الكريم لفظ "حنيفا" في عشر مواضع .

وأيا ما كان الامر ، فان التيارات التوحيدية ظهرت في بلاد العرب في القرن السادس الميلادى بوضوح ، وعلى الرغم ان اليهودية والنصرانية قد أوجدتا الشك في صحة الديانة الوثنية ، فانهما لم تفلحا في ادخال تغيير جوهرى في النظم الدينية ، وبقيت بلاد العرب تموج بهذا التعدد في الديانات الى ان ظهر سيدنا ومولانا محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقضى على كل أثر للوثنية ، وقدر له نجاحا بعيد المدى في القضاء عليها .



خريطة رقم (١) بلاد العرب

مأخوذة من كتاب "في تاريخ العرب قبل الاسلام"

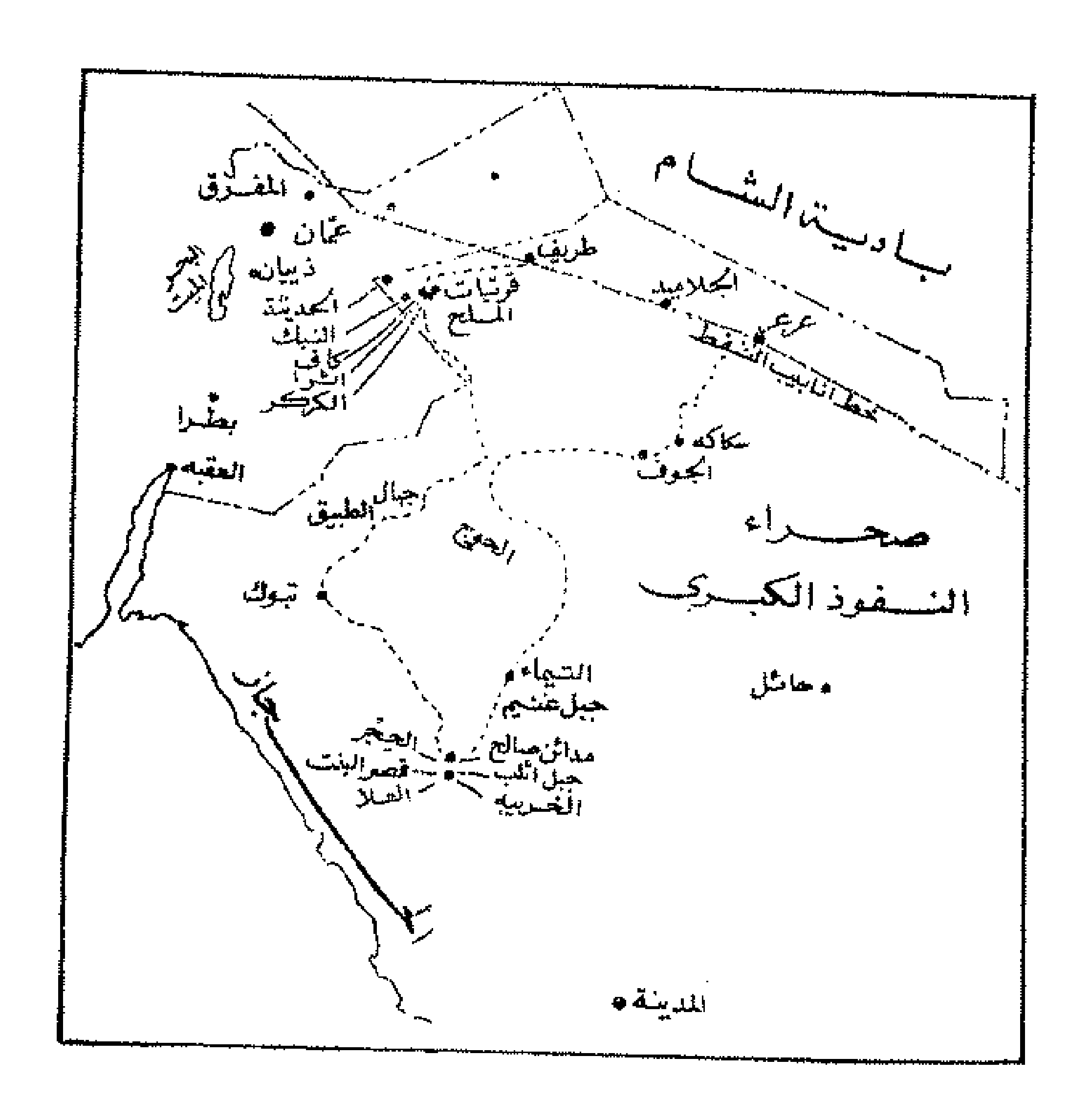
للاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد



خريطة رقم (٢) اليمن والحبشة

مأخوذة من كتاب " الحضارات السامية القديمة "

تأليف سبتينو موسكاتي وترجمة يعقوب بكر



خريطة رقم (٣) شمال الحجاز

مأخوذة من كتاب "في تاريخ العرب قبل الاسلام"

للاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

فهـرس الموضوعـات

صفحـــة